

الفصل الثاني والعشرون

فرانسييس الأول والإصلاح الدينى فى فرنسا

١٥١٥ - ٥٩

١ - الملك الأنف الكبير

ولد تحت شجرة فى كوفياك فى اليوم الثانى عشر من سبتمبر عام ١٤٩٤ ، وجده هوشارل أورليان الشاعر ، وربما كان الغناء وحب الجمال فى دمه ، وأبوه شارل أمير فالوا وأورليان ، كونت أنجوليم ، الذى مات بعد أن اقترفت الكثير من الآثام ، وكان فرانسييس لم يتجاوز بعد العام الثالث من عمره . وأمه لويز أميرة سافوى ، وهى امرأة على جمال واقتدار وطموح ، تتعشق الثراء والسلطة . وقد ترملت فى السابعة عشرة من عمرها ، وأبنت الزواج من هنرى السابع ملك إنجلترا ، ووقفت جهدها - إذا استثنينا بعض العلاقات المحرمة - على إعداد ابنها ليكون ملكاً على فرنسا ، ولم تشعر بالأسى عندما وضعت آن أميرة بريتانى ، زوجة لويس الثانى عشر ، ولداً ميبأ ، وتركت لفرانسييس ولاية العهد . وعين لويس ، وقلبه مفعم بالحزن ، فرانسييس دوقاً لفالوا ، ورتب له المربين لتلقيته فن تدبير الملك . وأسبغت عليه لويز ، وكذلك أخته مرجريت ، من عاطفة الأمومة ما وصل إلى درجة الوله : وأعداه ليكون ملكاً على قلوب النساء . وكانت لويز تناديه « مليكى » مولاي ، قبصرى ، وغذته بقصص الفروسية وتباهت بمغامراته الغرامية ، وكان يغمى عليها عندما ترى الضربات تكال

له فى المبارزات التى شغف بها . وكان شاباً وسيماً مرحباً أنيساً شجاعاً ، يواجه الأخطار بصدر رحب وكأنه رولان أو أماديس ، وعندما أفلت خنزير برى من قفصه ، وانطلق يعيثُ فساداً فى فناء قصر فرانسيس ، واجه الأمير الوحش ، وذبحه فى بطولة رائعة ، فى الوقت الذى فرّ فيه الآخرون لا يلوون على شىء .

وعندما بلغ الثانية عشرة من عمره (١٥٠٦) خطبوا له كلود أميرة فرنسا ، ابنة لويس الثانى عشر ، البالغة من العمر سبع سنوات . وكانت موعودة بأن تكون خطيبة للصبي الذى قدر له أن يصبح الإمبراطور شارل الخامس ، إلا أن الخطبة فسخت لكى تتجنب فرنسا الوقوع فى براثن أسبانيا ، وكان هذا موضوعاً واحداً من مئات موضوعات الاستفزاز التى حفزت إلى الصراع بين بيتى هابسبورج وقالوا من الفتوة إلى الموت . وعندما بلغ فرانسيس الرابعة عشرة من عمره ، أمر بأن يهجر والدته وأن ينضم إلى لويس فى شينون ، وتزوج كلود عندما بلغ العشرين ، وكانت فتاة بلدية بليدة عرجاء ، ولودا صالحة ، وأنجبت منه أطفالاً فى أعوام ١٥١٥ ، ١٥١٦ ، ١٥١٨ و ١٥٢٠ ، ١٥٢٢ ، ١٥٢٣ وماتت عام ١٥٢٤ .

وفى غضون ذلك أصبح ملكاً (أول يناير عام ١٥١٥) ، ونمزت السعادة قلوب الجميع ، وعلى رأسهم أمه التى أنعم عليها بدوقيتى أنجوليم وأنجو . وكونتيتى ماين وبوفور ، وبارونية أمبواز . بيد أنه لم يكن أقل كرمًا مع الآخرين - النبلاء والفنانين والشعراء والوصفاء العشيقات . وكان صوته المرح ودمائه وهدوء طبعه وحيويته المتدفقة وجاذبيته ، وجمعه بين سمات القروسية ومزايا عصر النهضة كل ذلك جعله أثيراً لدى أبناء جلدته ، بل وحاشيته . واعتبعت فرنسا وعلقت عليه آمالاً عريضة . كما حدث فى إنجلترا إبان تلك السنوات التى حكم فيها هنرى الثامن ، وفى الإمبراطورية إبان عهد شارل الخامس ، وبدا العالم فتياً من جديد منتعشاً

بشباب الملك . وصمم فرانسس ، وكان في تصميمه أقوى من ليو العاشر ، على أن ينعم بعرشه .

ترى ماذا كان في الواقع ذلك الرجل الذي يجمع بين صفات آرثر ولانسلوت ؟ إنه كان رائع التكوين من الناحية البدنية ، لولم يكن أنفه كبيراً على ذلك النحو . وقد أطلق عليه بعض معاصريه الذين يفتقرون إلى الاحترام لقب « الملك الأنف الكبير » . وكان فارغ القامة ، طوله ست أقدام ، عريض المنكبين ، خفيف الحركة قوى البنية . وكان في وسعه أن يجرى ويقفز ، ويصارع ويبارز أمهر الخصوم ، وكان يستطيع أن يستعمل سيفاً بمقبضين أو رمحاً ثقيلًا . وكانت لحيته الخفيفة وشاربه الرفيع لا يخفيان شبابه ، فقد كان في الحادية والعشرين عندما توج ملكاً . وكانت عيناه الضيقتان تمان على التيقظ وخفة الروح ، وإن كانتا لا تدلان على الدهاء أو العمق . وإذا كان أنفه يدل على الفحولة ، فإنه كان يطابق شهرته . وقد كتب برانتوم ، الذي لا يعد كتابه « نسوة عاشقات » مصنفًا تاريخيًا ، في ذلك الوقت يقول : « لقد عشق الملك فرانسس الكثيرات ، وأحب الكثيرات إلى حد الإفراط ، ولما كان شاباً فتياً حراً فقد كان يحتضن الواحدة حيناً ، والأخرى أحياناً بلا اكتراث . . . ومن أجل ذلك أصيب بمرض الجدري الذي عجل بنهايته » (١) . ويروى أن أم الملك قالت إنه لقي جزاءه حيث اقترف خطيئته (٢) . وربما بالغ التاريخ في تنوع غرامياته . ومهما كان عددها ، فإنه ظل وفياً مخلصاً في الظاهر أولاً لفرانسواز دى فوا ، كونتيسة دى شاتوبريان ، ثم لأن دى بسليو التي أنعم عليها بلقب دوقة ديتامت ، وذلك من عام ١٥٢٦ إلى أن قضى نحبها ونشرت عنه

(*) وما هو أقرب إلى الأسطورة ، قصة المحامي الذي وقع الاختيار على زوجته لابل فرونييز (بياضة الأدوات الحديدية الجميلة) للمخدع الملكي ، فما كان منه إلا أن أصاب نفسه بعدوى المرض فقتل لإيها مرض الزهري حتى تصيب به الملك .

الشائعات الباطلة ماثت من الحكايات التي تدور حول مغامراته الغرامية — وأنه حاصر ميلان لاحقاً في ميلان ، ولكن من أجل سواد عيني فتاة لا تنسى ، رآها هناك (٢) ، أو لأن امرأة لعوباً في بافيا أغرته وقادته إلى مجور مأساته (٣) . ولا يسعنا على أية حال إلا أن نخالطنا شيء من العطف على ملك مرهف الحس إلى هذا الحد . لقد كان قادراً على الحنان والوله إلى درجة الخبال : وعندما رأى أن يطلق ابنه من كاترين دي مديتشى بعد أن ثبت أنها عاقراً أثنته دموعها عن عزمه (٤) . وفي هذا قال أرازموس « لا يمكن أن يتخيل امرؤ وجود شخص أرق عاطفة من فرانسيس (٥) » . وإذا كان قد قال ذلك بسبب العطف لبعد المسافة ، فإن بودس عالم الإنسانية المتخصص في شئون فرانسيس وصفه بأنه « مهذب رقيق من السهل الحصول على رضاه (٦) » .

وكان معجباً بنفسه للدرجة لا تفتقر من رجل . وكان ينافس هنرى الثامن في فخامة ثيابه الملكية وفي إهمال فراء قلفسوته . واتخذ السمندل رمزاً له ، مما يدل على الإصرار على البعث من كل احتراق ، بيد أن الحياة لسعته مع ذلك بشواظها . وكان يحب أن يقابل بمظاهر التبجيل والامتياز والتملق ، ويضيق ذرعاً بالنقد . وأمر بجلد ممثل لأنه هجا الحاشية ، وقد واجه لويس الثاني عشر لذعات نفس الملاحظات الساخرة فاكتفى بالابتسام (٨) . وكان جاحداً للجميل ، كما حدث مع آن دى مونمورنسى ، وظالماً كما كان مع شارل البوربونى ، وقاسياً كما كان مع ممبلانسائى ، ولكنه كان على الجملة معروفاً بالصنم والكرم . وكان الإيطاليون يتعجبون من سخائه (٩) . ولم يظهر في التاريخ حاكم يفوقه في الرفق بالفنانين ، وكان يعشق الجمال عشقاً يتسم بالقوة والقطنة ، وكان على استعداد لأن ينفق على الفن كما ينفق على الحرب ، وقدم نصف ما أنفق من مال في عصر النهضة الفرنسية .

ولم تكن قدرته الذهنية تضارع جاذبية شخصيته ، وكان يعرف القليل من

اللاتينية ، ولا يعرف شيئاً من اليونانية ، بيد أنه أدهش الكثيرين بتنوع معارفه ودقتها عن الزراعة والصيد والجغرافية والعلوم الحربية والأدب والفن ، وكانت الفلسفة تلذ له عندما لا تتعارض مع الحب أو الحرب ، وكان شديد التهور والاندفاع إلى درجة لا يصلح معها قائد أعظيماً ، خفيف الروح يعشق المتعة إلى حد لا يصلح معه لأن يكون سياسياً كبيراً ، وكانت تسحره المظاهر فلا ينفذ إلى جوهر الأمور . ويتأثر في لطف بالخللان والحظايا فلا يستطيع أن يختار أصلح من لديه من القادة والوزراء ، وكان شديد الصراحة لا يخفى أمراً إلى حد لا يصلح معه لأن يكون دبلوماسياً قديراً . وحزنت أخته مرجريت بسبب عجزه عن الحكم ، وتلبأت بأن الإمبراطور الداهية العنيد سوف يزيجها عن فرسه في مقارعتها التي دامت مدى الحياة . أما لويس الثاني عشر الذي كان يعجب به « بوصفه شاباً شهماً رقيقاً » . فقد رأى في توجس إفراط خلفه في الملذات . وقال : « لا فائدة من كل ما نعمل ، إن هذا الولد العظيم سوف يفسد كل شيء » (١٠) .

٢ - فرنسا في عام ١٥١٥

كانت فرنسا وقتذاك تنعم برخاء تجوده به تربة سنية ، ويتحقق على يد شعب ماهر يحسن التدبير وحكم خير . وكان عدد السكان زهاء ١٦.٠٠٠.٠٠٠ نسمة في مقابل ٣.٠٠٠.٠٠٠ نسمة في إنجلترا و ٧.٠٠٠.٠٠٠ نسمة في أسبانيا . وكانت باريس بسكانها البالغ عددهم ٣٠٠.٠٠٠ نسمة تعد أكبر مدينة في أوروبا بعد القسطنطينية . وكان البناء الاجتماعي نصف إقطاعي : فكل الفلاحين تقريباً كانوا يملكون الأرض التي يفاخونها ، ولكنهم كانوا يحتفظون بها عادة في إقطاع من الأرض - وكانوا يدفعون مكوساً أو يؤدّون خدمات - لسادة وفرسان مهمتهم تنظيم الزراعة وتقديم الحماية العسكرية لإقليمهم وللأمة . وأدى التضخم الناتج من تكرار خفض العملات والتعدين

أو استيراد المعادن الثمينة إلى تيسير دفع المكوس المالية التقليدية ، وأتاحت للفلاحين إمكانية شراء الأرض رخيصة من الملاك الأثرياء والنبلاء الفقراء ، ومن ثم انتشر في الريف رخاء أشاع المرح في نفس الفلاح الفرنسي وجعله يتشبث بعقيدته الكاثوليكية ، بينما كان الفلاح الألماني يقوم بثورة اقتصادية ودينية ، وحفزت الملكية الطاقاة الفرنسية فجنت من الأرض أفضل أنواع القمح والكروم في أوروبا ، وسمنت الماشية وتضاعف عددها ، وكان اللبن والزبد والجبن يقدم على كل مائدة ، والدجاج وغيره من الدواجن تربي في كل فناء تقريباً ، وتقبل الفلاح الرائحة المنبعثة من حظيرة خنازيره كما لو كانت شذى مباركاً من أعراف الحياة .

أما العامل في المدينة - وهو في الغالب صانع ماهر يعمل في حانوته - فلم يكن له نسبياً نصيب من هذا الرخاء ، لقد أدى التضخم إلى سرعة ارتفاع الأسعار بصورة تفوق زيادة الأجور ، وساعدت التعريفات الجمركية التي فرضت لحماية السلع المحلية والاحتكارات الملكية ، مثل استخراج الملح ، على ارتفاع نفقات المعيشة . وأضرِب العمال المتعلمون ، ولكنهم جميعاً ، على وجه التقريب ، لم يظفروا إلا بالفشل والخيبة . وحرم القانون على العمال الاتحاد لأغراض اقتصادية . وكانت القوافل التجارية تنتقل متراخية على طول الأنهار الفيضاضة وتسير بصعوبة على طول الطرق السيئة ، وتدفع لكل سيد ضريبة للمرور في أملاكه ، وكانت ليون التي تلتقي فيها تجارة البحر الأبيض المتوسط القادمة صعيداً من الرون بسيل البضائع القادمة من سويسرة وألمانيا ، تعد ثاني مدينة بعد باريس في الصناعة الفرنسية . والثالثة بعد أنتورب باعتبارها سوقاً للأوراق المالية أو مركزاً للاستثمار والتمويل . وكانت التجارة تنطلق من مارسيليا ، وتجوب البحر الأبيض المتوسط ، وتجنح الريح بفضل العلاقات الودية التي جرتو فرانكيس على الاحتفاظ بها مع سليمان والأثراك .

وغنم فرانسيس من هذا الاقتصاد ، على غرار ما كانت تفعله الحكومات ، دخولاً وصلت إلى الحد الذى يدفعه إلى التسامح ، وكانت ضريبة الملك أو السيد ، التى تفرض على الرعوس والأموال ، تثقل كاهل الجميع ، ما عدا النبلاء ورجال الدين ، وكان الآخرون يدفعون للملك ضرائب عشور ومنحاً كنسية ، أما النبلاء فكانوا يقدمون الفرسان ويجهزونهم ، وكان هؤلاء الفرسان لا يزالون عماد الجيوش الفرنسية وقوتها الضاربة . وتلقى فرانسيس درساً من البابوات فباع — وأنشأ للبيع — ألقاباً للنبلاء ومناصب سياسية . وبهذا كون الأغنياء الجدد على الأيام طبقة أرسقراطية جديدة (كما حدث فى إنجلترا) ، وأسس المحامون بشرائهم للمناصب ، ببروقراطية قوية كانت تدبر حكومة فرنسا — وأحياناً بغير علم الملك .

ولم يجد الملك بسبب انهماكه فى الملذات وقتاً كافياً يدير فيه شئون الحكم ، فأتاب عنه فى تولى مهامه ، حتى فى رسم سياساتها ، رجالاً مثل أمير البحر بونيفيه وآن دى مونمورنسى والكردينالين دوبرا ودى تورنون والفيكونت دى لوتريك . وكانت هناك ثلاثة مجالس تعاون هؤلاء الرجال والملك وتشير عليهم بالرأى ، وهى : مجلس خاص من النبلاء ، ومجلس أخص للشئون ، ومجلس موسع ينظر فى طلبات الاسترحام المقدمة إلى الملك . وفيما عدا هذا كان المجلس النيابى فى باريس ، ويتألف من ٢٠٠ عضو من العلمانيين ورجال الدين ، يعينهم الملك مدى الحياة ، بمثابة محكمة عليا . وكان له الحق فى الاعتراض عليه عندما يرى أن مراسيمه تتعارض مع قوانين فرنسا الأساسية ، وكانت مراسيمه تظل تفتقر إلى قوة القانون إلى أن تقوم هذه الهيئة القديمة بـ « تسجيلها » — بل بالتصديق عليها فى واقع الأمر .

ولما كان المحامون والشيوخ يغلبون على المجلس النيابى فى باريس ، فقد أصبح الجهاز القومى السياسى للطبقات الوسطى وأضحى — بعد السوربون —

أكبر هيئة محافظة في فرنسا . وكانت المجالس النيابية المحلية والمحافظون الذين يعينهم الملك ، يديرون شئون الحكم في المقاطعات ، وتجاهل الجميع حينما مجلس الطبقات ، وحلت جباية الضرائب محل المنح التي تقدم على سبيل المساعدة ، وتضاءل دور طبقة النبلاء في الحكومة .

وكان النبلاء يقومون بوظيفة مزدوجة : تنظيم الجيش وخدمة الملك في البلاط . وكانت الحاشية التي تتألف من الرؤساء الإداريين ورؤوس النبلاء وزوجاتهم وأبناء الأسرة وأصفياء الملك ، قد أصبحت وقتذاك على رأس فرنسا وفي الصدر منها ، ومرآة تعكس البدع والمهرجان الملكي الدائم المتحرك ، وعلى قمة هذه الدورة كان مدير قصر الملك الذي كان ينظم كل شيء ويرعى البروتوكول ، ثم الحاجب المكلف بغرفة نوم الملك ، ثم أربعة من السادة الموكلين بمخدع الملك ، أو كبار الوصفاء الذين كانوا دائماً رهن إشارة الملك لتلبية رغباته ، وكان هؤلاء الرجال يستبدل بهم آخرون كل ثلاثة أشهر ، وذلك لمنح غيرهم من النبلاء فرصة يحل فيها الدور عليهم للقربى البهيجة من الذات الملكية . ولكيلا يتعرّض أحد للإغفال كان هناك عدد من السادة يتراوح بين عشرين وأربعة وخمسين لمخدع الملك يخدمون الأربعة الكبار ، يضاف إلى هؤلاء اثنا عشر وصيفاً للمخدع ، وأربعة حجاب للمخدع ، وكانت أجنحة نوم الملك تلتقي العناية المناسبة ، وكان هناك عشرون سيداً يعملون مشرفين على مطبخ الملك ، وينظمون أعمال جماعة تتألف من خمسة وأربعين رجلاً وخمسة وعشرين من سقاة الخمر . وكان هناك نحو ثلاثين غلاماً من وصفاء الشرف - أولاد لهم نسب جليل - يعملون وصفاء للملك ، ويتألقون في زى مفضض خاص ، وجمع من أنماء السر يضاعفون من طاقة الملك على التدوين والتذكر ، وكان القس الأكبر للكنيسة الملكية كروينالا ، ويشرف أسقف على المحراب أو المصلى ، وسمح لخمسين من الأساقفة الأبروشيين بإسباغ البركة على البلاط ، وبذلك

يزدادون شهرة . وأنشئت مناصب شرف مثل : « خدم الغرفة الخاصة بمرتب قدره ٢٤٠ جنيهاً ، وقد منحت للقيام بمهام مختلفة ، كالتي أنعم بها على علماء مثل بوديه وشعراء مثل مارو . ولا يفوتنا أن نذكر سبعة أطباء وسبعة جراحيين وأربعة حلاقين وسبعة مرتلين وثمانية صنّاع ماهرين وثمانية كتبة للطبخ وثمانية حجاب بقاعة الاجتماعات . وكان لكل ولد من أبناء الملك خدمه الخاصون به . . . مشرفون وكتاب سر ومريون ووصفاء وخدم : وكان لكل واحدة من الملكتين في البلاط - كلود ومرجريت - بطانة خاصة تتألف من خمس عشرة سيدة أو عشر سيدات يعملن وصيفات وست عشرة أو ثمان من وصيفات الشرف - آنسات . ومن أعظم ما اشتهر به فرانسيس أنه جعل للنساء مكانة عليا في بلاطه ، وأنه كان يغمز بعين الخبير إلى علاقاتهن غير الشرعية ، ويشجع ويستمتع باستعراض حلبن ومفاتهن الرقيقة . وقال : « أى بلاط يخلو من السيدات حديقة مجردة من الأزهار (١١) » ؟ ولعل النساء - اللاتي وهبن جمال الفن ، الذي لا تلحقه الشيخوخة - هن اللاتي أضفين على بلاط فرانسيس الأول رونقاً جميلاً وحافزاً على البهجة لا نظير لهما حتى في القصور الإمبراطورية بروما . وكان كل الحكام في أوروبا يفرضون المكوس على شعوبهم ليهبثوا لأنفسهم صورة مصغرة لهذا الحلم الباريسي .

وتحت هذا السطح المصقول كانت هناك قاعدة عريضة من الخدم : أربعة من الطهارة ، وستة من مساعدى الطهارة ، وطهارة متخصصون في أطباق الحساء أو المرقق المتبل أو الشواء ، وعدد لا يحصى من الأشخاص ، لتقديم الطعام إلى الملك وخدمته على المائدة ، وفي المطبخ المشترك للحاشية ، وتلبية احتياجات السيدات والسادة والسهر على راحتهم ، وكان هناك موسيقيو البلاط يقودهم أشهر المغنين والملحنين والعازفين على الآلات في أوروبا خارج روما ، ويشرف على الحظائر الملكية مدرب للخيل ، وخمسة وعشرون من

من رؤساء الركائب النبلاء ، وحشد من الخوذية والسواس ، وهناك رؤساء يشرفون على الصيد ، ومائة كلب و ٣٠٠ صقر يدرّبها ويعنى بها مائة مدرب للصقور تحت إشراف كبير مدربي الصقور . وتألّف حرس الملك من أربعائة من الرماة ، يضيئون البلاط بأزيائهم الملونة .

ولم يكن هناك مبنى في باريس يكفي لمآدب البلاط وحفلاته الراقصة وحفلات الاستقبال الدبلوماسية . وكان قصر اللوفر وقتذاك حصناً كثيباً ، فانصرف عنه فرانسس إلى القصور المنسقة المعروفة باسم ليه تورنل (الأبراج الصغيرة) قرب الباستيل ، أو إلى القصر الفسيح الذي اعتاد المجلس النيابي أن ينعقد فيه ، ومع أنه كان لا يزال يعشق الصيد فقد انتقل إلى فونتينباو أو إلى قصوره الممتدة على نهر اللوار في بلوا أو شامبور أو امبواز أو تور — ساحباً معه نصف الحاشية وثروة فرنسا . وقد وصف شليني بمبالغته المعهودة ولي نعمته الملك بأنه كان يسافر ومعه بطانة مكونة من ١٨٠٠٠ شخص و ١٢٠٠٠ جواداً (١٢) . واحتج السفراء الأجانب على ما يتكبّدونه من نفقات ومشقة ، في سبيل لقاء الملك أو مسابرتة ، وإذا وجدوه فإنه يكون على الأرجح ، نائماً في فراشه حتى الظهر ، يفيق من المتع التي نعم بها في الليلة الماضية ، أو منصرفاً إلى ما يلزم لرحلة صيد أو مباراة للفروسية . وكانت نفقات هذا المجد الطواف باهظة ، وكانت الخزانة دائماً على شفا الإفلاس ، والضرائب ترتفع على الدوام ، والمصرفيون في لبون يُكرهون على تقديم قروض للملك ، يتعرضون فيها للمخاطر . وعندما أدرك الملك عام ١٥٢٣ أن نفقاته تتجاوز موارده ، وعد بوضع حد لإشباع رغباته الشخصية « وهي لا تشمل على أية حال المطلب العادي لاحتياجاتنا ومتعنا القليلة (١٣) » . وكان يلتمس لنفسه عنراً في تبذيره بحاجته إلى التأثير في المبعوثين والتغلب على النبلاء الطموحين ، وإدخال البهجة على قلوب العامة ، ورأى أن الباريسيين يتعطشون للعروض ، وأن إعجابهم بأبهة ملكهم يفوق امتياعهم منه .

وأصبحت حكومة فرنسا آنذاك مزدوجة الجنس . فكان فرانسس يحكم في الظاهر حكماً مطلقاً ، بيد أنه كان يعشق النساء إلى درجة جعلته يخضع لأمه وشقيقته بل وزوجته . ولا بد أنه كان يحب كلود إلى حد ما لأنها ظلت على الدوام حاملاً منه ، وقد تزوجها لأسباب تتعلق بمصلحة الدولة ، وشعر بأن من حقه أن يقدر نساء أخريات خلقن في صورة فنية أجمل منها . وحذت الحاشية حذو الملك في ممارسة فن فحش ظريف . ووطن رجال الدين أنفسهم على قبول هذا الوضع بعد إبداء الاعتراض المناسب ، أما الشعب فلم يبد أي اعتراض ، ولكنه قلد شاكرآ سنة الحاشية الدثمة — ما عدا فتاة واحدة ، قيل لنا إنها شوهت بجمالها عمداً لتنجو من الفسق الملكي (١٥٢٤) (١٤) .

وكانت أقوى النساء نفوذاً في البلاط والدة الملك ، وقالت لويز أميرة سافوى إلى قاصد رسولى : « وجه خطابك لى ، وسوف نسير في طريقنا ، وإذا شكنا الملك فإننا سنتركه يتكلم كما يشاء (١٥) » ، وكثيراً ما كانت على صواب في نصيححتها . وعندما تولت الحكم كناتبة للملك ، أصبحت البلاد خيراً مما كانت عليه بين يديه المترخين . ولكن أطعمها دفعت دوق بوربون إلى خيانة الوطن ، وأدت إلى هلاك جيش فرنسى جوعاً في إيطاليا . وغفر لها ابنها كل شيء ، وشعر بالشكر لأنها جعلت منه إلها .

٣ - مرجريت أميرة نافار

ولعله كان يحب شقيقته حباً لا يفوقه إلا حبه لأمه ، وإن كان يزيد على حبه لعشيقاته — وقد منحته موازرتها شيئاً أقل خلوداً وعمقاً من تمجيدها المجرد من الأنانية . وكانت لا تعيش إلا للحب — حب أمها وشقيقها وزوجها ، وهو حب أفلاطونى وحب دينى صوفى . وثمة حكاية لطيفة تقول : « لقد ولدت وهى تبسم ، وتمد يدها الصغيرة لكل

قادم (١٦) » وقد أطلقت على أمها وشقيقها ونفسها اسم « ثالوثنا » ، وقنعت بأن تكون « الزاوية الصغرى » في ذلك « المثلث المتساوى الأضلاع (١٧) » . وكانت بحكم مولدها مرجريت أميرة أنجوليم وأورليان وقالوا : وتكبر فرانسيس بعامين ، فأسهمت في تنشئته وشاركته ألعاب الطفولة ، وكانت بمثابة « أمه وعشيقتة وزوجته الصغيرة (١٨) » . وسهرت عليه في كلف شديد كما لو كان إلهاً مخلصاً قد تحول إلى إنسان ، وعندما وجدت أنه كان مسرفاً في شهواته الجنسية مثل « الساطير » تقبلت ذلك التصرف منه باعتباره حقاً لإله من آلهة الإغريق ، على الرغم من أنها بالذات لم تلحقها أى لؤثة من بيئتها . وقد فاقت فرانسيس في الدراسات ، ولكنها لم تضارعه قط في تقديره للفن بعين خبيرة . وتعلمت الإسبانية والإيطالية واللاتينية واليونانية وبعض العبرية ، وأحاطت نفسها وقد تملكبتها رغبة جامحة ، بالأدباء والشعراء وعلماء اللاهوت والفلاسفة ، ومع ذلك فلإنها كانت تتحول يوماً بعد يوم إلى امرأة جذابة ، ولم تكن جميلة الجسد إذ كان لها ذلك الأنف الطويل الذى اشتهر به آل قالوا ، ولكنها كانت ذات سحر أخاذ بفضل مفاتن شخصيتها وذكائها . وكانت عطوفاً ، لطيفة كريمة حنوناً ، وكثيراً ما كانت تندفع في مجون مرح . وكانت تعد من أبرع الشواعر في هذا العصر ، وكان بلاطها في نراك أوبو من أعظم المراكز الأدبية تالفاً في أوروبا . وكان كل إنسان يحبها ويود أن يكون بقربها . وأطلق عليها أهل ذلك العصر الرومانسى الساخر لقب لؤلؤة آل قالوا — لأن مرجريتا Margarita باللاتينية معناه لؤلؤة ، وانتشرت أسطورة جميلة تقول إن لويز أميرة سافوى حمات بها بعد أن ابتلعت لؤلؤة .

وتعد رسائلها لأخيها من أجمل وأرق ما كتب في الأدب . ولا بد أنه كان يطوى جوانحه على الكثير من الخير ، ليفزع منها مثل هذا الإخلاص . وكانت غرامياتها الأخرى متفاوت مدأً وجزراً وتناجح أو تفتر ، أما هذه

العاطفة الطاهرة فقد استمرت نحسين عاماً وكانت قوية على الدوام : وإن لمسات ذلك الحب كادت تظهر هواء ذلك العصر المعطر .

وقد أثار جاستون دى فوا ، ابن أخى لويس الثانى عشر ، أول مشاعر غرامها ، ثم انطلق إلى إيطاليا ليفزو ويقضى نخبه فى رافنا (١٥١٢) ، وسقط جيوم دى بونيفيه صريع هواها ، ولكنه وجد أن قلبها لا يزال مشغولاً بجاستون ، فزوج إحدى وصيفاتها ، ليكون بالقرب منها ، وزفت فى السابعة عشرة من عمرها (١٥٠٩) إلى شارل ، دوق أنسون ، وكان بدوره سليلاً لأسرة ملكية . وقد دعا فرانسيس إلى هذا الزواج توثيقاً للأواصر المصاهرة بين أسر متنافسة إلى درجة مزعجة ، بيد أن مرجريت وجدت أن من العسير عليها أن تحب هذا الشاب ، وعرض عليها بونيفيه أن تلتبس السلوى عن ذلك بالخنا ، فشوهت وجهها بحجر سجاد لتخمد سحر فتنتها له ، وذهب كل من لانسون وبونيفيه إلى إيطاليا للقتال من أجل فرانسيس ، ومات بونيفيه ميقة الأبطال فى بافيا ، أما لانسون فيقال إنه فر وقت تأزم المعركة ، وعاد إلى ليون ، ليجد نفسه موضع الاحتمار من الجميع ، وانتهرت لويز أميرة سافوى ، ووصفته بأنه جبان ، فسقط مريضاً بداء ذات الجنب ، وشفحت عنه مرجريت ، ومهرت على تمريقه فى حنان ولكنه مات (١٥٢٥) .

وبعد عامين من ترمل مرجريت ، تزوجت ، وكانت وقتذاك فى الخامسة والثلاثين ، من هنرى دلبريه ، الملقب بملك نافار ، وهو شاب فى الرابعة والعشرين من عمره ، ولما كان هنرى مبعداً عن إمارته بسبب مطالبة فرديناند الثانى وشارل الخامس بنافار ، فإن فرانسيس نصب هنرى حاكماً على غينا ، وأنشأ بلاطاً مصغراً فى نيراك وأحياناً فى بو فى جنوب غربى فرنسا ، وعامل مرجريت معاملة الأم بل الحماة تقريباً ، ولم يحذ حلوها فى إخلاصها لمهود الزواج ، واضطرت إلى أن تلتبس لنفسها السلوى بالقيام

بدور المضيفة والحامية لكتاب وفلاسفة ولاجئين من البروتستانت . وأنجبت عام ١٥٢٨ ابنة هنرى هى جان دلبريه ، التى قدر لها أن تحظى بالشهرة باعتبارها أم هنرى الرابع ، وبعد عامين أنجبت ابنا مات فى مرحلة الطفولة ، ومنذ ذلك لم تلبس إلا ثياب الحداد . وكتب لها فرانسيس رسالة تفيض ورعا وحنانا كأى رسالة يمكن أن نتوقعها من يراعها . ومهما يكن من شئ فإنه سرعان ما أمرها هى وهنرى بتسليم جان له ، لتنشأ بالقرب من البلاط الملكى . فقد خشى أن يخطبها هنرى لفيليب الثانى ملك أسبانيا ، أو أن تشب بروتستانتية . وكان هذا الفراق أشد النوائب الكثيرة التى أصابت مرجريت قبل وفاة الملك ولكنه لم يصددها عن الإخلاص له . ولأنه لأمر يدعو إلى الأسى ، وإن كان هذا ضروريا أن نروى ما حدث عندما أمر فرانسيس جين بالزواج من الدوق دى كليف ، ورفضت جين ، فأيدت مرجريت الملك إلى حد أنها أصدرت تعليماتها لمربية جين بجعلها إلى أن تدعى . وضربت جين مرارا عديدة ، ولكن جين الشجاعة - وكانت فتاة فى الثانية عشرة من عمرها - أصدرت وثيقة موقعة منها نصت على أنها إذا أكرهت على الزواج فلأنها سوف تعتبره لاغيا . ومع ذلك فقد أعدت الترتيبات للزفاف على أساس نظرية تقول إن حاجات الدولة هى القانون الأعلى ، وقاومت جين حتى آخر لحظة ، وكان لا بد من حملها إلى الكنيسة حملا ، وما أن انتهت مراسم الحفل حتى فرت ، وذهبت لتعيش مع أبويها فى بو حيث كاد تبديرها فى الإنفاق على الثياب والبطانة وإسرافها فى التبرعات يؤدى بها إلى الخراب ،

وكانت مرجريت نفسها المثال المحسم للإحسان . وكانت تسير دون أن يرافقتها حارس فى شوارع بو « مثل أى فتاة هسيطة » ، وتسمح لكل من يريد بمقابلتها ، وتستمتع مباشرة إلى أشجان شعبها وقالت : « ينبغي ألا ينصرف أحد حزيننا أو مغموما من حضرة أمير ، لأن الملوك هم رعاة الفقراء . . . والفقراء عيال الله » (١٩) . وأطلقت على نفسها لقب « رئيس

وزراء الفقراء » وكانت تزورهم في دورهم وتبعث إليهم بالأطباء من حاشيتها ، وشارك هنرى تماما في هذا لأنه كان حاكما ممتازاً ، بقدر ما كان زوجا مقصراً ، وكانت الأشغال العامة التي أدارها تصلح أنموذجا لفرنسا ، فقد مول هو ومرجريت تعليم عدد كبير من الطلبة الفقراء من بينهم أميو الذى ترجم فيما بعد كتاب بلوتارخ ، وقدمت مرجريت المأوى والأمان لمارو ورابليه وديبريه وليفيغري دينايل وكالفن ولكثيرين غيرهم ، إلى حد أن أحد من أسبغت عليهم حمايتها قارنها بـ « دجاجة تتعهد أفراخها بعناية وترفرع عليهم بجناحيها » (٢٠) .

وإلى جانب ما كانت تقوم به من أعمال البر كانت تهتم بثلاثة أمور غلبت على حياتها في نيراك وبووهى : الأدب والحب الأفلاطونى واللاهوت الصوفى الذى وجد متسعاً للكاثوليكية والبروتستانتية على السواء ، وتسامع حتى مع الفكر الحر . وكان من عاداتها أن تدعو الشعراء ليقروا عليها أشعارهم وهى تتلهى بالتطريز ، وكانت تنظم أشعاراً تستحق بعض التقدير ، يمتزج فيها الحب البشرى بالحب الإلهى فى وجد واحد مبهم . ونشرت لبان حياتها عدة مجلدات فى الشعر والدراما ، ليست فى جودة رسائلها التى لم تطبع إلا عام ١٨٤١ . ويعرف العالم بأسره كتبها الأيام السبعة ، بسبب ما اشتهر به من حكايات بلديئة . ولكن أنصار الأدب المكشوف سوف يخيب ظنهم فيها . فهذه الحكايات رويت بأسلوب العصر ، الذى وجد أعظم فكاهة فى الخدع والأعمال ، التى تتسم بالشذوذ وتقلبات الحب ، وانحرافات الرهبان عن عهودهم ، والحكايات نفسها تروى بتحفظ . وهذه الحكايات هى التى رواها الرجال والنساء من حاشية مرجريت ، أو من حاشية فرانسيس ، وقد دونتها بنفسها أو دونت لها (١٥٤٤ - ٤٨) ، ولكنها لم تنشرها قط . وظهرت مطبوعة بعد وفاتها بعشر سنوات . وكانت تعزم أن تؤلف بها مجموعة قصص أخرى على غرار « الأيام العشرة » ، ولكن لما كان الكتاب قد توقف

في اليوم السابع من رواية الحكايات ، فإن الناشر أطلق عليه اسم الأيام السبعة ، ويبدو أن كثيراً من القصص الواردة فيه واقعية ، أخفيت شخصياتها بتغيير أسمائهم ، ويقول لنا برانتوم إن أمه ، وكانت إحدى رواة القصص ، تعرف حقيقة الأشخاص الذين تخفوا بأسماء مستعارة في الحكايات ، ويؤكد لنا مثلاً أن الحكاية الرابعة من اليوم الخامس هي قصة محاولات بونيفيه مع مرجريت نفسها (٢١) .

ويجب التسليم بأن ذوق عصرنا ، المعترف به ، سوف يكره على الإحساس بالخيال أمام قصص الإغراء التي رواها السادة والسيدات من الفرنسيين ، الذين كانوا يتلهون ويقضون أيامهم في التلهي انتظاراً لقيضان يهبط عليهم ويسمح لهم بالعودة من حمامات كوتيريه ، وتثير بعض الملاحظات العارضة الذعر : « أتريد إذن أن تقول إن كل شيء مباح لمن يعشقون بشرط ألا يعرف أحد ؟ »

أجل ، في الحقيقة ، إن الأغبياء فقط هم الذين يكتشف أمرهم (٢٢) . وإن الفلسفة العامة للكتاب لتجد ما يعبر عنها في جملة لها مغزاها ، وردت في الحكاية الخامسة : « ما أتعسر السيدة التي لا تحرص على الحفاظ على كنزها ، الذي يمنحها الحفاظ للنام عليه الكثير من الشرف ، والذي يجلبها بالكثير من العار إن ظلت حريصة عليه (٢٣) » .

ويتخلل الحكايات كثير من العبارات الساخرة المرححة تشيع فيها البهجة ، من ذلك أننا نسمع عن صيدلي ورع من بو « لم يكن له شأن مع زوجته إلا في أسبوع الآلام على سبيل التفكير » (٢٤) وكما هو الحال في كتاب بوكاشيو فإن نصف ما في كتابها من فكاهة يعتمد على لهُو الرهبان . وتقول شخصية في الحكاية الخامسة : « إن هؤلاء الآباء الصالحين يعظوننا بالنزاهة وهم يريدون أن يدنسوا شرف زوجاتنا » . ويوافق على هذا زوج

انتك شرفه ويقول : « منهم لا يتجاسرون على لمس المال ولكنهم على استعداد لأن يمسكوا بأفخاذ النساء وهى أخطر بكثير » . ولا بد أن يضاف إلى هذا كله أن رواة الحكايات المرحية يستمعون إلى القداس كل صباح ويطهرون كل صفحة يقلبونها بعد ذلك بأناشيد التقوى .

والقول بأن مرجريت قد استمتعت بهذه الحكايات أو جمعتها يشير إلى مزاج العصر ، ويدفعنا إلى الخلط من تصويرها قديسة ، وأنها ظلت كذلك حتى سنوات ذبولها ، ومع ما يبدو من أنها هى بالذات كانت مثابرة على أن تحتفظ بطهارتها ، إلا أنها كانت تبيع لغيرها الانحلال ، ولم تكن تبدى اعتراضات مدونة على توزيع الملك لسلطاته واستمرت بينها وبين عشيقاته للواحدة إثر الأخرى ، علاقة صداقة حميمة ، والظاهر أن الرجال ومعظم النساء كانوا يفكرون فى تبادل الحب بين الجنسين بألفاظ جنسية لا تعرف الاحتشام . وشاعت بين الفرنسيات عادة جذابة إبان ذلك العهد الطروب ، هى تقديم هدايا من أربطة سيقانين لرجال لا وجود لهم إلا فى الخيال (٢٥) . وكانت مرجريت ترى أن الرغبة الجسدية من الأمور التى يمكن أن يترخص فيها ، إلا أنها هى نفسها أفسحت فى قلبها مجالا للحب الأفلاطونى والدينى . وقد انتقلت عبادة الحب الأفلاطونى بين « نوادى الحب » فى القرون الوسطى ، وتدعمت بأناشيد إيطالية مثل أنشودة بمبو فى نهاية قصة « رجل البلاط » . وشمرت مرجريت بأن من الخير أن تقبل النساء ، بالإضافة إلى العاطفة الجنسية المعتادة ، ولاء رجال لا ينالون من الجزاء إلا صداقة دقيقة وبعض صلات الود التى لا ضرر منها ، وأن هذا الارتباط قين بترويض الحساسية الجمالية فى الذكر وتهذيب سلوكه ، وتعليمه الالتزام بقواعد الأخلاق ، ومن ثم فإن المرأة تقوم بتهذيب الرجل . ولكن كان فى فلسفة مرجريت حب أرفع من الحب الجلسى أو الأفلاطونى هو حب الخير أو الجمال أو أى كمال ، ومن ثم كان فوقها جميعاً حب الله . ولكن لكى يحب المرء الله لا يله

له اولا من أن يحب مخلوقاً بشرياً حباً تاماً (٣٧) ، وكانت عقيدتها الدينية معقدة ومبيلة مثل مفهومها عن الحب . وكما أن ألتانية أخيراً لم تكدر ولاءها له فإن ما تعرضت له حياتها من مآسٍ وأحداث قاسية تركت عقيدتها الدينية خالصة متحمسة وغير محافظة على أية حال ، وكانت تمر بها لحظات يرادوها فيها الشك ، فقد اعترفت في كتاب : « مرآة الروح الخاطئة » بأنها قد شككت في بعض الأوقات في الكتاب المقدس وفي الرب على السواء ، واتهمت الرب بالقسوة ، وتساءلت هل هو حقاً الذي أنزل الكتاب المقدس ؟ (٣٧) . وفي عام ١٥٣٣ استدعتها السوربون لتجيب على اتهام بالهرطقة ، فتهافتت الاستدعاء ، وقال راهب لجمهور أبريشيته إنها تستحق أن توضع في جوال ويحاط عليها وتلقى في نهر السين (٣٨) ، ولكن الملك أبلغ السوربون والرهبان بأن يتركوا شقيقته وشأنها ، ولم يصدق ما وجه إليها من اتهام وقال : « إنها تحبني كثيراً إلى حد أنها لا تؤمن إلا بما أؤمن به » (٣٩) . وكانت سعادته بالغة وثقته بنفسه لا حد لها إلى درجة جعلته يحلم بأنه من الموحشون . ولكن مرجريت استطاعت أن تفعل ذلك ، وكان لديها إحساس بالإثم ، وصنعت من هفواتها قنن جبال . وكانت تحتقر الهيئات الدينية وترى أنها تافهة لا جدوى منها . ولا هم لها إلا الإصراف في ارتكاب الخطايا ، وشعرت بأن الإصلاح قد فات أوانه من عهد طويل ، وقرأت طرفاً من الأدب اللوثرى واستحسنّت هجماته على فجور رجال الدين وجشعهم ، ودهش فرانسيس عندما وجدها تصلي يوماً مع فرويل (٤٠) — وهو يوحنا المعمدان — عند كالفن . وبينما كانت لا تنقطع عن الصلاة للعدراء في نيراك وبو في ورع الوائق بنفسه ، فإنها أسبغت حمايتها على اللاجئيين من البروتستانت ومنهم كالفن نفسه . ومهما يكن من شيء فإن كالفن ساءه كثيراً أن يجد في بلاطها مفكرين أحراراً مثل إيتين دوليه ، بونافنتير ديبزييه وعنفها على تساهلها ولكنها استمرت فيه . ولكم كان يسرها لو أنها صاغت مرسوم

نانت لحفيدها ، ولقد اجتمعت في مرجريت في لحظة من اللحظات خصائص عصر النهضة وعهد الإصلاح الديني (٣١) .

وانتشر تأثيرها في فرنسا وكانت كل نفس حرة تتطلع إليها باعتبارها حامية لها ومثالاً للحرية . وقد أهدى إليها رابليه كتابه *Oargantúa* . وكان رونسار ويواقيم دى بلای يحدّون حدوها بين آن وآخر في صوفيتهما الأفلاطونية والأفلاطينية . وإن ترجمات مارو للمزامير لتفوح منها أنفاس روحها نصف الهيجونوتية . وترنم بابل في القرن الثامن عشر بنشيد لها في معجمه « وفي القرن التاسع عشر قدم لها ميشليه البروتستانتى في المحفوظة الشعرية المطولة الرائعة التي لا يمل الناس سماعها والمسماة « تاريخ فرنسا » ما يعبر عن شكره بقوله : « فلنتذكر دائماً ملائكة نافار الرقيقة ، هذه الملائكة التي وجد قومنا الخارجون من السجن أو المحرقة في أحضانها الأمان والاحترام والصدقة . إننا نعبّر عن شكرنا لك أيها الأم الحبيبة لنهضتنا . لقد كان بيتك دار قديسينا وكان قلبك عشاً لحريتنا (٣٢) » .

٤ - الفرنسيون البروتستانت

لم يحاول أحد البحث في أن الحاجة ماسة لإصلاح ديني ، وظهر هنا رجل الدين الصالح والشيرير كما ظهر في أى مكان آخر : قساوسة مخلصون ورهبان متبتلون وراهبات قديسات . وظهر هنا وهناك أسقف نذر نفسه للدين أكثر مما نذر لها للسياسة ، وقساوسة جهلة أو خائرو العزيمة . ورهبان كسالى وفاسقون ورهبان ينبشون عن المال ويتظاهرون بالفقر . وأخوات ضعيفات في الأديان وأساقفة يوثرون عرض الدنيا ويعرضون عن ثواب الآخرة . وبينما ارتفع شأن التعلم هوى الإيمان ، وبينما كان لرجال الدين النصيب الأكبر في التعليم فإنهم أظهروا بسلوكهم أنهم لم يعودوا يتأثرون بفلسفة الحشر والنشر المروعة ، التي أمانتها عليهم يوما عقيدتهم الرسمية . ونخص بعض

الأساقفة أنفسهم بعدد وافر من المناصب والكرامى الأسقفية ، وعلى هذا احتفظ جين دى لورين وتمتع بإيرادات من أسقفيات منز ونول وفردان وأبرشيات ريمس وليون وناربون وألبى وماكون وآجن ونانت وأديار جورز وفيكامب وكلوتى ومارموتين وسالنا — أورين وسان ده لاون وسان جرميه وسان مدار ده سواسون وسان — مانس دى قول (٣٣) . ولم تكف هذه لتلبية احتياجاته وشكا من الفقر (٣٤) . وندد الرهبان بتكالب الأساقفة على عرض الدنيا ، وندد القساوسة بالرهبان ، ويستشهد برانتوم بعبارة شاعت فى فرنسا وقتذاك وهى : « إنه شحيح أو فاسق كأنه قسيس وراهب (٣٥) » . وأول جملة فى الأيام السبعة تصف أسقف سيس بأنه يتلهف على إغراء امرأة متزوجة . وهناك اثنتا عشرة قصة فى الكتاب تروى بالتفصيل الأعمال المائلة لرهبان مختلفين ، وتقول لإحدى الشخصيات : « عندما تقع عينائى على راهب يتملكنى رعب شديد ، إلى حد أنى لا أستطيع حتى أن اعترف لهم ، لأنى أعتقد أنهم أسوأ من كل الرجال الآخرين (٣٦) » . وتسلم وازيل — وهو الاسم الذى أطلقته مرجريت على أمها فى الأيام السبعة — بأن بينهم رجالا صالحين ولكن هذه السيدة نفسها لويز أميرة سافوى كتبت فى يومياتها تقول : « فى عام ١٥٢٢ . . . بدأنا أنا وابنى ، بنعمة الروح القدس نعرف المنافقين ، الأبيض والأسود والأشهب والقاتم . ومن كل الألوان أولئك الذين يحفظنا الرب برحمته الواسعة منهم ويدفع عنا أذاهم ، لأنه إذا لم يكن المسيح كاذبا فليس بين كل أبناء البشرية جيل أخطر منهم (٣٧) » .

ومع ذلك فإن جشع لويز وتعدد نساء ابنها وأخلاق حاشيتها الزاخرة إلى الفوضى لم تكن نموذجا يحتذى به رجال الدين الذين كانوا خاضعين للملك إلى حد كبير . وفى عام ١٥١٦ حصل فرانسيس من ليو العاشر على اتفاقية بابوية تخوله الحق فى تعيين أساقفة فرنسا ورهبانها ، ولكنه لما أسرف

في هذا التعيين الذي لجأ إليه لمكافحة من أدوا له خدمات سياسية ، تأكدت الصفة الدنيوية للأسقفية . ونصت الاتفاقية البابوية السارية المفعول على أن تكون الكنيسة الجاليقية مستقلة عن البابوية وتابعة للدولة . وهذه الوسيلة حقق فرانسيس قبل أن ينشر لوثر رسائله بعام ، في الواقع ، وإن لم يبد ذلك لحسن الحظ في الشكل ، ما كان قيناً بأن يكسبه الأمراء الألمان وهنرى الثامن بالحرب أو الثورة ألا وهو تأميم المسيحية . وماذا كان في وسع الفرنسيين البروتستانت أن يقدموه للملك فرنسا أكثر من هذا ؟

لقد سبق أولهم لوثر . ففي عام ١٥١٢ قام جاك ليفيفر ، المولود في أنابل في بيكاردي والذي قام بالتدريس في جامعة باريس بعد ذلك ، بنشر ترجمة لاتينية لرسائل بولس مع شرح يفسر ، بين هرطقات أخرى ، اثنتين منها ، كانتا حريبتين بأن تكونا بعد عشر سنوات متفقتين في الأساس مع لوثر وهما : « إن الناس يمكنهم أن يظفروا بالخلاص لا بالأعمال الصالحات ، ولكن بالإيمان برحمة الله التي بناؤها بتضحية المسيح للتكفير عن خطايا البشر ، وإن المسيح موجود في القربان المقدس بفعله وإرادته الطيبة ، لا بأى تجسيد كهنوتي للخبز والتبذير . وطالب ليفيفر مثل لوثر بالعودة إلى الإنجيل ، وسعى مثل أرازموس إلى استعادة النص الصحيح للعهد الجديد ، وتوضيحه كوسيلة لتطهير المسيحية من أساطير القرون الوسطى والزيادات الكهنوتية . وأصدر عام ١٥٢٣ ترجمة فرنسية للتوراة وللمزامير بعد ذلك بعام . وقال في إحدى تعليقاته : « ما أشد خزينا عندما نرى أسقفاً يطلب من الناس في إلحاح أن يشربوا معه ، لا هم له إلا المقامرة . . . والصيد باستمرار . . . والتردد على البيوت سيئة السمعة (٣٨) » وأدائه السربون وقضت بأنه هرطيق ففر إلى شتراسبورج (١٥٢٥) ، وتشفعت له مرجريت فاستدعاه فرانسيس وعينه أميناً للمكتبة الملكية في بلوا ومربياً لأطفاله . وفي عام ١٥٣١ عندما أغضبت أعمال البروتستانت التي تجاوزوا

فيها الحد الملك ، لجأ ليفيفر إلى مرجريت في جنوبي فرنسا وعاش هناك حتى وفاته بالغاً من العمر سبعة وثمانين عاماً (١٥٣٧) .

وشرع تلميذه جيوم بريسونيه الذي عين أسقفاً لمو (١٥١٦) في إصلاح الأسقفية بروح أسناده ، وبعد أربع سنوات من العمل الحماسي شعر بأنه من القوة بحيث يستطيع أن يقدم على ابتداع تغييرات لاهوتية ، فعين للإشراف على الصدقات مصالحين معروفين من أمثال ليفيفر وفاريل ولوى ده بركان وجيرار روسل وفرانسوا فاتابل وشجعهم على أن ينادوا في عظاتهم بـ « العودة إلى الإنجيل » . وأثبت عليه مرجريت وعينته موجهاً روحياً لها . ولكن عندما أعلنت السوربون مدرسة اللاهوت التي تسيطر الآن على جامعة باريس - أدانتها للوثر (١٥٢١) أمر بريسوفيه زملاءه بمسألة الكنيسة فقد كانت وحدة الكنيسة في نظره ، مثله في هذا مثل أرازموس ومرجريت ، أهم من الإصلاح .

ولم تستطع السوربون أن توقف تدفق الأفكار اللوثرية عبر نهر الراين ، فقد كان الطلبة والتجار يجلبون مؤلفات لوثر من ألمانيا باعتبار أنها تمثل أعظم الأخبار إثارة وقتذاك ، وأرسل فروبن نسخاً من بازيل لاتباع في فرنسا . وتلقف العمال الساخطون العهد الجديد واعتبروه وثيقة ثورية واستمعوا بابتهاج إلى مبشرين استخلصوا من الإنجيل مدينة فاضلة تتحقق فيها المساواة الاجتماعية .

وعندما نشر الأسقف بريسونيه عام ١٥٢٣ على أبواب كاتدرائيته كتاباً للبابا عن صدوك الغفران مرقه جان لكليز ، وكان يعمل في تمشيط الصوف في مو ووضع مكانها إعلاناً ملصوقاً يصف البابا بأنه مناهض للمسيحية ، فقبض عليه ، ووسم بالنار على جبهته (١٥٢٥) بناء على أمر المجلس النيابي لباريس . فانتقل إلى ميتز وهناك حطم التماثيل الدينية ، التي كان من المقرر

أن يمر أمامها موكب لتقديم البخور . وقطعت يده اليمنى واجتث أنفه ، وانتهزت حلمتها ثدييه بملقط ، وربط رأسه بشريط من الحديد المحسى إلى درجة الأحمرار . وأحرق حياً (١٥٢٦) (٢٩) . وأرسل عدد كبير من المتطرفين الآخرين إلى المحرقة في باريس بتهمة « التجديف » أو لإنكارهم ما للعندراء والقديسين من تفويض في الشفاعة (١٥٢٦ — ٢٧) .

وكان شعب فرنسا يؤيد بوجه عام عمليات الإعدام هذه (٣٠) وكان يحب عقيدته الدينية ويرى أنها وحى من لدن الله ومن قوله ، ويمقت الهراطقة لأنهم يسلبون من الفقراء أعظم عزاء عندهم ولم يظهر في فرنسا رجل مثل لوثر . يشير الطبقة الوسطى ضد طغيان البابا ، فقد كانت الاتفاقية البابوية تمنع استخاثة مثل هذه ولم يكن كالفن قد وصل بعد إلى الشهرة الجنييفية التي تتيح له أن يبعث بدعوته الصارمة للإصلاح . ووجد الثائرون بعض التأييد بين طبقة الأرستقراطية بيد أن السادة والسيدات كانوا قليلي الاهتمام إلى درجة أنهم لم يتشبهوا بالأفكار الجديدة إلى الحد الذي يخل بعقيدة الشعب أو يقض مضاجع الحاشية ، وقد تسامح فرانسيس نفسه مع الدعاية اللوثرية ما دامت غير منطوية على أى تهديد بقيام فتنة اجتماعية أو سياسية ، وكانت له بدوره شكوكه الخاصة — في سلطات البابا وبيع صكوك الغفران ووجود المطهر (٣١) ، ولعله رأى أن يستخدم تسامحه مع البروتستانتية سلاحاً يشهره ضد بابا يميل كثيراً إلى الانحياز لشارل الخامس . وكان يعجب بارازموس وسعى إليه لتعيينه في الكلية الملكية الجديدة ، وكان يؤمن معه بتشجيع التعليم والإصلاح الكهنوتي — ولكن بخطوات لا تقسم للشعب إلى نصيفين متحاربين أو تضعف تأثير الخدمات التي تقدمها الكنيسة لتهديب أخلاق الأفراد والنظام الاجتماعي (٣٢) . وكتبت مرجريت إلى بريسونيه عام ١٥٢١ تقول : « إن الملك والسيدة (لويز أميرة سافوى) على أهبة الآن أكثر من أى وقت مضى لإصلاح الكنيسة (٣٣) » ، وعندما قبضت

السوربون على لوى ده بركان لقيامه بترجمة بعض مصنفات لوثر (١٥٢٣) أطلق سراحه بفضل تشفع مرجويت له عند الملك . ولكن فرانسيس أزعته ثورة الفلاحين فى ألمانيا التى يبدو أنها نشبت نتيجة الدعاية البرتستانتيّة ، وقبل أن يرحل ليلقى الهزيمة فى بافيا أمر الأساقفة بسحق الحركة اللوثرية فى فرنسا .

وبينما كان الملك أسيراً فى مدريد ، سجن بركان مرة أخرى ولكن مرجريت حصلت ثانية على أمر بإطلاق سراحه . وعندما فك إيسار فرانسيس نفسه انهمك فى يوبيل للتحرر ، ولعله فعل هذا لإقراراً بفضل شقيقته التى سعت كثيراً ، لتحريره ، فاستدعى ليفيفروروسل من المنفى وشعرت مرجريت بأن الحركة من أجل الإصلاح الدينى قد ظفرت بيومها الموعود .

ووقع حادثان دفعا الملك إلى العودة لعقيدة المحافظين . فقد كان فى حاجة للمال لافتداء ولديه اللذين كان قد سلمهما لشارل مقابل حصوله على حريته . ووافق رجال الدين على منحه ١٣٠٠٠٠٠ جنيه ولكنهم أرفقوا بالمنحة التماساً بوقفه أكثر حزمًا مع الهرطقة ، فوافق (١٦ ديسمبر سنة ١٥٢٧) ، وفى يوم ٣١ مايو سنة ١٥٢٨ هاله أن يعلم بتحطيم رأس العذراء والابن فى تمثال لهما خارج كنيسة فى أبرشية سان جرمان أثناء الليل . وصاح الناس يطالبون بالانتقام ، وعرض فرانسيس ألف كراون مكافأة لمن يعثر على المخربين وقاد موكباً حزيناً من الأساقفة وموظفى الدولة والتبلاء وعمامة الناس لترميم التمثال المحطم برأسين من الفضة . وانتهزت السوربون فرصة رد الفعل لسجن بركان مرة أخرى وبينما كان فرانسيس غائباً فى بلوا ودفع باللوثرى الذى رفض التوبة إلى المحرقة (١٧ إبريل عام ١٥٢٩) وسط فرحة الحاضرين من الجمهور (٤٤) .

وكان مزاج الملك يتغير تبعاً لتغيرات دبلوماسيته ، ففي عام ١٥٣٢ ، وقد أغضبه تعاون كليمنت السابع مع شارل الخامس قدم عروضاً للأمراء

اللوثريين الألمان وأذن لمرجريت بتنصيب روسل مبشراً للجاهير كبيرة في اللوفر ، وعندما احتجت السوربون نفي زعماءها من باريس .

وفي أكتوبر سنة ١٥٣٣ كان على وفاق مع كليمنت ، فوعد باتخاذ إجراءات فعالة ضد الفرنسيين البروتستانت . وفي أول نوفمبر ألقى نيكولاس كوب خطابه في الجامعة ، فاستشاطت السوربون غضباً وأمر فرانسيس باضطهاد جديد . ولكن اشتدت وقتذاك حدة نزاعه مع الإمبراطور فأرسل جيوم دى بلاى المناصر للإصلاح إلى فيتنبرج ليطلب من ملانكتون أن يتوصل لصيغة توفيق بين العقيدة القديمة والأفكار الجديدة (١٥٣٤) وبهذا يجعل في الإمكان عقد تحالف بين ألمانيا البروتستانتية وفرنسا الكاثوليكية . فأذعن ملانكتون وأخذت الأمور تتحرك بسرعة عندما قامت جماعة متطرفة من المصلحين الفرنسيين بلصق إعلانات في شوارع باريس وأورليان وغيرهما من المدن ، بل وحتى على أبواب مخدع الملك في أمبواز تندد بالقداس وتصفه بأنه من قبيل عبادة الأوثان وبالبابا ورجال الدين الكاثوليك ، وتصفهم بأنهم « ذرية دودة . . . مارقون ، ذئاب . . كذابون ، كافرون ومزهقون للأرواح » (١٨ أكتوبر سنة ١٥٣٤) (١٥) . فاستشاط فرانسيس غضباً وأمر بسجن جميع المشتبه فيهم بدون تمييز وامتلات السجون . وقبض على عدد كبير من الطابعين ، وظلت الطباعة قاطبة محظورة لفترة ما . وانضمت مرجريت ومارو وكثير من البروتستانت المعتدلين إلى من استنكروا الإعلانات الملصقة . وسار الملك وأولاده والسفراء والنبلاء ورجال الدين في صمت مهيب ، يحملون شموعاً موقدة ليستمعوا إلى قداس أقيم للتكفير في كاتدرائية نوتردام (٢١ يناير سنة ١٥٢٥) . وأعلن فرانسيس أنه سيقطع رأس أولاده إذا اكتشف أنهم يطوون جوانحهم على مثل هذه الهرطقات الخارجة على الدين . وفي عشية تلك الليلة أحرق ستة من البروتستانت حتى الموت في باريس بطريقة رثى

أنها تصلح لتهدئة المعبود . فقد حلقوا فوق نار وكانوا يدلون إليها ويرفعون منها مراراً وتكراراً وذلك لإطالة أمد عذابهم^(٤٦) . وأحرق في باريس أربعة وعشرون من البروتستانت وهم أحياء من العاشر من نوفمبر عام ١٥٣٤ والخامس من مايو عام ١٥٣٥ . وزجر البابا بول الثالث الملك لهذه القسوة التي لا داعي لها وأمره بوقف الاضطهاد^(٤٧) .

وقبل أن ينصرم العام كان فرانسيس يخطب ود البروتستانت الألمان من جديد . وكتب بنفسه إلى ملانكتون (٢٣ يوليو سنة ١٥٣٥) يدعو إلى الحضور » والتباحث مع بعض المبرزين من الدكاترة عندنا عن الوسيلة لإعادة توطيد دهرهم ذلك التناشق السامى في الكنيسة ، الذى أرى أنه أمر أمنية لدى على الإطلاق^(٤٨) » . ولم يحضر ملانكتون ولعله ارتاب في أن فرانسيس يستخذه شوكة في جنب الإمبراطور ، وربما أثناه عن عزمه لوثر أو أمير ساكسونيا المختار الذى قال : « إن الفرنسيين ليسوا من الإنجيليين بل هم إرازميون^(٤٩) » . وكان هذا صحيحاً بالنسبة لمرجريت وبريسونيه ليفيفر وروسيل ، ولم يكن صحيحاً بالنسبة لأنصار لصق الإعلانات والهوجينوت الكالفينيين الذين بدأوا يتكاثرون في جنوب فرنسا . وتغلى فرانسيس عن كل جهوده لاسترضاء البروتستانت بعد مسالة شارل (١٥٣٨) .

ولم يكن أعظم خذى لحق بعهدة إلا نتيجة خطئه إلى حد ما فقد سمح للفوديين أو الولدانيين ، الذين كانوا لا يزالون يحبون الآراء شبه البروتستانتية لبيتر والد ومؤسس طائفتهم في القرن الثانى عشر ، بالاحتفاظ بوجودهم الذى يشبه نظام طائفة الكويكر ، في ظل الحماية الماسكية ، في نحو ثلاثين قرية على امتداد نهر دورانس في بروفانس : وفي عام ١٥٣٠ شرعوا في مكاتبة المصلحين في ألمانيا وسويسرة ، وبعد عامين استخلصوا اعترافاً بمعقيدة تقوم على آراء بوسر وأويكولا مبادريوس ، وعقد قاصد رسولى

بينهم محكمة للتفتيش فاستغاثوا بفرانسييس ، فأمر بوقف الاضطهاد (١٥٣٣) : ولكن الكردينال ده تورنون ادعى أن الولدانيين كانوا يدبرون مؤامرة تنطوى على خيانة للحكومة ، وأقنع الملك للعليل المتذبذب بتوقيع مرسوم (أول يناير سنة ١٥٤٥) ينص على أن كل الولدانيين الذين يكتشف أنهم مذنبون وتثبت عليهم تهمة الهرطقة يجب أن يعذبوا . وفسر موظفو المجلس النيابي في إكس - ان - بروفانس - الأمر بأنه يعنى الإبادة الجماعية . وأبى الجنود في مبدأ الأمر إطاعة الأمر وعلى أية حال فلمهم حملوا على قتل فئة قليلة ثم ألهبهم حرارة القتل فحولوه إلى مذبح . وفي خلال أسبوع واحد (١٢ - ١٨ أبريل) أحرقت بضع قرى حتى سويت بالأرض ، وفي إحداها ذبح ٨٠٠ رجل وامرأة وطفل ، وفي مدى شهرين أزهقت أرواح ٣٠٠٠ نفس ، وهدمت اثنتان وعشرون قرية ، وأكراه ٧٠٠ رجل على العمل في السفن . ولقيت خمس وعشرون امرأة مذعورة بلحان إلى كهف حشفن خنقاً بنار أشعلت عند مدخله . ورفعت سويسرة وألمانيا البروتستانتان احتجاجات مروعة وبعثت أسبانيا بالتهانى إلى فرانسييس (٥٠) وبعد عام اكتشفت جماعة لوثرية صغيرة مجمعة في سو برتاسة بيهير لكليبر شقيق جين الذى وسم بالنار وعذب أربعة عشر من الجماعة وأحرقوا كما أحرق ثمانية منهم بعد أن انتزعت ألسنتهم (٧ أكتوبر سنة ١٥٤٦) .

وكانت هذه الاضطهادات أعظم فشل منى به عهد فرانسييس . وأضفت شجاعة الشهداء جلالاً وروعة على قضيتهم ، ولا بد أن ألوا من المشاهدين قد تأثروا وانزعجوا ، ولولا عمليات الإعدام المشهودة هذه لما كفوا أنفسهم قط عناء تغيير عقيدتهم الموروثة ، وعلى الرغم من الإرهاب المتكرر فإن « حشوداً » سريعة من البروتستانت وجدت عام ١٥٣٠ في ليون وبوردو وأورليان وريمس وأميان وبواتيه وبورج ونيم ، ولا روشيل وشالون وديجون وتولوز . وكان الأرض قد انشقت عن فرق من الهوجينوت :

ولا بد أن فرانسيس قد عرف وهو على فراش الموت أنه قد ترك ابنه تحديق به العداوة من إنجلترا وألمانيا وسويسرة ولم يكن يواجه هذا فحسب بل يواجه أيضاً إرثاً من الكراهية في فرنسا نفسها .

٥ - هابسبورج وقالوا ١٥١٥ - ٢٦

لم يكن من المتوقع أن يرضى ملك متقلب مثل هذا بالتخلي عن كل الآمال التي كانت قد أثارت أسلافه إلى ضم ميلان ، ونابلي إذا أمكن ، ليكونا دوتين في التاج الفرنسي . وقد قبل لويس الثاني عشر الحدود الطبيعية لفرنسا - أي أنه اعترف للألب بالسيادة . وسحب فرانسيس الاعتراف وتحدى حق الدوق مكسميليان سفورزا في ميلان . وفي غضون المفاوضات التي دارت بينهما بضعة شهور حشد قوة هائلة وجهزها في ١٢ يونيو أغسطس عام ١٥١٥ سار على رأسها وسلك طريقاً جديداً محفوفاً بالمخاطر - واقتحم طريقه عبر جبال صخرية - فوق الألب وانحدر منها إلى إيطاليا - والتقى الفرسان والمشاة الفرنسيون في مارينيانو على مسيرة تسعة أميال من ميلان ، بجنود سفورزا من السويسريين المرتزقة ، واستمر بينهما القتال يومين (١٣ - ١٤ سبتمبر سنة ١٥١٥) حدثت فيهما مقتل كبيرة لم تعرفها إيطاليا منذ الغزوات البربرية ، وتركزت جثث ١٠,٠٠٠ رجل مطروحة على الأرض . وخيل في فترة ما أن الفرنسيين قد هزموا وعندئذ اندفع الملك إلى الأمام وهاجم ونظم صفوف جنده وجعل من نفسه مثالا للجرأة . وجرى العرف أن يكافئ الحاكم المنتصر من يظهرون شجاعة خاصة بتنصيب طبقة جديدة من الفرسان في الميدان ، ولكن فرانسيس قبل أن يفعل هذا أقدم على حركة لها مغزاها لم يسبقه إليها أحد . فقد ركع أمام بيير ، سنيور دي بايار ، وطلب تنصيبه فارساً على يد الفارس المشهور ، الذي لم يتطرق إليه الخوف ، ولم يوجه إليه اللوم ، فاحتج بايار بأن الملك ، بحكم

وظيفته ، فارس الفرسان ، ولا حاجة به إلى تشريف إلا أن الملك الشاب ، كان لا يزال في الحادية والعشرين من عمره ، أصر على ذلك ومضى بإبار يقوم بالمراسم التقليدية بجلال ، ثم طرح سيفه وهو يهتف « لا شك يا سني العزيز أنك سوف تحفظ كأي أثر ، وتنال من التشريف فوق ما تناله السيوف الأخرى جميعاً ، لأنك في هذا اليوم أضفيت على ملك وسيم قوى صفة الفروسية ، ولأنك لن أحلك قط بعد ذلك إلا لمحاربة الأتراك والمغاربة والعرب (٥١) » . ودخل فرانسيس ميلان بصفته صاحبها وبعث بدوقها المعزول إلى فرنسا ، وخصص له مرتباً مجزياً ، واستولى أيضاً على بارما وبياتشزا ووقع مع ليو العاشر ، في احتفالات رائعة في بولونيا ، معاهدة واتفاقية يخولان البابا والملك على السواء أن يدعيا الحصول على نصر دبلوماسي .

وعاد فرانسيس إلى فرنسا معبوداً لمواطنيه بل ولأوروبا تقريباً ، فقد صحر جنوده بمشاطرته إياهم ما لاقوه من مشاق وتفوقه عليهم في الشجاعة ، وعلى الرغم من أنه في غمرات انتصاره قد انغمس في التيه بنفسه ، فإنه خفف من غلوائه ، بالثقة بآخريين وتلطيف حدة كل أنانية بكلمات الثناء والتعجيد . وارتمى وهو ثمل بالشهرة أكبر خطأ في حياته . ذلك أنه رشع نفسه للتاج الإمبراطوري . وانزعج ، وهو على حق ، باحتمال أن يصبح شارل الأول ، ملك أسبانيا ونابلي وكونت الفلاندرز وهولنده على رأس الإمبراطورية الرومانية المقدسة — بكل تلك المطالب في لومباردى ومن ثم ميلان ، التي غزا مكسمليان من أجلها إيطاليا مراراً ، وسوف تكون فرنسا ، في نطاق إمبراطورية جديدة مثل هذه ، محاطة بأعداء لا يقهرون في الظاهر .

وقدم فرانسيس الرشا ، وخسر أمام شارل الذي قدم من الرشا أكثر منه وفاز (١٥١٩) ، وبدأت المنافسة المريرة التي جعلت غربي أوروبا يعج بالاضطرابات إلى ما قبل وفاة الملك بثلاث سنوات .

ولم يعدم شارل وفرانسيس من الأسباب ما يدعو إلى تبادل العداء ، فقد زعم شارل ، حتى قبل أن يصبح إمبراطوراً أن له الحق في أن يطالب ببورغنديا لأنه حفيد ماري ابنة شارل الجسور ، وأبى أن يعترف باتحاد بورغنديا مع التاج الفرنسي . وكانت ميلان من الوجهة الرسمية لقطاعية في الإمبراطورية ، واستمر شارل في فرض الاحتلال الإسباني لنافار ، وأصر فرانسيس على أن تعود إلى هنرى دلبريه . وطرحت بواعث الحرب هذا السؤال العويص : من هو سيد أوروبا : شارل أم فرانسيس ؟ وأجاب الأتراك بل سايما .

ووجه فرانسيس الضربة الأولى ، فعندما لاحظ أن شارل مشغول بثورة سياسية في أسبانيا وثورة دينية في ألمانيا أرسل جيشاً عبر جبال البرانس للاستيلاء على نافار من جديد ، فهزم في حملة أهم حادث فيها هو إصابة أجناسيوس لويولا بجرح (١٥٢١) . وانطلق جيش آخر جنوباً للدفاع عن ميلان ، وتمرد الجند بسبب عدم دفع المرتبات ، وهزمتهم الجنود الإمبراطورية المرتزقة هزيمة منكرة في لايبيكوكا ، وسارعت ميلان لترعى في أحضان شارل الخامس (١٥٢٢) وانطلق قائد الجيوش الفرنسية لمقابلة الإمبراطور الكى يتغلب على هذه الحوادث .

وكان شارل ، دوق أف بوربون رأس أسرة قوية قدر لها أن تحكم فرنسا من عام ١٥٨٩ إلى عام ١٧٩٢ . وكان أغنى رجل في البلاد بعد الملك ، وبين تابعيه ٥٠٠ نبيل ، وكان آخر البارونات العظام الذين يستطيعون أن يتحدوا ملك الدولة المتمركزة وقتذاك . وقدم لفرانسيس خدمة جليلة في الحرب ، وقاتل بشجاعة في مارينيانو ، أما في الحكم فلم يخدمه بهذا القدر إذ دفع أهالي ميلان إلى النفور منه بسبب حكمه الجائر ، ولما وجد أن الملك لم يزوده بالأموال الكافية قدم ١٠٠٠٠٠ جنيه من ماله الخاص ، وهو يتوقع أن تسدد له ، ولكنه لم يتسلم شيئاً . وكان فرانسيس ينظر بعين الارتياح والحسد إلى هذا القليل الذي يوشك أن يكون ملكاً ، فاستدعاه

من ميلان ، ووجه إليه إهانات حمقاء أو مقصودة تسببت في أن يكون بوربون خصمه اللدود ، وكان الدوق قد تزوج سوزان أميرة بوربون التي أوصت أمها بأن تعود ضياعها الشاسعة إلى التاج إذا ماتت سوزان دون أن تعقب ذرية . وماتت سوزان (عام ١٥٢١) ولكن بعد أن حررت وصية تركت فيها كل أملاكها لزوجها . وطالب فرانسيس وأمه بالأملاك باعتبارهما أقرب سليلين لدوق بوربون السابق . وعارض شارل هذا الادعاء وأصدر المجلس النيابي بباريس قراراً ضده . واقترح فرانسيس عقد صلح بمقتضاه يكون للدوق الحق في ربع الأملاك حتى وفاته ؛ بيد أنه رفض الاقتراح . وعرضت لويز ، وكانت وقتذاك في الحادية والخمسين على الدوق البالغ من العمر واحداً وثلاثين عاماً أن يتزوجها مع صك ملكية صريح بالأملاك كبثانة لها ، فرفض . وقدم له شارل الخامس عرضاً يبر العرض السابق : هو أن يزوج شقيقته اليونورا وأن يؤيد مطالبه بتأييداً كاملاً بجنود الإمبراطورية ، وقبل الدوق وفر ليلاً عبر الحدود ، وعين قائداً برتبة لفتنانت جنرال للجيش الإمبراطوري في إيطاليا (١٥٢٣) .

وأثناء فرانسيس ضده لونيقيه . وأثبت عشيق مرجرت أنه غير كفء وسحق الدوق جيشه في رومانيا ، وفي أثناء تقهقر الجيش أصيب الشيناليه ديجي بابار ، قائد حرس المؤخرة الخطيرة بجرح قاتل بطلقة من سلاح نارى (٣٠ أبريل سنة ١٥٢٤) ووجده بوربون الظافر يختنر تحت شجرة ، فقدم له بغض عبارات الثناء على سبيل المواساة فرد عليه بآبار « هولاى إلى أستحق الرئاء ، أنا أموت بعد أن أدبت واجبى ، ولكنى أرثى لك إذ أراك تعمل ضد ملكك وبلدك وتحنث بتسملك (٥٢) » . وتأثر الدوق ولكنه كان قد أحرق خلفه كل الجسور وعقد اتفاقاً مع شارل الخامس وهنرى الثامن ينص على أن يقوم الثلاثة بغزو فرنسا في آن واحد ، وأن يتغلبوا على كل الثورات الفرنسية ، ويقسموا البلاد بينهم . وكان نصيب الدوق من الصفقة أن يدخل

بروفاليس ، وبأخذ إكس ويضرب حصاراً على مرسلينا ، ولكن حملته كانت تفتقر إلى المؤن وقوبلت بمقاومة عنيفة غير متوقعة وانهارت فراجع إلى إيطاليا (سبتمبر سنة ١٥٢٤) .

ورأى فرانسيس أن من الحكمة أن يطارده ، ويستولى من جديد على ميلان وأشار عليه بونيفيه ، وهو أحمق حتى النهاية ، بأن يستولى أولاً على بافيا ثم ينقض على ميلان من الجنوب ، فوافق الملك وضرب عليها الحصار (٢٦ أغسطس سنة ١٥٢٤) ، ولكن الدفاع هناك أيضاً كان أقوى من الهجوم ، وظل الجيش الفرنسي محجوزاً عند الخليج أربعة أشهر ، وفي غضونهما جمع بوربون وشارل أمير لانوى (نائب الملك في نابلى) والمركيز دى بسكارا (زوج فتوريا كولونا) جيشاً جديداً قوامه ٢٧٠٠٠ رجل . وفجأة ظهرت هذه القوة خلف الفرنسيين . وفي اليوم نفسه (٢٤ فبراير سنة ١٥٢٥) وجد فرانسيس قواته يهاجمها هذا الحشد غير المتوقع من جانب ، وقوات المحاصرين في بافيا من جانب آخر . وحارب كالعادة في طليعة المشبكين ، وقتل بسيفه الكثيرين من الأعداء ، حتى ظن أن النصر قد تحقق ، ولكنه ضحى بقيادته العسكرية في سبيل إظهار شجاعته ، وكالت قواته موزعة توزيعاً سيئاً ، ومشاته يسرون بين مدفعيته والعدو ، وبهذا جعلوا المدفعية الفرنسية المتفوقة عديمة الجدوى ، وتفشى الاضطراب في صفوف الفرنسيين ، وفر دوق النسون ، وصحب معه حرس المؤخرة ، وصاح فرانسيس في جيشه الذى دبت فيه الفوضى أن يسير وراءه إلى ساحة القتال ، ولكن لم يرافقه إلا أعظم نبلائه شهامة ، وأعقب هذا مذبح في الفرسان الفرنسيين ، وأصيب فرانسيس بجروح في وجهه وذراعيه وساقه ، ولكنه ظل يضرب بلا كلل ، وتهاوى فرسه تحته ومع ذلك ظل يقاتل . وسقط فرسانه المخلصون واحداً إثر الآخر إلى أن ترك وحيداً ، وأحدق به جنود الأعداء ، وكان على وشك أن يلتقى مصرعه ، عندما تعرفت عليه

ضابط فأنقذه واقتاده إلى لانوى ، الذى تقبل سيفه ، وهو يقوم بالحناءات خفيفة للدلالة على الاحترام .

واعتقل الملك فى قلعة بنزيجيون بالقرب من كريمونا ، حيث سمح له بأن يرسل إلى أمه التى كانت تحكم فرنسا أثناء غيابه رسالته التى كثيراً ما نقلت كما هى ، وكثيراً ما نقلت محرفة :

« إلى نائبة الملك فى فرنسا : سيدتى ، بودى أن تعرفى مدى معاندة البقية الباقية من سوء حظى : لم يبق لى فى العالم سوى الشرف وحياتى التى أنقذت ، ولكى تحمل إليك هذه الأنباء ، وأنت بوئسك ، القليل من العزاء ، توملت إليهم أن يسمحو لى بكتابة هذه الرسالة إليك . . . وأنا أتوسل إليك ألا تقدمى على أى عمل طائش ، وأنت تباشرين ما عرفت به من فطنة معاندة ، لأنى أرجو ، بعد كل شيء ألا يتخلى عنى الله (٥٣) » .

وبعث برسالة مماثلة إلى مرجريت التى ردت على الخطابين :

« مولاي : إن الفرحة التى ما زلنا نشعر بها عند ما تلقينا خطابيك الكريمين ، اللذين أسعدك أن تكتبهما لى ولأمك ، تجعلنا نحس بالسعادة لاطمئناننا على صحتك التى تنوقف عليها حياتنا ، ونخيل إلى أننا يلغى ألا نفكر فى شيء سوى أن نحمد الله وأن نتوق إلى أن تصلنا باستمرار أنبؤك الطيبة ، وهى خير زاد نستطيع أن نعيش عليه . وبما أن الخالق قد من علينا بأن يبقى ثالثنا متحداً أبداً فإن الاثنين الآخرين يتوسلان إليك أن تتقبل هذا الخطاب ، عند ما يقدم إليك ، وأنت الثالث ، بنفس المودة القلبية التى تقدمها إليك خادمتك المتواضعتان المطيعتان والدتك وشقيقتك » .

لوز ، مرجريت (٥٤)

وكتب فرانسيس إلى الإمبراطور فى مدريد رسالة جند مؤاضعة بقول له فيها « إذا كان يسرك أن ينطوى قلبك على قدر قليل من العطف ، فتأخذ على عاتقك مهمة إنقاذ حياة ملك فرنسا الأسير إنقاذاً يستحقه من

جدارة . ه ه ففى وسعك أن تكون على ثقة من الحصول على كسب بدلا من أسير لا نفع منه ، وبهذا تجعل ملك فرنسا عبدك إلى الأبد . ه ه ولم يكن فرانسيس قد تدرب على احتمال المأساة (٥٥) .

وتلقى شارل أنباء انتصاره يهدوء ورفض أن يحتفل به ، كما اقترح كثيرون فى مهرجان رائع . وانسحب إلى مخدعه (كما يقال لنا) وركع يصلى . وأرسل إلى فرانسيس ولويس ما خيل له أنها شروط معتدلة لتحقيق السلام وتحرير الملك :

(١) على فرانسيس أن يتخلى عن بورغندي وأن يتنازل عن كل مطالبه فى الفلاندرز وأرتوا وإيطاليا .

(٢) يجب تسليم الدوق بوربون كل الأراضى والمناصب التى يطالب بها .

(٣) يجب منح الاستقلال لكل من بروفانس ودوفنى .

(٤) يجب أن تعيد فرنسا إلى إنجلترا كل الأراضى الفرنسية التى كانت تابعة فيما سبق لبريطانيا — أى نورماندى وانجو وغسقوليا وجين .

(٥) على فرانسيس أن يوقع حلفا مع الإمبراطور وينضم إليه فى حملة توجه ضد الأتراك .

فأجابت لويز بأن فرنسا لن تتنازل عن قيراط واحدا من الأراضى ، وأنها مستعدة للدفاع عن نفسها حتى آخر رجل ه وتصرفت نائبة الملك وقتذاك بقوة وعزم وذكاء مما حمل شعب فرنسا على أن يصفح عن أخطائها اتى رعبت فيها رأسها . وعملت فى الحال على تنظيم وإعداد جيوش جديدة وأقامتها لحراسة كل المراكز المحتمل أن تتعرض للغزو . ولكى تصرف ذهن الإمبراطور عن فرنسا حثت سليمان عاهل تركيا على إرجاء هجومه

على بلاد الفرس وأن يقوم بدلا من ذلك بحملة تتجه غربا ، ولا نعرف الدور الذى لعبه توسلها فى القرار الذى اتخذته السلطان ، ولكنه زحف عام ١٥٢٦ إلى هنغاريا وألحق هزيمة منكرة بجيش المسيحيين فى موهاكس ، بلغت من الشدة حدا جعل قيام شارل بأى غزو لفرنسا بمثابة خيانة للعالم المسيحى . وفى الوقت نفسه أوضحت لويز هنرى الثامن وكليمنت السابع أن إنجلترا والبابوية على السواء سوف تنحدران إلى مرتبة العبودية إذا سمح للإمبراطور بالحصول على كل الأراضى التى طلبها ، وتردد هنرى فألحت لويز وعرضت عليه تعويضا قدره ٢٠٠٠٠٠٠٠ كروان فوقع حلفا دفاعيا هجوميا مع فرنسا (٣٠ أغسطس سنة ١٥٢٥) وفتحت هذه الدبلوماسية الأثوية عيون الرجال وحطمت ثقة شارل بنفسه .

ونقل الملك الأسير إلى أسبانيا بمقتضى اتفاقية بين لويز ولانوى والإمبراطور ، وعند ما وصل فرانسيس إلى بلنسية (٢ يوليو سنة ١٥٢٥) بعث إليه شارل برسالة رقيقة ، ولكن معاملته لأسيره لم ترتفع إلى مقام الفروسية . وخصصت لفرانسيس غرفة ضيقة فى قلعة قديمة فى مدريد ووضعت عليه حراسة مشددة ، وكانت الحرية الوحيدة التى منحت له هى أن يمتطى ظهر بغل بالقرب من القلعة تحت رقابة حراس مسلحين راكبين . وطلب مقابلة شارل ولكن شارل أجل هذه المقابلة وسمح بسجن فرانسيس أسبوعين سجننا أثار قلقه وغيبظه ، حتى يخضع فرانسيس لدفع ثمن باهظ مقابل الحصول على حريته . وعرضت لويز أن تقابل الإمبراطور وتتفاوض معه ولكنه رأى من الأفضل أن يلعب على سجيته بدلا من أن يتعرض لغتة امرأة تجعله ينجح إلى التساهل . فأبلاغته بأن ابنتها مرجريت ، وهى أرملة وقتذاك سوف يسعدها أن تجدها جلالته الإمبراطورية ، مناسبة له ، ولكنه آثر عاها إيزابلا أميرة البرتغال ، بعداقها البالغ قدره ٩٠٠٠٠٠ كراون . فهى تستطيع

أن تزوده في الحال بالمخدع والمأوى ، وبعد أن أمضى فرانسييس شهرين في مسجن يتلهف فيه على حربيته معقظ صريع مرض خطير . وانطلق الأسبان إلى كنائسهم يصلون من أجل الملك الفرنسي آسفين لقسوة الإمبراطور . وصلى شارل أيضاً ، لأن الملك إذا مات فلن يكون له أهمية كرهينة سياسية ، وزار فرانسييس زيارة قصيرة ووعده بقرب إطلاق سراحه وبعث لمرجريت بأذن لها بالحضور ومواساة أخيها .

وسافرت مرجريت بحرا من ايجمورت (٢٧ أغسطس سنة ١٥٢٥) إلى برشلونه وهناك حملت في هودج بطيء ملئوا اخترق بها نصف طول أسبانيا إلى مدريد ، ووجدت السلوى في قرض الشعر وبعث رسائل حارة متميزة إلى الملك ، وقالت « مهما يطلب مني ، حتى ولو كان أن أنثر رماد عظامي في مهب الريح لأؤدى لك خدمة ، فليس فيه أمر غريب أو صعب أو شاق بالنسبة لي ، وحسبى أن أجد فيه السلوى والراحة والطمأنينة والشرف » (٥٦) . وعندما وصلت بعد لآلئ إلى مخدع أخيها وجدته يتعافى بشكل ملموس ، بيد أنه أصيب بنكسة يوم ٢٥ سبتمبر ودخل في غيبوبة ، وخيل لمن حوله أنه يختصر . وركعت مرجريت هي والأسرة يصلون ، وناولوه أحد القساوسة القربان المقدس . وتلت هذا فترة نقاهة مضيئة . ولبثت مرجريت شهرا مع فرانسييس ثم انطلقت إلى طليطلة لتطلب من الإمبراطور الرحمة ، فتلقيت توسلاتها بفتور ، وكان قد علم بحلف هنرى مع فرنسا وتلهف على معاقبة حليفه الأخير على ربايته ولويز على جرأتها .

ولم تبق في يده فرانسييس إلا ورقة واحدة يلعب بها ، ولو أن من المحقق أو يكاد أنها قد تعنى سجنه مدى الحياة ، وبعد أن أئثر شقيقته بمغادرة أسبانيا بأسرع ما يمكن وقع (نوفمبر سنة ١٥٢٥) خطابا رسميا أعلن فيه تنازله عن العرش لابنه الأكبر ، ولما كان فرانسييس الثاني هذا صهيا لا يتجاوز

عمره ثمانى سنوات ، فقد عين لويز - وتعل محلها في حالة وفاتها - مرجريت وصية على عرش فرنسا ، وأدرك شارك في الحال أن ملكاً بلا مملكة ، لا يملك شيئاً يتنازل عنه ، لا فائدة ترجى منه ، بيد أن جلد فرانسيس من الناحية البدنية كان أقوى من شجاعته المعنوية ، وفي يوم ١٤ يناير سنة ١٥٢٦ وقع مع شارل معاهدة بليريد وكانت شروطها في جوهرها هي بعينها التي عرضها الإمبراطور على لويز ، بل كانت أقسى منها ، لأنها اقتضت أن يسلم أكبر ابنين للملك إلى شارل رهينتين لضمان تنفيذ الاتفاقية بإخلاص ، وفضلاً عن هذا فإن فرانسيس وافق على أن يتزوج إليونورا شقيقة الإمبراطور ملكة البرتغال الأرملة ، وأقسم على أنه سيرجع إلى أسبانيا ليعود إلى السجن إذا لم ينفذ بنود المعاهدة (٥٧). ومهما يكن من شيء فلأنه أودع في يوم ٢٢ أغسطس سنة ١٥٢٥ مع مساعديه وثيقة رسمية تلغى مقدماً جميع العهود والاتفاقات والتنازلات والمخالفات وكل إلغاء وانتقاص وقسم يمكن أن يتعارض مع شرفه وصالح تاجه ، وفي عشية توقيع المعاهدة ردد هذه العبارة للمفاوضين معه من الفرنسيين وأعلن أنه وقع بطريق الإكراه ، والقسر والاعتقال وطول السجن ، وأن كل ما تضمنته الوثيقة كان ، ويجب أن يظل باطلاً ولا أثر له (٥٨) .

وفي يوم ١٧ مارس ١٥٢٦ سلم نائب الملك لانوى وفرانسيس إلى المارشال لوتريك على ظهر نقالة مليئة في نهر بيداسوا ، الذي يفصل إيرون الإسبانية عن هنداى الفرنسية ، وتسلم لانوى بدلاً منه الأميرين فرانسيس وهنرى . ومنحهما أبوهما بركة ودعة ، وهرع إلى الأرض الفرنسية . وهناك قفز على ظهر جواد وصاح في ابتهاج « ها أنذا ملك من جديد ! » وركب إلى بايون حيث كانت لويز ومرجريت في انتظاره ، وأضى في بوردو وكولياك ثلاثة شهور قضاهما في اللهو والرياضة ليسترد صحته وشغل نفسه بحب صغير . ولم لا ؟ ألم يعشن عاماً عيشة الرهبان ؟ وكانت لويز التي

اشتجر النزاع بينها وبين الكونتيسة دى شاتوبريان قد أحضرت معها وصيفة شرف جميلة شقراء الشعر ، تبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً ، هي آن دى هيلي دى بيسليوالتي أصابت بسهامها ، كما كان مقدرأ ، عينى الملك الجائعتين ، فتودد إليها فى اندفاع ، وسرعان ما ظفر بها حظية له . وشاركت الحظية الجديدة منذ تلك اللحظة إلى أن فرقهما المات لوزير ومرجريت فى قلب الملك . وتحملت فى صبر زواجه باليونورا وعلاقاته غير الشرعية العارضة ، ومنحها لإنقاذ المظاهر زوجاً هو جين دى بروس ، وأنعم عليه بقلب دوق كما أنعم عليها بقلب دوقة ديتامب ، واتسم فى إعزاز عندما انسحب جين إلى ضيعة نائية فى بريتانى .

٦ - الحرب والسلام : ١٥٢٦ - ٤٧

عندما عرفت شروط معاهدة مدريد بصفة عامة أثارت تقريباً عداوة عالمياً لشارل ؛ فقد ارتجف البروتستانت الألمان عندما توقعوا مواجهة عدو عزز قواه إلى هذا الحد ، واستاءت لإيطاليا من ادعائه الحق فى السيادة على لومباردى ، وأحل كليمنت السابع فرانسيس من قسمه الذى كان قد ارتبط به فرانسيس فى مدريد ، وانضم إلى فرنسا وميلان وجنوا وفلورنسا والبندقية فى تكوين حلف كونياك للدفاع المشترك (٢٢ مايو سنة ١٥٢٦) ، ووصف شارل ، فرانسيس بأنه « ليس بالسيد المهذب » ، وأمره أن يعود إلى سجنه الإسباني ، وأصدر أوامره بتشديد اعتقال ابنى الملك ، وأطلق العنان لقواده لتأديب البابا ،

وتدفق جيش إمبراطورى ، احتشد فى ألمانيا وأسبانيا ، إلى إيطاليا وتسلق بالسلام أسوار روما (مات الدوق بوربون فى العملية) ، ونهب المدينة نهباً كاملاً أكثر مما فعل بها القوط أو الوندال من قبل ، وقتل ٤٠٠٠ روماني ويمن كليمنت فى سان إنجلو . وأكد الإمبراطور ، الذى كان قد بتى فى

أسبانيا لأوروبا المذعورة أن جيشه الجائع قد تجاوز تعليماته ، ومع ذلك فإن ممثليه في روما احتفظوا بالبابا سجيناً في سان انجلو من ٦ مايو إلى ٧ ديسمبر سنة ١٥٢٧ ، وأكروهوا بابا يكاد يكون مفلساً على دفع تعويض قدره ٣٦٨٠٠٠ كراون .

واستغاث كليمنت بفرانسيس وهنرى وطلب منهما العون ، فبعث فرانسيس إلى إيطاليا لوتريك على رأس جيش نهب بافيا منتقماً منها في تهور. لمقاومتها له عامين قبل ذلك ، وتساءل الإيطاليون هل الأصدقاء الفرنسيون أفضل من الأعداء الألمان ؟ ومر لوتريك على روما مرور الكرام وحاصر نابولي وبدأت المدينة تعاني من المجاعة . وفي غضون ذلك كان فرانسيس قد أغضب أندريا دوريا قائد بحرية جنوا ، فاستدعى دوريا أسطوله من حصار نابلي وانضم إلى جانب الإمبراطور ومون المحاصرين . وهلك جيش لوتريك جوعاً بدوره ، ومات لوتريك نفسه وذاب جيشه (١٥٢٨) .

ولا تكاد ملهاة الأحكام تفرج كرب الشعب . وعندما ظهر مبعوثو فرانسيس وهنرى في بوجوس لإعلان الحرب بصفة رسمية ، رد شارل على المبعوث الفرنسي رداً فاجعاً بقوله « إن ملك فرنسا ليس في موقف يسمح له بتوجيه مثل هذا الإعلان إلى ، إنه أسيرى . إن مولاكم قد تصرف مثل أى جبان أفاق بعدم محافظته على وعده الذى ارتبط به في معاهدة مدريد ، وإذا راقه أن يقول ما يخالف هذا فإنى سوف أحافظ على وعدى له بحياتى مقابل حياته (٥٩) » .

وقبل فرانسيس توا هذا التحدى إلى البراز وبعث إليه رسولا يقول له : « لقد قلت إفكاً وجهتاًناً مبيتاً » ، واستجاب شارل بعظمة ، وعين مكان للززال وطلب من فرانسيس أن يحدد موعد اللقاء ، بيد أن النبلاء الفرنسيين اعترضوا طريق الرسول وأدت إجراءات التأخير المستأنية إلى تأجيل المباراة

إلى ما لا نهاية . فقد بلغت الأمم درجة من الفوضى لا يمكن عندها تسوية خلافاتها الاقتصادية أو مصالحها السياسية بنزال فردى أو بجيوش صغيرة من المرتزقة التى كانت تقوم بلعبة الحرب فى إيطاليا إبان عصر النهضة ، ولا شك أن الطريقة الحديثة لحسم الأمور بالتنافس فى التدمير قد اتخذت شكلها فى هذا النزاع بين آل هامسبورج وفالوا (٥) .

واقضى الأمر أن تنصّبى امرأتان لتلقين الحاكمين فى السلام وحكمته ، فقد اتصلت لويز أميرة سافوى بمرجريت النمسية نائبة الملك فى الأراضى المنخفضة ، واقترحت عليها أن يتخلى فرانسيس ، المتلهف على عودة ابليه ، عن كل مطالبه فى الفلاندرز وارنوا وإيطاليا وأن يدفع فدية قدرها ٢٠٠٠٠٠٠ كراون ذهبى ، لإطلاق سراح ولديه ، على ألا يتنازل أبداً عن بورغنديا ، وأقنعت مرجريت ابن أخيها بإرجاء مطالبته ببورغنديا وأن ينسئ مطالب الدوق بوربون ، الذى مات وقتذاك فى الوقت المناسب .

وفى ٣ أغسطس عام ١٥٢٩ وقعت المرأتان ومعاونوهما الدبلوماسيون معاهدة صلح السيدات فى كامبراي . وحصلت الفدية من التجارة والصناعة ودم فرنسا ، ونعم بالحرية من جديد أميرا البيت المالئ بعد أربع سنوات من الأسر ، وعاداً بقصص تروى عن المعاملة القاسية التى أثارى فرانسيس وفرنسا . وبينما وجدت المرأتان القديرتان سلاماً دائماً - مرجريت

(٥) كانت المبارزة فى العصور الوسطى بمثابة إجراء مشروع تمييز الملكية أو القضاء ويشرفان عليه يحتكم به الخصمان إلى الله . وأصبحت فى القرن السادس عشر بمثابة دفاع فردى وخاص من لشرف المهبط . وتطورت قوانينها الصارمة الخاصة بها خارج قوانين الدولة ، وأسهمت إلى حد ما فى تطوير قواعد السلوك المذهب والضبط الحصيف للنفس . وكانت المبارزة مصرحاً بها قانوناً فى فرنسا بعد عام ١٥٤٧ ، وظل للرأى العام يحجزها . أما فى إنجلترا فلم تكن تمارس فى عهد إليزابث ، وعلى أى حال فإن الاحتكام إلى المبارزة ظل مشروعاً هناك حتى عام ١٨١٧ .

عام ١٥٣٠ ولويز عام ١٥٣١ - أخذ الملكان بعدان العدة لاستئناف الحرب بينهما .

وتلفت فرانسيس حوله في كل مكان يطلب العون ، أرسل إلى هنرى الثامن مبلغاً من المال للتهدة لأنه تجاهله تقريباً في تسوية كامبراي ، وتعهد هنرى ، وقد أغضبه شارل لمعارضته في « طلاله » ، بتأييد فرنسا . وفي عام أو نحوه تفاوض فرانسيس للدخول في أحلاف مع الأمراء البروتستانت الألمان ومع الأتراك ومع البابا . ومهما يكن من أمر فإن الحبر الأعظم المتذبذب سرهان ما عقد صلحاً مع شارل وتوجه إمبراطوراً (١٥٣٠) - هو آخر تنويع لإمبراطور في الإمبراطورية الرومانية المقدسة قام به بابا . ثم ارتاع كليمنت من ملك كان في الواقع قد حول إيطاليا إلى مقاطعة في ملكه ، فسعى إلى عقد رابطة جديدة مع فرنسا بعرضه تزويج ابنة أخيه كاترين دى مديتشى من ابن فرانسيس ، هنرى دوق أورليان ، والتقى الملك والبابا في مارسيليا (٢٨ أكتوبر سنة ١٥٣٣) ، وقام البابا بنفسه بمراسيم الزواج ذى المغزى التاريخي . ومات كليمنت بعد عام ، ولم يكن قد استقر رأيه بعد على أى شيء .

وكان الإمبراطور ، الذى شاخ وهو فى الخامسة والثلاثين ، يحمل أعباءه الملقاة على عاتقه فى عزم واهن . وذعر عندما علم - من كلمة وزير السلطان إلى فرديناند ملك النمسا - أن حصار الأتراك لقينا عام ١٥٢٩ ، إنما تم استجابة لاستغاثة فرانسيس ولويز وكليمنت السابع لمساعدتهم ضد الإمبراطورية التى كانت تطوقهم^(٦٠) . وفضلاً عن هذا فإن فرانسيس تحالف مع الزعيم التونسى خير الدين بارباروسا الذى كان يكدر صفو التجار المسيحيين فى غربى البحر الأبيض المتوسط ، ويغير على المدن الساحلية ويسوق الأمرى من المسيحيين إلى أسواق النخاسة . وحشد شارل جيشاً آخر وأسطولا ثانياً وعبر البحر إلى تونس (١٥٣٥) ، واستولى عليها ،

وحرر ١٠ر٠٠٠ عبد مسيحي وكافاً جنوده الذين لم تدفع رواتبهم بإطلاق العنان لهم لنهب المدينة وذبح السكان المسلمين :

وعاد شارل إلى روما (٥ أبريل سنة ١٥٣٦) بعد أن ترك حاميات في بونا ولاجوليتا عودة المدافع المظفر للعالم المسيحي ضد العالم الإسلامي ومملك فرنسا . وفي غضون ذلك كان فرانسيس قد جدد مطالبته بميلان ، وفي مارس عام ١٥٣٦ غزا دوقية سافوى لإزالة العقبة التي تعترض طريقه إلى إيطاليا . واستشاط شارل غضباً ، وفي خطاب حار ألقاه أمام بول الثالث البابا الجديد وجمع الكرادلة بأسره أخذ يعدد مرة أخرى جهوده من أجل السلام . وانتهاك الملك الفرنسي لمعاهدتي مدريد وكامبواي و « الأحلاف التي عقدها جلالته نصير المسيحية العظيم » (كما كان يسمى فرانسيس) مع أعداء الكنيسة في ألمانيا وأعداء المسيحية في تركيا وإفريقية ، وأنهى خطابه بتحدى فرانسيس مرة أخرى إلى البراز قائلا : « دعونا لا نستمر في المجازفة بسفك دماء رعايانا الأبرياء ، دعونا نحسم النزاع بالنزال رجلا أمام رجل بأى أسلحة يروقه أن يختارها . . . وبعد ذلك دعوا القوات المتحدة لألمانيا وأسبانيا وفرنسا تستخدم لكسر شوكة الأتراك واستئصال الهرطقة من العالم المسيحي » .

كان خطاباً بارعاً لأنه أجبر البابا على أن ينحاز إلى صف الإمبراطور ، ولكن أحداً لم يأخذ عرضه الخاص بالمبارزة محمل الجد ، فقد كان القتال بالتفويض أسلم . وغزا شارل بروفانس (٢٥ يوليو سنة ١٥٣٦) بجيش قوامه ٥٠ر٠٠٠ رجل وكان يأمل أن يهاجم جناح الفرنسيين أو يشغلهم في سافوى بالزحف أعلى الرون . ولكن القائد آن دى مونمورانس أمر القوات الفرنسية الضعيفة بأن تحرق أثناء انسحابها كل شيء يمكن أن يتزود به جنود الإمبراطور ، وسرعان ما تتخلى شارل عن الحملة وكان دائماً يعوزه

المال ولا يستطيع أن يقدم الطعام لرجاله ، وكان بولس الثالث يتلهف على إطلاق يد شارل لانتقام هجومه على الأتراك أو اللوثرين فأقنع العملاق المشلول بالالتقاء معه — في حجرات منفصلة تثير الحماسة — بمدينة نيس وتوقيع هدنة لمدة عشر سنوات (١٧ يونية ١٥٣٨) . وبعد شهر قامت اليونورا ، وهي زوجة أحدهما ، وشقيقة الآخر ، بتدبير لقاء شخصي بين الملك والإمبراطور في إيجسمورت . وهناك نسيا أنهما ملكان وأصبحا إنسانين ، وركع شارل يحتضن أصغر أولاد الملك ، وأعطاه فرانسيس ماسة ثمينة مركبة على خاتم نقش عليه عبارة : « شاهد ورمز للحب » ، وخلع شارل من جيده طوق الحزة الذهبية ، وانطلقا معاً لسماع القداس ، وابتهج أهل المدينة لشروع السلام وهتفوا : « الإمبراطور ! الملك » ، وعندما ثارت غنت ضد شارل (١٥٣٩) وانضمت إلى بروجس ولايبرس في عرض نفسها على فرانسيس ، قاوم الملك الإغراء ، وعندما وجد شارل ، في اسبانيا أن سفن المتمردين أو خشية الإبحار « تسد الطرق البحرية » ، أجاب فرانسيس طلبه المرور في فرنسا . وأشار على الملك مشروعه بأن يُكره الإمبراطور وهو في الطريق ، على توقيع تنازل عن ميلان للدوق أورليان ، ولكن فرانسيس رفض وقال : « عندما تقوم بشيء كريم يجب أن تفعله كاملاً وبجراحة » . ووجد مهرجان البلاط يكتب في « يوميات مهرجان » اسم شارل الخامس . لأنه كما قال تريبوييه أنه يكون أشد بلاهة منى لو أتى ليمر من خلال فرنسا « فسأله الملك : « وماذا تقول إذا تركته يمر ؟ » فقال : « سوف أمحو اسمه وأدون اسمك مكانه » (٦١) . وترك فرانسيس ، شارل يمر دون أن يعوقه أحد وأمر كل مدينة في الطريق أن تستقبل الإمبراطور بما يستحق من تكريم ملكي واحتفالات .

وانتهت الصداقة المقلقلة عندما أسر الجنود الإسبان بالقرب من بافيا المبعوثين الفرنسيين وهم يحملون عروضاً جديدة من فرانسيس إلى سليمان

للتحالف معه (يوليو سنة ١٥٤١) . وفي هذه الفترة كان بارباروسا يغير مرة أخرى على المدن الساحلية في إيطاليا ، وسافر شارل ببحراً من مالوركا مع أرمادا (*) أخرى للقضاء عليه ، ولكن الأسطول واجه عواصف شديدة أجبرته على العودة خاوي الوفاض إلى أسبانيا . وكان حظ الإمبراطور في هبوط ، فقد ماتت زوجته الشابة (١٦٣٩) التي كان قد تعلم أن يحبها وكانت صحته تتدهور ، وأعلن فرانسيس الحرب عليه عام ١٥٤٢ بسبب ميلان ، وكان حلفاء الملك وقتذاك السويد والدانمارك وجمهورية هولندا وكليف وسكوتلند والأتراك والبابا ، ولم يؤيد شارل إلا هنري الثامن في مقابل ثمن ما ، ورفض المجلس التشريعي الإسباني الموافقة على إعانات مالية إضافية من أجل الحرب ، وانضم الأسطول التركي إلى الأسطول الفرنسي في ضرب الحصار على نيس ، وكانت وقتذاك أرضاً تابعة للإمبراطور (١٥٤٣) ، وفشل الحصار ، إلا أن بارباروسا وجنوده المسلمين سمح لهم بقضاء الشتاء في طولون حيث باعوا علناً عبيداً من المسيحيين (٦٢) . واسترد الإمبراطور في صبر زمام الموقف فوجد وسيلة لإصلاح ذات البين مع البابا ، وكسب إلى صفه فيليب الهسباني بالتغاضي عن زواجه من اثنتين ، وهاجم دوق كليف وتغلب عليه ، ووثق صلته بحلفائه الإنجليز وواجه فرنسا بقوة عظيمة جداً حملت فرانسيس على الانسحاب والتسليم له بأجناد الحملة (أكتوبر سنة ١٥٤٣) .

ورحب شارل مرة أخرى ، بعد أن وجد أنه فقير جداً إلى حد لا يستطيع معه أن يزود جيشه بالميرة ، بعرض للسلام ووقع مع فرانسيس معاهدة كريبي (١٨ سبتمبر سنة ١٥٤٤) . وتخلى الملك عن مطالبه في الفلاندرز وأرتوا ونابلي ولم يعد شارل يطالب ببورغندي ، وسوف تزوج أميرة ، من آل هابسبورج ، من أمير فرنسي ، ونقدم إليه ميلان صداقاً لها . (كان يمكن تدهير معظم ذلك سلمياً عام ١٥٢٥) .

(*) أسطول حربي كبير شبه بالإرمادا المشهورة .

وكان شارل وقتذاك مطلق اليد في التغلب على البروتستانت في ملبرج وقد صورته نيس-يان هناك ، وهو لا يشكو من داء النقرس ، فخوراً منتصراً ، منهوكةً متعباً بعد ألف من التقلبات ومائة من انقلابات عجلة الجليظ الساخنة ،

أما فرانسيس فقد انتهى أمره وانتهت معه كذلك فرنسا أو كادت ، وهو إلى حد ما لم يفقد شيئاً سوى الشرف ، وقد حافظ على بلاده بتعجل ترك المثل العليا للفروسية ، ومع ذلك فقد كان يمكن قدوم الأتراك دون أن يوجه الدعوة إليهم ، وقد أعان مجيئهم فرانسيس على كبح جماح الإمبراطور الذى لو لم يجد مقاومة ، لنشر محكمة التفتيش الإسبانية في الفلاندرز وهولندة وسويسرا وألمانيا وإيطاليا ، وقد وجد فرانسيس فرنسا تنعم بالسلام والرخاء ، وتركها مفلسة على حافة حرب أخرى . وقبل وفاته بشهر ، وبينما كان يقسم مؤكداً صداقته لشارل ، أرسل ٢٠٠,٠٠٠ كراون إلى البروتستانت في ألمانيا لتأييدهم ضد الإمبراطور (٦٣) ، وهو — وأقل درجة من ذلك شارل — يتفق في رأى مع مكيافيللى بأن رجال السياسة الذين من واجبهم الحفاظ على بلادهم ، يمكنهم مخالفة القانون الأخلاقى الذى يطالبون به مواطنهم الذين لا هم لهم إلا الحفاظ على أرواحهم . وقد يغتفر له الشعب الفرنسى حروبه ولكنه لم يستغف حلاوة أبهة مناجهه وبلاطه عندما أدرك فداحة الخسران . وكان قد فقد شعبيته فعلاً عام ١٥٣٥ .

وواسى نفسه بالاستمتاع بالجمال حياً وميتاً . وقد اتخذ في أواخر سنى حياته من فونتنبلو مقراً أثيراً له وأعاد بناءه وابتهج بالفن الأنثوى الرشيق الذى كان الإيطاليون يزينونه به . وأحاط نفسه بفرقة صغيرة من النسوة الصغيرات اللاتي كن يتمتعن بطلعاتهن البهية ومرجهن . وأصيب عام ١٥٣٨ في عاصمته بمرض وبدأ منذ ذاك يتلعم تلعماً مخجلاً . وحاول أن يعالج ما كان على الأرجح مرضى الزهري بأقراص الزئبق ، التى وصفها له

بارباروسا ، ولكنها لم تنجح معه^(٦٤) : وحطم روحه دمل عنيد كريحه
للرايحة وأضفى على عينيه ، اللتين كانتا حادتين يوماً ، نظرة شوهاء
باكية ، ودفعته إلى الاعتصام بورع لا يناسبه . وكان عليه أن يراقب
طعامه لأن الشك خامره في أن بعض رجال الحاشية الذين يتوقعون رفعة
شأنهم في عهد خلفه ، يسعون إلى تسميمه . ولاحظ في حزن أن الحاشية
تدور وقتذاك حول ابنه الذى كان بالفعل يوزع المناصب وينتظر في صبر
حلول دوره في التحكم في موارد فرنسا . واستدعى وريثه الوحيد وهو على
فراش الموت في رامبوييه وحذره من أن تسيطر عليه امرأة — لأن هنرى
كان مخلصاً بالفعل لديان دى بواتيه — واعترف الملك بخطاياهم في تلخيص
متعجل ، ورحب بالموت وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة وهمس فرانسيس ،
دوق دى جيز ، وكان واقفاً عند الباب ، إلى الذين كانوا في الحجرة
المجاورة ، أن العاشق العجوز يحتضر^(٦٥) ، ومات وهو يردد اسم يسوع .
وكان في الثالثة والخمسين من عمره ولقد حكم اثنتين وثلاثين عاماً .
وشعرت فرنسا بأن حكمه دام طويلاً ، ولكن عندما استردت حريتها منه ،
غفرت له كل شيء ، لأنه كان لبقاً حتى في ارتكاب آثامه ، ولأنه عشق
الجمال وكان فرنسا مجسدة .

ومات هنرى الثامن في ذلك العام نفسه ، ولحقت به مرجريت بعد عامين ،
وقد كانت بعيدة جداً عن فرانسيس ، بل كانت أبعد من أن تدرك أن
الموت يترقبه . وعندما وصاتها كامة ، وهى في دير بأنجيوليم ، ثبثها بأنه
مصاب بمرض خطير كادت تفقد برشدها . وقالت : « إن من بأتى إلى
عتبة بابى ، كائناً من يكون ، ويعلن لى أن شقيقى الملك قد أبل من
مرضه ، ولا بد أن مثل هذا الرسول سيكون متعباً منهوك القوى ، تغطيه
الأوحال والأوشاب ، ومع ذلك فسوف أذهب إليه وأقبله وأحتضنه
كما لو كان أعظم الأمراء والسادة أناقة في فرنسا ، وإذا كان في حاجة إلى

فراش ، فسوف أمنحه فراشى ، وأرقد على الأرض مبتهجة لما حمله إلى من
ألباء طيبة(٦٦) » وبعثت بالرسول إلى باريس فعادوا وكذبوا عليها ، وأكدوا
لها أن الملك سليم معافى ، إلا أن الدموع المختلصة التى انثالت من عيني راهبة
كشفت عن الحقيقة ، ولبت مرجريت أربعين يوماً فى الدير وهى تعمل
رئيسة له ، تردد الأناشيد المقدسة القديمة مع الراهبات .

وعندما دادت إلى بو أونيراك أسلمت نفسها للتقشف الشديد ،
وبخانات زوجها ، وأهواء ابنتها المتقلبة ، ووجدت السلوى ، بعد السنوات
التي أمضتها فى شجاعة نصف بروتستانتية ، فى الشعيرة الكاثوليكية بألوانها
وبخورها وموسيقاها الجذابة ، وأسقمها الكالفينية التى كانت تأسر جنوبى
فرنسا ، وأفرعتها ، فعادت إلى تقواها التى عرفت بها فى الطفولة .

وفى ديسمبر عام ١٥٤٩ ، وبينما كانت ترقب مذنباً فى السموات ، أصيبت
بجعى أثبتت أنها كانت عنيفة ، إلى حد أنها حطمت هيكلها وروحاً أو هنتهما
قساوات الحياة . وكانت قبل ذلك بسنوات قد كتبت سطوراً وكأنها نصف
عاشقة لخدر الموت :

وباه متى يأتى اليوم

الذى طالما اشتقت إليه

والذى أبجد نفسى بقوة الحب

منجذبة إليك ؟

ألا فلتجفف دموع عيني الحزبتين

وسط تهادت الفراق

وامن على بخير أنعمك على الإطلاق

وهى نعمة النوم اللذيذ .

٧ - ديان دى پواتيه

كان « للعاشق العجوز » قد أنجب سبعة أطفال ، كلهم من كلود . وكان الابن الأكبر فرانسيس مثل أبيه ، وسيما ، جذاباً مرحاً . أما هنرى المولود عام ١٥١٩ فكان هادئاً خجولاً ، وأهمل قليلاً ، ولم ينافس أخاه إلا فى البأساء . فقد أمضيا أربع سنوات من الشدة والإذلال فى أسبانيا حيث كُتِبَ عليهما بصيات لا تمحى . ومات فرانسيس بعد إطلاق مراحه بست سنوات ، أما هنرى فقد غدا نزاعاً للصمت أكثر من ذى قبل ، وانطوى على نفسه ، وأعرض عن المحبون الذى انغمست فيه الحاشية ، وكان له رفقاء ، ولكنهم قلما رأوه مبتسماً ، وقال الناس إنه قد غدا اسبانيا فى إسبانيا .

ولم يترك له الخيار عندما تزوج من كاترين دى مديتشى ، وهذا هو شأنها عندما تزوجت به . فقد مرت هى أيضاً بمحن ، إذ مات والداه كلاهما متأثرين بمرض الزهري فى خلال اثنين وعشرين يوماً من مولدها (١٥١٩) ، وأخذت منذ ذلك الوقت حتى زواجها تنقل من مكان إلى مكان ، لا حول لها ولا قوة ، ولا يرغب فيها أحد . وعندما أقصت فلورنسا حكامها من آل مديتشى (١٥٢٧) احتفظت بكاترينا رهينة لضمان حسن سلوكهم ، وعندما عاد هؤلاء المنفيون لحصار المدينة هددت بالإعدام إذا لم تصرفهم عنها . واستخدمها كليمنت السابع رهينة ، ليكسب تأييد فرنسا لسياسته البابوية ، وانطلقت طائفة إلى مرسيليا وهى فتاة فى الرابعة عشرة من عمرها ، وتزوجت من غلام فى الرابعة عشرة من عمره أيضاً ، لم يكذب يتحدث معها إبان الاحتفال بأكمله . وعندما وصلا إلى باريس قوبلت باستقبال فاتر لأنها جلبت معها عدداً كبيراً من الإيطاليين ، وأصبحت فى لفظر الباريسيين « الفلورنسية » ، وعلى الرغم من أنها حاولت جهودها أن تسحرهم ، فإنهم

لم يكنوا لها وداً قط ، لا هم ولا زوجها . وظلت عشر سنوات عاقراً ، على الرغم من الجهود العديدة ، وارتاب الأطباء في أنها أصبحت بعدوى مرض وبيل ، ورثته من أبيها . وعندما تهدد أمل كاترين دى مديتشي كما كانت تسمى في فرنسا ، في الحصول على ذرية ذهبت تبكي إلى فرانسيس وعرضت عليه أن تقدم طلباً بالطلاق وتنزوي في دير ، ورفض الملك في كرم منه هذه التضحية . وتفتحت أخيراً أبواب الأمومة ، وجاء الأولاد واحداً إثر الآخر كل عام تقريباً . وبلغ عددهم على الإجمال عشرة ، وهم بخاصة فرانسيس الثاني الذي قدر له أن يتزوج ماري ستيوارت والبرابث التي قدر لها أن تتزوج فيليب الثاني وشارل التاسع الذي شاءت الأقدار أن يصدر الأمر بمذبحة سان بارتولوميو وإدوارد الذي أصبح هنري الثالث بطل المأساة المعروفة ومرجريت دى فالوا التي قدر لها أن تتزوج هنري ملك نافار وتضطهده وطوال كل تلك السنوات العقيمة أو الخصبية باستثناء السنوات الأربع الأولى كان زوجها يمنح حبه لديان دى بواتيه في الوقت الذي كان ينجب فيه منها أولاداً .

وكانت ديان فريدة بين عشيقات الملوك اللاتي كان لهن دور رئيسي في التاريخ الفرنسي . ولم تكن جميلة . وعندما أحبها هنري ، وهو في السابعة عشرة من عمره (١٥٣٦) كانت في السابعة والثلاثين من عمرها ، وبدأ الشيب يغزو شعرها ، والتجاعيد تسجل سنوات عمرها على جبينها ، وكانت مفاتها الجسدية لا تعدو الطلاوة ، والبشرة الناضرة بفضل غسلها بالماء البارد في جميع الفصول ، ولم تكن عامرة . وكانت فيما يبدو مخلصاً لزوجها لويس دى برزبه حقاً وفاته ، وعلى الرغم من أنها انغمست مثل هنري ، في هلاقتين جانبيتين أو ثلاث ، إبان علاقتها غير الشرعية بالملك ، فإنها كانت مجرد حوادث تغتفر وألحان لطيفة في أغنية حبها . ولم تكن ممن ينجحون إلى الخيال ، بل كانت عملية جداً ، تصنع كل شيء في أوانه . ولم تستنكر

فرنسا أخلاقها بل أنكرت عليها بذخها ولم تكن مثل عشيقات فرانسيس -
رعوسا جميلة ولكنها جوفاء ، يقفزون على أقدام مرحة إلى أن تقاجهن
الأمومة ، فقد تلقت ديان تعليها لا بأس به ، وكانت تتمتع بإدراك سليم ،
وسلوك حسن ، وبديهة حاضرة . وها نحن أولاء أمام عشيقة تسحر
الآلباب بذهنها .

وكانت تنحدر من أسرة كريمة ونشأت في بلاط آل بوربون في مولان
الذى اشتهر بفن الحب . وشارك أبوها جان دى بواتيه ، كونت دى سان
فالبيه ، الدوق دى بوربون في خيانة الوطن بعد أن حاول الوقوف في
سبيلها ، فقبض عليه وحكم عليه بالإعدام (١٥٢٣) ، وحصل زوج
ديان ، وكان ذا حظوة لدى فرانسيس ، على العفو لأبيها (*) . وكان لويس
دى بريزيه حفيد شارل السابع من أنيس سوريل ، وكان ذا مقدرة أو نفوذ
لأنه أصبح قيم القصر الأكبر ومحاظف نورماندى . وكان في السادسة
والخمسين من عمره عندما أصبحت ديان البالغة من العمر ستة عشر عاما
زوجة له (١٥١٥) . وعندما مات شيدت تخليدا لذكراه في روين قبرا
ضخمًا عليه كتابة قطعت على نفسها فيها عهداً بالوفاء الدائم له ولم تزوج قط
مرة ثانية ، ولم ترتد بعد ذلك إلا الثياب السوداء والبيضاء . والتقت بهنرى
عندما سلم في بايون ، وهو بعد صبي في السابعة من عمره ، كرهينة بدلا من
والده . وبكى الصبي المرتبك فحننت عليه ديان ، وكانت وقتذاك في السابعة
والعشرين ، حنان الأم الروثوم وواسته ، إذ كانت أمه كلود قد ماتت منذ ،
عامين ، ولعل ذكرى تلك الأحضان الحنونة قد بعثت في ذاكرته من جديد ،
عندما التقى بها بعد أحد عشر عاما . وعلى الرغم من أنه كان قد مضى على
زواجه وقتذاك أربعة أعوام فإنه كان لا يزال بعيداً عن النضج العقلي ،

(*) لا صحة للقصة التى أوردها ميجو فى « الملك يلهو » من أن ديان اذترت المفو

عنها باستسلامها للملك (٦٧)

كما كان سوداوى المزاج شديد الحياء بصورة غير مألوقة . كان يريد
أما أكثر مما يريد زوجة ، وهنا ظهرت ديان من جديد ، هادئة ، رفيقة
مواسية . وأقبل عليها أولاً لإقبال الابن ، وظلت العلاقات بينهما ، فيما يبدو ،
تهيمن عليها العفة حيناً . واكسبته محبتها ونصحها الثقة بنفسه ، فكف ، وهو
تحت وصايتها ، عن معاداة الناس وأعد نفسه ليكون ملكاً . ونسب إليهما
الرأى العام أنهما رزقا بطفلة واحدة ، هى ديان دى فرانسيس ، التى أنشأتها
مع ابنتها من بريزيه . وتبنت أيضاً ابنة هنرى التى أنشأها سنة ١٥٣٨ من
وصيفة بيدمونتية دفعت ثمن لحظة لقائها بالملك بأن أصبحت راهبة مدى
الحياة . وهناك طفل آخر غير شرعى كان ثمرة قصة هنرى الأخيرة مع
مارى فليمنج ، مربية مارى ستيوارت . وعلى الرغم من هذه التجارب فإن
إخلاصه كان يزيد يوماً بعد يوم لديان بوابتيه . ونظم لها قصائد ممتازة
حقاً وأمطرها بالمجوهرات والضياع . ولم يهمل كاترين تماماً ، وكان يتناول
معها عادة طعام العشاء ويقضى معها الأمسيات ، وقبلت ، شكراً منها لما نالته
من شذرات حبه ، فى حزن صامت ، أن ترى امرأة أخرى ولية عهد
فرنسا الحقيقية : ولا بد أنها أحست بأنها أصيبت بجرح آخر عندما رأت أن
ديان كانت تستحث هنرى من حين لآخر على أن ينأى مع زوجته (٦٨) .

ولم يؤد ارتقاؤه العرش إلى خفض مكانة ديان . وكتب لها أذل
الرسائل ، يتوسل إليها أن تسمح له بأن يكون خادمها مدى الحياة . وقد
جعلها وله بها غنية كالمملكة تقريباً ، وضمن لديان نسبة مثوية من كل المبالغ
التي يتسلمها من بيع الوظائف ، وكانت كل التعيينات فيها تقريباً فى نطاق
سلطانها . ومنحها جواهر التاج الذى كانت قد وضعت الدوقة ديتامب على
رأسها ، وعندما احتجت الدوقة هددتها ديان باتهامها بالبروتستانتية ، ولم ترض
عنها إلا بعد أن قدمت لها هدية من العنار . وأذن لها هنرى أن تحتفظ لنفسها
بمبلغ ٤٠٠.٠٠٠ تالر ، كان فرانسيس قد أوصى به لتأييد الأمراء

البروتستانت في ألمانيا سرّاً (١٩). وبفضل هذه المنح أعادت ديان بناء قصر بريزيه الريفي القديم في آنيه ، طبقاً لتصميم وضعه فيلبر ديلورم ، وشيدت قصراً رحباً لم يصبح الدار الثانية للملك فحسب بل أصبح أيضاً متحفاً للفن ومتندياً جليلاً يلتقي فيه الشعراء والفنانون والدبلوماسيون والدوقات والقادة والكرادلة والمعشوقات والفلاسفة . وهنا كان المجلس الخاص للدولة يعقد في الواقع ، وكانت ديان بمثابة رئيسة للوزراء ، ذكية رصينة . وفي كل مكان - في آنيه وشينويسو وأمبواز والووفر - كانت الأطباق والدروع المرسومة عليها الشعارات وأشغال الفن ومقاعد جوقة للترنيم تحمل الرمز الجريء لقصة الحب الملكية ، فهناك حرفا D موضوعان ظهر الظهر، بينهما شرطة تكون حرف H . وثمة أمر مثير للعاطفة وجميل في هذه الصداقة الفريدة ، التي بنيت على الحب والمال ، وإن دامت حتى الموت .

وفي أثناء كفاح الكنيسة ضد الهرطقة وضعت ديان كل ما تملك من نفوذ ، لتأييد عقيدة المحافظين وسياسة القمع . وكانت لديها أسباب كثيرة تدعوها للتصوي : فقد كانت ابنتها متزوجة من ابن لفرانسيس هو الدوق دى جيز ، وكان فرانسيس هو وشقيقه شارل ، كاردينال اللورين ، - وكلاهما من ذوى المكانة في آنيه - زعيمى الحزب الكاثوليكي في فرنسا . أما هنرى فإن تقواه في الطفولة ازدادت شدة بالسنوات التي أمضاها في أسبانيا ، وكانت خطاباته الغرامية تخلط بين الله وديان كمنافسين على قلبه ، وأعانته الكنيسة ، وأعطته ٣٠٠٠٠٠٠ كراون ذهبي لإلغاء مرسوم والده الذى قيد فيه من سلطة المحاكم الكنسية (٢٠) .

ومع ذلك فإن البروتستانتية كانت تشتد في فرنسا ، وكان كالفن وآخرون غيره يرسلون مبعوثين أحرزوا نجاحاً رائعاً . وما أن حل عام ١٥٥٩ حتى كانت عدة مدن ، كابن وبواتيه ولا روشيل ومدن كبيرة في بروفانس - يغلب عليها الهوجينوت ، وقدر قس أن البروتستانت

الفرنسيين كانوا ربع عدد السكان (٧١) تقريباً في ذلك العام . ويقول مؤرخ كاثوليكي : إن أصل المروق في روما — فساد رجال الكنيسة — لم يستأصل ، بل إنه قوى بفضل الاتفاقية البابوية بين ليو العاشر وفرانسيس الأول (٧٢) . وكانت البروتستانتية في الطبقتين الوسطى والدنيا إلى حد ما ، احتجاجاً ضد حكومة كاثوليكية كبحت جماح الاستقلال الذاتي للبلدية ، وفرضت ضرائب لا تحتمل ، وبددت الدخول ، وأزهقت الأرواح في الحرب . وكان النبلاء الذين جردهم الملوك من سلطانهم السابق ينظرون بعين الحسد إلى الأمراء اللوثريين الذين انتصروا على شارل الخامس ، وربما أمكن استعادة إقطاع مماثل في فرنسا بإعلان استياء العامة من الناس على نطاق واسع من مظالم الكنيسة والحكومة . والحق أن نبلاء بارزين مثل جاسبار دى كولينى وشقيقه الأصغر فرانسوا دنديلو والأمير لويس دى كونديه وشقيقه انطوان دى بوربون قد شاركوا يجهد فعال في تنظيم ثورة البروتستانت .

وتبذت البروتستانتية الغالية في لاهوتها آراء كالفن في كتابه « النظم » ، فقد كان مؤلفه فرنسياً ولغته فرنسية واستهوى منطقته العقلية الفرنسية ، وكاد لوثر أن ينسى في فرنسا بعد عام ١٥٥٠ ، والحق أن اسم هوجنوت بالذات ورد من زيورخ عن طريق جنيف إلى بروفانس ، وفي مايو عام ١٥٥٩ شعر البروتستانت بأنهم أصبحوا من القوة إلى حد يمكنهم من إرسال مندوبين إلى أول مجمع مقدس عام لهم عقد سرا في باريس . وما أن حل عام ١٥٦١ حتى كان هناك ٢٠٠٠ كنيسة أخذت بأسباب الإصلاح الديني أو كالفينية في فرنسا (٧٣) .

وشرع هنرى الثانى فى سحق الهرطقة . ونظم المجلس النيابى لباريس ، بناء على تعليماته ، لجنة خاصة (١٥٤٩) لقمع الخروج على رأى ، وأرسل من أديتوا إلى المحرقة ، وأطلق على المحكمة الجديدة اسم « الغرفة المتأججة » ، وقضى

مرسوم شاتوبريان (١٥٥١) بأن طبع أو بيع أو حيازة كتب الهرطقة يعد جريمة عظمى ، وأن الإصرار على الآراء البروتستانتية يعاقب عليه بالإعدام ، ونص على أن يتسلم المبلغون ثلث أموال المحكوم عليهم . وكان عليهم أن يبلغوا المجلس النيابي عن أى قاض يعامل الهرطقة باللين ، ولم يكن فى وسع أى رجل أن يعين قاضياً إلا إذا كانت عقيدته المحافظة لا يرق إليها شك . وفى خلال ثلاث سنوات أرسلت « الغرفة المتأججة » ستين بروتستانتيا إلى الموت حرقاً ، وعرض هنرى على البابا بولس الرابع إقامة محكمة للتفتيش فى فرنسا طبقاً للنموذج الرومانى الحديد ، ولكن المجلس النيابي اعترض على السماح لسلطة أخرى بأن تحمل محل سلطته ؛ واقترح أحد أعضائه ، آن دى بورج فى جراءة أن تتوقف كل مطاردة للهرطقة حتى يستكمل مجلس ترنت تعريفاته للعقبة المحافظة . فأمر هنرى بالقبض عليه وأقسم أن يراه وهو يحرق ، إلا أن القدر اختلس من الملك هذا المشهد .

وفى غضون ذلك كان قد أغرى بتجديد الحرب ضد الإمبراطور فإنه ، لم يستطع قط أن يصفح عن سجن أبيه وشقيقه وسجنه هو نفسه أمداً طويلاً . وكان يكره شارل بقدر حبه لديان . وعندما أعلن الأمراء اللوثريون مقاومتهم الحاسمة للإمبراطور من أجل المسيح والإقطاع سعوا إلى التحالف مع هنرى ودعوه للاستيلاء على اللورين ، فوافق على هذا فى معاهدة شامبور (١٥٥٢) . وقام بحملة سريعة أدارها بكفاءة واستولى بعد عناء قليل على تول ونانسى و Metz وفردون . وكان شارل أكثر استعداداً للتسليم بالنصر للبروتستانتية فى ألمانيا منه للتسليم به لآل فالوا فى فرنسا ، فوقع معاهدة صلح ذليلة مع الأمراء فى باسوا ، وهرع لضرب الحصار على الفرنسيين فى Metz . وأقام فرانسيس ، دوق دى جيز شهرته هناك على ما أبداه من مهارة وعناد فى الدفاع . واستمر الحصار من ١٩ أكتوبر إلى ٢٦ ديسمبر سنة ١٥٥٢ ، ثم سحب شارل جنوده الذين نحات قوامهم وهو شاحب الوجه ، زائف البصر

أبيض اللحية كسيحاً وقال : « إني لأرى جيداً أن الحظ يشبه امرأة ،
تؤثر ملكاً فتياً على إمبراطور عجوز (٧٤) ، وأردفت قائلاً : « وقبل أن تمضي
ثلاث سنوات سأتحول إلى رجل يربط حول وسطه شريطاً من حرير أبيض إلى
راهب فرنسيسكاني (٧٥) » .

وفي عام ١٥٥٥ - ٥٦ تنازل لابنه عن سلطته في الأراضي المنخفضة
وإسبانيا ، ووقع مع فرنسا هدنة فوسيل ، وغادر إسبانيا (١٧ سبتمبر
سنة ١٥٥٦) ، وظن أنه أورث فيليب مملكة تنعم بالسلام ، ولكن هنري
أحس أن الموقف يدعو إلى هجوم آخر على إيطاليا . ولم يكن لفيليب أى
شهرة كقائد ، وكان متورطاً على غير ما توقع في حرب البابا بولس الرابع ،
وخيل له أن أمامه فرصة ذهبية . فأرسل جيز ليستولى على ميلان ونابلي ،
وتأهب لملاقاة فيليب في ساحات القتال القديمة في شمال شرق فرنسا . وأظهر
فيليب أنه أهل للمقابلة الموقف واقترض مليون دوكات من أنطون فوجر
وأغرى ماري ملكة إنجلترا بالدخول في الحرب . وفي سان كيتان
(١٠ أغسطس سنة ١٥٥٧) قاد الدوق أمانويل فيلبرت أمير سافوى جيوش
فيليب الموحدة إلى نصر كاسح وأخذ كوليني ، ومونمورنسي أسيرين
وتأهب للزحف على باريس . وكانت المدينة في ذعر ، وبدأ الدفاع عنها
مستحيلاً ، واستدعى هنري جيز وجنده من إيطاليا ، فعب الدوق فرنسا
وفاجأ كاليه بحركة سريعة عجيبة واستولى عليها (١٥٥٨) ، وكانت إنجلترا
تحتفظ بها منذ عام ١٣٤٨ ، وكان فيليب يكره الحرب ويعوق إلى العودة
لإسبانيا ، فافتتح توا بتوقيع معاهدة كاتو - كامبريزي - (٢ أبريل سنة
١٥٥٩) وبمقتضاها وافق هنري على أن يبقى شمال الألب ، ووافق فيليب على
أن يمدحه يحتفظ باللورين وبكاليه - على الرغم من دموع ماري . وفجأة
أصبح الملكان صديقين ، وقدم هنري ابنته إليزابيث لتكون زوجة لفيليب ،
وتعهد بزواج شقيقته مارجريت أف بري من أمانويل فيلبرت الذي استعاد

وقتذاك سافوى ، ونظم مهرجان ضخم حفل بالمبارزات والمآدب
وليالى الزفاف .

وهكذا بينما ظل فيليب الحذر فى الفلاندرز تجمع الأعيان من الفرنسيين
والفلمنكيين والأسبان حول القصر الملكى ليتورنل فى باريس ، وعلقت قوائم
فى شارع سان أنطوان الذى يضم مظلات وشرفات مزينة بزخارف بهية ،
وانطلق الجميع يرحون كما لو كانوا يسمعون ناقوس زفاف . وفى ٢٢ بونية
استقبل الدوق ألفاء ، باعتباره وكيلًا لفيليب الزابث باعتبارها ملكة لأسبانيا ،
وأصر هنرى ، وهو وقتذاك فى الأربعين من عمره على دخول المباراة .
وفى مثل هذه المبارزات كان النصر يقضى به لراكب الفرس الذى يحطم
ثلاث حراب على درع خصمه ، دون أن يرمى عن الفرس . وقام هنرى
بهذا العمل أمام الدوق دى جيز والدوق دى سافوى اللذين عرفا كيف
يقومان بدورهما الصحيح فى المسرحية ، بيد أن خصمًا ثالثًا هو مونتهجورى
سمح فى حق للبقية الباقية الحادة من السلاح بالمرور تحت القناع الحديدى
للملك بعد أن حطم حربة على درع الملك ، فاخترقت عين الملك ووصلت
إلى المخ . وظل يرقد تسعة أيام فاقد الوعى ، وفى اليوم التاسع من يوليو
احتفل بزواج فيليبرت ومرجريت ، وفى اليوم العاشر من يوليو مات الملك
وانسحبت ديان إلى آنيه ، وعاشت بعد ذلك سبع سنوات ، وارتدت
كاترين دى مديتشى التى كالت ظمأى لحبه ؛ ثياب الحداد بقية حياتها .

الفصل الثالث والعشرون

هنرى الثامن والكاردينال ولزى

١٥٠٩ - ٢٩

١ - ملك واعد : ١٥٠٩ - ١١

لم يكن أحد من رأوا الفتى الذى ارتقى عرش إنجلترا عام ١٥٠٩ يتنبأ بأنه هو البطال والوغد معاً فى أكبر حكم درامى فى التاريخ الإنجليزى . وعندما كان غلاماً فى الثامنة عشرة من عمره كانت بشرته الرقيقة وتقاطيعه المنتظمة تجعله جذاباً كالفتاة أويكاد ، بيد أن ما يتمتع به من قوام رياضى وجراحة سرعان ما قضى على أى مظهر للأنوثة فيه . وتبارى السفراء الأجانب مع المادحين الوطنيين فى الثناء على شعره الأصم ، ولحيته الذهبية و « وريلة ساقه الفائقة الجمال » وفى تقرير كتبه جيوستينيانى إلى مجلس شيوخ البندقية قال : « إنه مغرم بالنفس ، وإن أجمل شئ فى الوجود أن تراه وهو يلعب ، وبشرته الجميلة تتألق من خلال قميص نسيجه جلد رقيق (١) » ، وكان فى الرمى بالسهم والمصارعة يضارع أحسن الأبطال فى مملكته ولم يكن يبدو عليه فى الصيد قط أى تعب ، وكان يخصص يومين كل أسبوع المبارزات ، ولم يكن فى وسع أحد أن ينافسه . إلا الدوق سفولك . وكان موسيقياً مثقفاً أيضاً ، و « غنى وعزف على كل ضروب الآلات وأظهر موهبة نادرة » ، (كما كتب القاصد الرسولى للبابا) ولحن قدامين لازلان باقين ، وكان يعشق الرقص وحفلات المساخر ومظاهر الأبهة

والثياب الجميلة . ويروقه أن يكسو نفسه ثياباً من فرو الفاقوم أو أردية أرجوانية ، وكان القانون ينص على أن له وحده الحق في ارتداء اللديباج الأرجوانى أو الذهبى ، وكان يأكل بتلذذ ، ويحصل أحياناً مآدب الغداء الرسمية إلى سبع ساعات ، ولكنه في السنوات العشرين الأولى من حكمه كبح جماح شهيته . وكان كل الناس يحبونه ويعجبون بسماحة أخلاقه اللطيفة وسهولة الوصول إلى قلبه ومرحه وتسامحه وحلمه . ورحب الناس بارتقائه العرش وكأنه إيدان بفجر عصر ذهبي .

واغتنبت الطبقات المتعلمة أيضاً لأن هنرى فى أيام السكون تلك كان يطمح أن يكون عالماً بطلا رياضياً على السواء وموسيقياً ومملكاً ، ولما كان قد أعد فى الأصل ليكون من رجال الدين فقد أصبح على دراية بعض الشيء باللاهوت ، وكان فى وسعه أن يستشهد بآيات من الكتاب المقدس لأى غرض . وكان له ذوق جميل فى الفن ، واقتنى مجموعة تدل على درايته ، وكان حكيماً فى اختياره هوليين لتخليد كرشه . وقام بدور فعال فى أعمال الهندسة وبناء السفن والتحصينات والمدفعية . وقال عنه سير توماس مور : إنه أعلم من أى ملك إنجليزى قبله (٢) « - وليس هذا بالثناء العظيم . وتابع مور كلامه قائلاً : « ما الذى لا نتوقعه من ملك غذى بلبان الفلسفة وربات الفنون التسع (٣) ؟ » وكتب مونتهجومرى ميهوتاً إلى إرازموس ، وكان حينذاك فى روما ، يقول : « ما الذى لا تعلل به نفسك من أمير تعلم جيداً ما فطر عليه من موهبة خارقة وخاق يكاد يكون إلهياً ؟ ولكن عندما تعرف أى بطل يقيم الآن الدليل عليه ، وكيف يتصرف بحكمة ، وأى محب للعدالة والخير ، وأى مودة يحملها للمتعلمين ، فإنى أنجاس وأقسم لك بأنك لن تكون فى حاجة إلى جناحين تطير بهما لتشاهد هذا النجم الجديد السعيد .

أواه يا إرازموس العزيز . لو أنك استطعت أن ترى كيف أن العالم بأسره هنا مبتهج لأن عنده أميراً عظيماً كهذا ، وكيف أن حياته هي كل ما يبتغون فلن تتمالك نفسك من أن تذرف دموع الفرح . إن السموات لتضحك والأرض لتبتهج (٥) .

وجاء إرازموس وشارك في هذا الحذيان لحظة . وكتب يقول : « فيما مضى كان قلب المعرفة بين من يزعمون أنهم من رجال الدين والآن بينما ينصرف هؤلاء في الأغلب الأعم إلى شهوات البطون والترف والمال (٥) فإن حب العلم ذهب منهم إلى الأمراء العلمانيين والحاشية والنبلاء وإن الملك لا يقبل في بلاطه رجالاً مثل مورافحسب ، بل إنه يدعوهم ويجبرهم - على أن يرقبوا كل ما يفعل وأن يشاطروه تبعاته وملذاته . وهو يفضل صحبة رجال مثل مور على صحبة الأغبياء من الفتيان أو الفتيات أو الأغنياء (٥) » . وكان مور أحد أعضاء مجلس الملك وليناكر طبيب الملك وكوليه واعظ الملك في كنيسة القديس بولس .

وفي السنة التي ارتقى فيها هنري العرش ، أنفق كوليه الجانب من الثروة التي ورثها عن أبيه لتأسيس مدرسة القديس بولس . واختير نحو ١٥٠ صبيّاً لكي يدرسوا هناك الأدب الكلاسي واللاهوت المسيحي وعلم الأخلاق ، وخالف كوليه التقاليد بتعيين مدرسين علمانيين في المدرسة ، وكانت أول مدرسة غير إنكليزوسية في أوروبا . وعارض « الطرواديون » الذين كانوا ينددون في أكسفورد بتدريس الكلاسيات ، برنامج كوليه بحجة أنه يؤدي إلى الشك الديني ، بيد أن الملك حكم ضدهم ومنح كوليه تشجيعه الكامل . وعلى الرغم من أن كوليه نفسه كان محافظاً في عقيدته ومثالاً للتقوى ،

(٥) بيد أن أصدقاء إرازموس من رجال الدين ، دين كوليه وفيلسوف أسقف روشستر وكبير الأساقفة وارهام كنتربري كانوا أصدقاء مخلصين من ذوي المروءة والعلم .

لإن أعداءه اتهموه بالهرطقة ، فأخسرهم وارهام كبير الأساقفة وأذعن هنرى . وعندما رأى كولىه أن هنرى يميل إلى الحرب مع فرنسا ندّد علناً بسياسته وأعلن ، كما فعل إرازموس ، أن سلاماً ظالماً خير من عدل الحروب . وندّد كولىه بالحرب ، حتى وهو مجتمع بالملك فى الصلاة ، باعتبارها صفقة فى وجه تعاليم المسيح ، ورجاه هنرى على انفراد ألا يضعف معنويات الجيش ، ولكن عندما حرض الملك على أن يخلع كولىه أجاب قائلاً : « ليكن لكل إنسان قسيسه الخاص . . . إن هذا الرجل هو قسيسى^(٦) » . واستمر كولىه يفسر تعاليم المسيحية تفسيراً جاداً . وكتب إلى إرازموس (١٥١٧) يقول بروح توما أكمبى : آه يا أرازموس ، لا حد هناك لكتب المعرفة ، وليس هناك أفضل من أن نعيش حياة طاهرة مقدسة فى هذا الأجل القصير الذى كتب علينا وأن نبذل جهدنا فى حياتنا اليومية ، وأن نتطهر ونثقف . . . بالحلب المتأجج والافتداء ببسوع . ولهذا فإن أعظم رغباتى إلحاحاً هى أن نسير قدماً ، معرضين عن كل السبل غير المباشرة مؤثرين بطريقة قصيرة توصل إلى الحقيقة . وداعاً^(٧) .

وفى عام ١٥١٨ أعد فبره البسيط ولم ينقش عليه إلا اسم جوهانس كولىتس ودفن فيه ، بعد عام ، وأحس كثيرون أن قديساً قد مات .

٢ - ولزى

كان هنرى ، الذى قدر له أن يصبح تجسيدا لأمر مكينا فى ، لا يزال بعد حدثاً بريئاً فى السياسة الدولية . وعرف حاجته إلى الإرشاد وجعل من الرجال حوله نماذج . وكان مور ذكياً بيد أنه لم يتعد الحادية والثلاثين ، وكان ييل إلى الطهارة والتقوى . وكان توماس ولزى يكبره بثلاثة أعوام فحسب ، وكان قساً إلا أن اتجاهه بأكمله للسياسة ، والدين عنده جزء من

السياسة . وقد ولد توماس في إيسوتش من « أصل وضيع ودم خسيس » (هكذا ، صفه جويكيا ردينى المعتر بنفسه) (٨) . وقد استوعب مقرر شهادة البكالوريا في أكسفورد وهو في الخامسة عشرة من عمره ، وعندما بلغ الثالثة والعشرين عمل صرافاً في كلية مجدالين ، وأظهر كفاءته باستخدام مبالغ مناسبة ، تتجاوز السلطة المخولة له ، لإتمام البرج الرائع لتلك القاعة وعرف كيف ينجح . وأظهر فطنة في الإدارة والمفاوضة فقام بالوعظ في سلسلة من الكنائس ليخدم هنرى السابع بتلك المقدرة والدبلوماسية .

وعندما ارتقى هنرى الثامن العرش عينه موزعاً للصدقات - مديراً للبر والإحسان . وسرعان ما أصبح القس عضواً في المجلس الخاص . وأقزع واهرام كبير الأساقفة بدفاعه عن عقد حلف عسكري مع اسبانيا ضد فرنسا ، وكان لويس الثانى عشر يغزو إيطاليا ، ومن المحتمل أن يجعل البابوية تابعة لفرنسا من جديد . وعلى أية حال فإن فرنسا لا بد أن تصبح قوية جداً . وخضع هنرى في هذا الأمر لوازى وحميه فرديناند ملك أسبانيا ، وكان هو نفسه ينجح في هذا الوقت للسلم ، وقال لحيوستينيانى « إني راض بما أملك ، ولا أود أن أحكم إلا رعاياى ، ولكنى من جهة أخرى لا أقبل أن يبلغ أحد من القوة ما يجعله يتحكم فى » (٩) ، وبكاد هذا يلخص حياة هنرى السياسية ، فقد ورث ادعاء الملوك الإنجليز أن لهم الحق فى تاج فرنسا ، ولكنه عرف أنه ادعاء أجوف . ووهنت الحرب سريعاً فى موقعة المهاميز (١٥١٣) . ودبر ولزى للسلام وأغرى لويس الثانى عشر بالزواج من مارى شقيقة هنرى ، وسر ليو العاشر لنجاته فعين وازى رئيساً لأساقفة يورك (١٥١٤) . وكردينالا (١٥١٥) ، وعينه هنرى ، المقتصر ، حاجباً (١٥١٥) . وفاخر الملك لأنه حوى البابوية ، وعندما رفض أحد البابوات أن يتولى فيما بعد تيسير زواجه عد هذا بحدوداً .

وكانت السنوات الخمس الأولى التي قضاها ولزى فى منصب الحاجب من أعظم السنوات توفيقاً فى سجل الدبلوماسية الإنجليزية . وكان يهدف إلى تنظيم السلام فى أوروبا باستخدام إنجلترا وسيلة لحفظ التوازن فى القوى بين الإمبراطورية الرومانية المقدسة وفرنسا ، وكان المفروض أن مما يدخل أيضاً فى دائرة سلطانه أن يصبح حكاماً لأوروبا وأن يكون السلام فى القارة فى مصلحة تجارة إنجلترا الحيوية مع الأراضى المنخفضة . وتفاوض كخطوة أولى ، لعقد حلف بين فرنسا وإنجلترا (١٥١٨) ، وخطب مارى ابنة هنرى البالغة من العمر عامين (أصبحت ملكة فيما بعد) إلى ابن فرانسيس الأول البالغ من العمر سبعة شهور . ولا شك أن مياه للضيافة الكريمة قد كشف عنه ما حدث عند ما حضر المبعوثون الفرنسيون إلى لندن لتوقيع الاتفاقيات ، فقد أقام لهم وليمة فى قصر وستمنستر ، قدم لهم فيها عشاء ، قال عنه جيوسنتيانى : « أن مثيله لم يقدم قط ، على مائدة كليونباترة وكاليجولا ، وأن قاعة المأدبة بأسرها زينت بزهريرات ضخمة من الذهب والفضة (١٠) » . غير أن الكاردينال الحب للدنيا يلتمس له العذر ، فقد كان يقامر ليكسب وهائاً عظيماً ، فكسب . وأصر على أن يكون الحلف مفتوحاً لينضم إليه الإمبراطور مكسمليان الأول وشارل الأول ملك أسبانيا والبابا ليو العاشر ، ودعوا للانضمام إليه فقبلوا ، وابتهج أرازموس ومور وكوليه ، إذ داعبهم الأمل فى أن يكون فجر عهد السلام قد أشرق على العالم المسيحى بأسره . وتلقى ولزى التهانى حتى من أعدائه . وانتهاز الفرصة لرشوة المندوبين الإنجليز (١١) فى روما لكى يضمن تعيينه قاصداً رسولياً للبابا فى صف بريطانيا والعبارة تعنى : « فى صف » وموضع ثقة ، وكان أرفع تعيين لمبعوث بابوى . وكان ولزى وقتذاك الرئيس الأعلى للكنيسة الإنجليزية وحاكم إنجلترا - مع ولاء استراتيجى لهنرى .

وعكر صفو السلام بعد عام تنافس فرانسيس الأول وشارل الأول على العرش الإمبراطورى : بل إن هنرى رأى أن يقذف بقلنسوته فى الحلبة غير أنه لم يجد رجلاً مثل فوجر . وزار الفائز ، وهو وقتذاك شارل الخامس ، إنجلترا زيارة قصيرة (مايو سنة ١٥٢٠) وقدم احتراماته لعمته كاترين الأراجونية ، الملكة زوجة هنرى ، وعرض أن يتزوج الأميرة مارى (التى كانت مخطوبة بالفعل لولى عهد فرنسا) ، إذا وعدت إنجلترا أن تؤيد شارل فى أى نزاع بينه وبين فرنسا ، وهكذا السلام ، أمر غير طبعى ، فرفض ولزى ولكنه قبل من الإمبراطور مرتباً قدره ٧,٠٠٠ دوكات ، وانزع منه تعهداً بأن يساعده على أن يصبح بابا :

وحقق الكاردينال الذكى أعظم انتصار باهر له بتدبير لقاء بين العاهلين الفرنسى والإنجليزى فى ميدان كلوث أف جولد (يونيو ١٥٢٠) . وهناك فى أرض فضاء مكشوفة بين جين وآردر قرب كاليه برزفن العصر الوسيط والفروسية فى روعة الغروب . وانطلق أربعة آلاف نبيل انجليزى ، اختارهم الكاردينال وعينهم ، وكانوا يرتدون الملابس الحريرية والمزركشة والمخرمات من أزياء القرون الوسطى المتأخرة ، فى صحبة هنرى بينما امتطى الملك الشاب ذو اللحية الحمراء صهوة فرس صغيرة للملاقة فرانسيس الأول : وأخيراً وليس آخراً ، أقبل ولزى نفسه مرتدياً ثياباً قرمزية من الأطلس ينافس بها أمهات الملوك . وقد شيد على عجل قصر لاستقبال صاحبى الجلالة ومراقبيهما من السيدات والموظفين ، وأقيمت سقيفة يكسوها قماش تتخلله خيوط ذهبية ، وتتدلى منه طنافس ثمينة ليظلل المؤتمر والمآدب ، وكانت هناك نافورة يسيل منها النيزد ، وأخايت مساحة لألعاب الفروسية الملكية ، وتدعم الحلف السياسى والعسكري بين الأمتين ، وتبارى العاهلان السعيدان فى المبارزة بل وتصارعا ، وخاطر فرانسيس بسلام أوربا بطرحه الملك الإنجليزى ، وأصلح خطواته الحاططة بكياسة فرنسية لانظير لها بالذهاب ، مبكراً ذات

صباح وهو مجرد من السلاح مع بعض الأتباع غير المسلحين ، لزيارة هنرى
فى المعسكر الإنجائزى — وكانت لفظة تدل على الثقة الودية فهمها هنرى .
وتبادل الملكان الهدايا الثمينة والأيمان المغلظة .

والحق أن أحداً منهما لم يستطع أن يثق بالآخر ، لأن التاريخ علمهما
درساً مفاده أن الرجال يكذبون كثيراً عندما يحكمون دولا . وبعد سبعة
عشر يوماً أمضاها هنرى ينعم بالولاة مع فرانسيس ، انطلق ليمضى ثلاثة
أيام فى مؤتمر مع شارل فى كاليه (يولييه سنة ١٥٢٠) . وهناك أقسم الملك
والإمبراطور ، فى حضور ولزى ، على الصداقة الأبدية واتفقا على ألا يقدما
على خطوات أخرى لتنفيذ خطتهما للزواج من الأسرة المالكة فى فرنسا .
وكانت هذه الأحلاف المنفصلة أساساً أشد قلقلة للسلام الأوروبي من الاتفاق
الودى متعدد الجوانب الذى كان ولزى قد دبر له قبل وفاة مكسمليان ،
وإن كان قد ترك إنجلترا فى وضع الوسيط ، والحكم فى الواقع — وهو وضع
أسمى بكثير من أى وضع يمكن أن يعتمد على ثروة الإنجليز أو سلطانهم .
وكان هنرى راضياً . وأمر رهبان سانت البانز باختيار ولزى رئيساً لديرهم
ومنحه صافى دخلهم ، وذلك مكافأة لحاجبه ، لأن « سيدى الكاردينال
قد تحمل الكثير من التكالييف فى هذه الرحلة » . وأذعن الرهبان ووصل
دخل ولزى إلى ما يقرب من احتياجاته .

وكان ، على نطاق أوسع بكثير من معظمنا ، مزيجاً من الفضائل
والنقائص المركبة ، وكتب جيوستينيانى يقول : « إنه وسيم جداً ، فصيح
للغاية ، واسع المقدرة ، لا يكل ولا يمل (١٢) » . وكانت أخلاقه لا تخلو من
الشوائب ، فقد انزلق مرتين إلى الأبوة غير الشرعية ، وكانت تعد من الهفوات
التي تغنفر فى ذلك العصر الطروب .

ولكن إذا صدقنا ما قاله أسقف ، فإن الكاردينال كان يعانى من

« الزهرى (١٣) » وقبل ما يمكن ، أو ما لا يمكن أن يسمى بالرشاشا — هدايا عظيمة من المال تلقاها من فرانسيس وشارل على السواء ، وحرص على أن يجعلهما يتنافسان على أن يأمرأله بمرتبات وهبات سخية قدماها ، وكانت هذه من آداب مجاملة العصر ، وأحس الكاردينال المبذر ، الذى شعر بأن سياسته تخدم أوروبا بأسرها ، بأن أوروبا كلها يجب أن تخدمه . وليس من شك فى أنه كان يحب المال والترف والأبهة والسلطان : وكان بجانب كبير من دخله يصرف فى الحفاظ على مؤسسة قد يكون تبذيرها السطحى أداة من أدوات الدبلوماسية ، صمم لكى تعطى السفراء الأجانب فكرة مبالغاً فيها عن الموارد الانجليزية . ولم يدفع هنرى أى مرتب لولزى ، ولهذا كان على الحاجب أن يعيش ويولم لضيوفه على حساب موارده الكنسية ومرتباته التى يتقاضاها من الخارج . وحتى لو كان الأمر على هذا النحو فإننا قد نعجب لأنه احتاج لكل الدخل الذى كان يحصل عليه باعتباره صاحب الحق فى دخل أبرشيتين ، وست رواتب للقسس ، ومرتب رئيس جامعة ، ومرتب باعتباره رئيساً لدير سانت البازر وأسقفاً لباث وولز ، ورئيساً لأساقفة يورك ومديراً لأبرشية ونشستر وشريكاً لأسقفى ورسستر وسالزبورى الإيطاليين الغائبين (١٤) .

وكان له تقريباً الحق فى الرئاسة الدينية والسياسية بأسرها فى المملكة والمفروض أنه كان ينال مكافأة عن كل تعيين يتم . وقدر مؤرخ كاثوليكى أن ولزى كان يتلقى فى أوج مجده ثلث دخول الكنيسة فى إنجلترا (١٥) ، كان أغنى وأقوى الرعايا فى الأمة : ومن رأى جيوستينيانى أنه كان « أقوى من البابا — بسبعة أضعاف » (١٦) ويقول إرازموس : « إنه الملك الثانى » ولم يبق أمامه إلا خطوة واحدة — يقوم بها — البابوية . وحاول ولزى الحصول عليها مرتين ، ولكن شارل الداهية فاقه فى تلك اللعبة ، متجاهلاً وعوده .

واعتمد الكاردينال أن التمسك بالمراسم دعامة القوة ، ويستطيع المرء بالقوة أن يقبوا السلطة ولكنه لا يستطيع أن يدعمها بشمن بخس وفي هدوء وسلام إلا بالتعود عليها أمام الجمهور ، والناس تحكم على سمو المرء بمقدار تمسكه بالرسمة التي يحتمى بها . ولهذا فإن ولزى كان يظهر في الحفلات العامة والرسمة مرتدياً أفخر الملابس الرسمية التي خيل إليه أنها مناسبة لمثل كل من البابا والملك . قبة كاردينال حمراء ، وقفازين حمراوين ، وأردية من التافتاه القرمزية وحذاء من الفضة أو مموهاً بالذهب ، ومرصعاً بالآلآء والأحجار الكريمة — ها هو ذا أنوسنت الثالث وبنيامين دزرائيلي وبروفل الجميل اجتمعوا معاً في شخص واحد . كان أول من لبس الحرير (١٧) بين رجال الدين في إنجلترا . وعندما كان يردد القداس (وهو أمر نادر) كان شماسه من الأساقفة والرهبان ، وفي بعض المناسبات كان النبلاء من حملة ألقاب دوق وايرل يصبون الماء للذي يغسل به يديه المقدسين . وأذن لتابعيه أن يركعوا وهم يخدمونه على المائدة . وخدمه في مكتبه وببته خمسمائة شخص (١٨) ، كثير منهم من ذوى النسب العريق . وكانت قلعة هامبتون التي شيدها لتكون مقراً له باذخة جداً إلى حد أنه أهدها للملك (١٥٢٥) ليتقي شر حسده .

ومهما يكن من أمر فإنه نسي أن هنرى كان ملكاً . وكتب جيوسنتيانى إلى عضو شيوخ من البنادقة : « لدى وصولي لأول مرة إلى إنجلترا اعتاد الكاردينال أن يقول لى إن جلالته سوف يفعل كذا وكذا » . وبعد ذلك — بالتدريج نسي نفسه وبدأ يقول : « سوف نفعل كذا وكذا » أما الآن يقول « سأفعل كذا وكذا » (١٩) ، وكتب السفير مرة أخرى يقول : « إذا كان لابد من إغفال أمر الملك أو الكاردينال فمن الأفضل التغاضى عن الملك ، فالكاردينال قد يستاء من السبق الذى يسلم به للملك (٢٠) » وقاما كان الأشرف واثابوماسيون يخصهون على الإذن بالانول في حضرة الحاجب قبل تقديم

الانقاس الثالث . وكلما مر عام كان الكاردينال يحكم صراحة حكماً مطلقاً يشتد يوماً بعد يوم ، واستدعى المجلس النيابي مرة إبان رئاسته ، وكان قليل الاهتمام بالأشكال الدستورية ، وقابل المعارضة بالاستياء والنقد بالزجر . وكتب المؤرخ بوليدور فرجيل يقول : « إن هذه الوسائل سوف تؤدي إلى سقوط ولزى » فأرسل فرجيل إلى البرج ، ولم يطلق سراحه إلا بعد أن تشفع له ليو العاشر مراراً . واشتدت المعارضة .

ولعل من عزلم ولزى أو أدبهم هم الذين اعتصموا بأذان التاريخ ، ونقلوا آثامه كما هي بلا غفران ، إلا أن أحداً لم ينازع في مقدرته ، أو انصرافه في مشاركة لكثير من مهامه . وقال جيوسنتيانى لعضو الشيوخ البندقية المعز بن نفسه « إنه ينجز من العمل قدر ما يشغل كل القضاة وموظفي المكاتب والمجالس في البندقية ، في المحاكم المدنية والجنائية على السواء ، وهو يدير كذلك كل شئون الدولة مهما كانت طبيعتها (٢١) » .

وكان محبوباً من الفقراء ، مكروها من الأقوياء بسبب عدم تحيزه في تطبيق العدالة . وفتح بلاطه لكل من يشكون من الاضطهاد ، ولا تكاد توجد سابقة لهذا في التاريخ الإنجليزي بعد الفرد . وكان ينزل العقاب بالجنائي الأثيم ، مهما كان رفيع القدر (٢٢) ، دون خوف ولا وجل . وكان كريماً مع العلماء والفنانين وبدأ إصلاحاً دينياً بإحلال كليبات محل أديار عديدة . وكان بصدد القيام بإصلاح مثير في التعاليم الإنجائزي عندما تأمر صنده كل الأعداء الذين خلقهم اندفاعه في أعماله وقصصه : نخله كرهه ، فتمأروا بخلق قصة خيالية مأكية لتدبير خطة لسقوطه

٣ - ولزى والكنيسة

وأدرك المساوئ التي لا تزال باقية في حياة رجال الدين في إنجلترا ضرب لها مثلاً عظيماً : أساقفة غائبين ورجال دين متعلقين بالدنيا ،

ورهباناً كسالى ، وقساوسة وقعوا فى شرك الأبوة . وكانت الدولة التى طالما دعت إلى إصلاح الكنيسة ، مسئولة إلى حد ما عن الشرور ، لأن الملوك كانوا يعينون الأساقفة ، وكان بعض الأساقفة من أمثال مورتون ، وواهرام وفيشر رجالا على خلق رفيع ، ذوى مقدرة عظيمة ، وكان كثير من الآخرين منغمسين جداً فيما تليحه لهم الأسقفية من حياة وادعة ، فلم يستطيعوا أن يدرّبوا أتباعهم من رجال الدين على الكفاءة من الناحية الروحية ، وكذلك على المثابرة فى تدبير المال . وربما كانت أخلاقيات الجنس عند القساوسة أفضل مما هى عند زملائهم فى ألمانيا ، ولكن لم يكن ثمة مفر من وجود حالات من التسرى بين رجال الدين ، ومن الزنا والسكر والجريمة فى الأبرشيات البالغ عددها ٨,٠٠٠ فى إنجلترا — وهى حالات — كثيرة دفعت كبير الأساقفة مورتون إلى أن يقول : (١٤٨٦) « إن ما يقرن بحياتهم من فضائح يعرض للخطر استقرار نظامهم » (٢٣) . وأبلغ رتشارد فوكس ، حوالى عام ١٥١٩ ، ولزى بأن رجال الدين فى أسقفية ونشستر كانوا قد تردوا إلى هاوية كبيرة من الفسق والفساد ، إلى حد أنه يؤس من أن يشهد فى حياته أية محاولة لإصلاح دينى (٢٤) . وارتأى القساوسة بالأبرشيات فى أن ترقياتهم تنوقف على مقدار مقتنياتهم ، فأخذوا يغيثون ضرائب العشور أكثر مما فعلوا فى أى وقت مضى . وكان البعض يستولى كل عام على عشر دجاج الفلاح وإنتاجه من البيض والبن والجبن والفاكهة ، بل حتى من كل الأجور التى كانت تدفع لمعاونته ، وكل إنسان لا يترك فى وصيته ميراثاً للكنيسة يتعرض لخطر عظيم بحرمانه من الدفن طبقاً للطقوس المسيحية مع ما يترتب على ذلك من نتائج متوقعة مروعة إلى حد لا يمكن التفكير فيها ، وبعبارة موجزة فرض رجال الدين مكوساً لتمويل مصالحهم فى إصرار مثل الدولة الحديثة . وما أن حل عام ١٥٠٠ حتى كانت الكنيسة تملك ، وفقاً لتقدير كاثوليكي محافظ ، حوالى خمس

الأملاك بأسرها في إنجلترا (٢٥) . وحسد النبلاء هناك كما في ألمانيا رجال الدين على هذه الثروة وتلهفوا على استعادة الأراضي والدخول التي تنازل عنها لله أسلافهم الأتقياء أو الخائفون .

وأجل دين كويله حالة رجال الدين العلمانيين مع مبالغة واضحة في خطاب وجهه إلى جمعية رجال الكنائس عام ١٥١٢ فقال : « أود أخيراً وأنا عالم بشهرتكم ومهنتكم ، أن تفكروا في إصلاح أمور الكهنوت لأنه لم يحدث من قبل أن كان الأمر محتملاً كما هو الآن . . . لأن الكنيسة — زوجة المسيح — التي تمنى ألا تشوبها شائبة أو تدب فيها الشيخوخة قد أصبحت دنسة مشوهة ، وكما يقول أشعياء : « كيف صارت القرية الأمانة زانية » (١) . وكما يقول أرميا : « أما أنت فقد زنت بأصحاب كثيرين (***) » . وقد حملت بكثير من بذور الظلم وهي تنجب كل يوم أعظم الذرية دنساً . ولم يشوه شيء وجه الكنيسة مثل ما شوهته المعيشة العامانية والدينيوية لرجال الدين . . . أى طمعة وجوع يشيعان في هذه الأيام بين رجال الدين بعد الشرف والوقار . وأى سباق تنقطع فيه الأنفاس من صدقة إلى صدقة ومن منفعة أقل إلى منفعة أكبر .

ألم تغرق الشهوة إلى الجسد ، ألم تغرق هذه الرذيلة الكنيسة بالفيضان . . ولهذا فليس هناك ما يسعى إليه في حرص الجانب الأكبر من القساوسة أكثر مما يهيئ لهم اللذة الحسية ؟ إنهم لينصرفون إلى المسآدب والولائم . . ويقفون حياتهم وينصرفون إلى القنص والصيد بالصقور ، وهم غارقون في مباحج هذه الحياة الدنيا . .

وقد تملك الجشع أيضاً . . : قلوب كل القسس . . إلى حد أننا اليوم

(*) العهد القديم : سفر أشعياء : الإصحاح الأول ، آية ٢١

(**) « » : سفر أرميا : الإصحاح الثالث ، آية ١

لا نرى شيئاً سوى ما يخيله لنا أنه كفيلاً بأن يعود علينا بمغنم ، ونحن نعانى في هذه الأيام من الهراطقة - وهم رجال يتصفون بحماقة عجيبة ، إلا أن هرطقتهم ليست وبائية خبيثة بالنسبة لنا وللناس مثل حياة رجال الدين الفاسدين الغاوين . ولا بد أن يبدأ الإصلاح الدينى بهم (٢٦) .

وصاح نائب الأسقف مرة أخرى وهو يتميز غيظاً : « أيها القساوسة .. يا طائفة القسوس ... أواه ! إن الضلال المقيت الذى يسدر فيه هؤلاء القساوسة التعساء ، الذين يضم منهم عصرنا عدداً كبيراً لا يخشون الاندفاع من أحضان بغى دنسة إلى حرم الكنيسة ، وإلى مذبح المسيح ، وإلى أسرار العشاء الربانى (٢٧) .

بل إن رجال الدين النظاميين أو الرهبانيين تعرضوا لاستنكار شديد ، فقد اتهم كبير الأساقفة مورتون عام ١٤٨٩ الراهب وليام من دير سانت ألبانز بـ « الاتجار فى المقدسات والرتب والوظائف الدينية والربا والاختلاس والعيش علناً وباستمرار مع العاهرات والعشيقات داخل أرباض الدير وخارجه » واتهم الرهبان بأنهم يحيون حياة داعرة كلا بل يدنسون الأماكن المقدسة ، حتى كنائس الرب بالذات بمضاجعة الراهبات الممقوتة » : ويحاولون ديراً ثانوياً مجاوراً إلى « ماخور عام » (٢٨) :

وترسم سجلات الجولات التفتيشية الأسقفية صورة أقل اكفهراراً . فمن بين اثنين وأربعين ديراً تم التفتيش عليها بين عامى ١٥١٧ و ١٥٣٠ وجد خمسة عشر ديراً لم تقترف فيها خطيئة كبيرة ، وفى معظم الأديار الأخرى كانت جرائم التعدى على النظام أكثر منها على العفة (٢٩) . وكانت بعض الأديار لا تزال تمارس نظام الصلاة فى القرون الوسطى والإقبال على العلم والضيافة والبر وتعليم الشباب . واستغل بعضها السداجة وجمعت النقود من العامة لمخلفات وهمية نسبوا إليها شفاء معجزاً من الأمراض ، وشكا أساقفة

من « الأحمدة المنتنة والأمشاط القذرة . . والزنارات الرثة وخصلات الشعر والخرق القذرة المقررة والموصى بها للجهالة من الناس . باعتبارها خلفات صحيحة لنساء أو رجال مقدسين » (٢٠).

وعلى الجملة فإن الأديار الستائة في إنجلترا أظهرت ، طبقاً لتقدير آخر مؤرخ كاثوليكي ، سوء سلوك على نطاق واسع وكسلا متلافا وإهمالا يكلف غالباً في رعاية أملاك الكنيسة (٢١).

وفي عام ١٥٢٠ كان في إنجلترا نحو ١٣٠ ديراً للراهبات . منها أربعة فقط تضم ما يزيد على ثلاثين نزيل (٢٢). وألغى الأساقفة ثمانية أديار ، وقال الأسقف في إحدى الحالات بسبب « الأخلاق الداعرة لنساء البيت وتبذهن بسبب مجاورتهن لجامعة كمبرج » (٢٣). وتمت ثلاث وثلاثون جولة تفتيشية لواحد وعشرين ديراً للراهبات في أبرشية لنكولن وقدمت عنها تقارير من بينها ستة عشر تقريراً مشجعاً ، وأربعة عشر تقريراً تضمنت ملاحظات عن الافتقار إلى النظام أو الأخلاق وتقريران تحدثا عن راهبات كن يعشن في الخنا ، وتقرير وجد راهبة حاملاً من قسيس (٢٤). وكانت مثل هذه الانحرافات عن القواعد الصارمة تعد طبيعية في المناخ الأخلاقي السائد في تلك العصور ، ولعل الخدمات الكريمة في التعليم والبر كانت ترجحها .

وكان رجال الدين لا يتمتعون بالشعبية . وكتب يوستاس شابويس السفير الكاثوليكي لشارل الخامس في إنجلترا إلى مولاه عام ١٥٢٩ فقال : « إن كل الناس يكرهون القساوسة » (٢٥). وندد كثير من الناس ، من المتشبهين بعقيدة المحافظين تماماً بقسوة الضرائب التي فرضها رجال الدين وتبذير الأساقفة وثرأ الرهبان وكسلهم . وعندما اتهم كاتب سر أسقف لندن بقتل هرطيق (١٥١٤) توسل الأسقف إلى وئزى أن يمنع المحاكمة أمام محلفين مدينين « لأنى واثق أن كاتب سرى لو حوكم أمام أى اثني عشر

رجلا في لندن فإنهم سوف ينحازون في حقد إلى صف الهرطيق إلى حد أنهم سوف يلبذون كاتبى ويدينونه على الرغم من لأنه برىء مثل هانيل» (٣٦).

وأخذت الهرطقة تشتد مرة أخرى . وفي عام ١٥٠٦ اتهم خمسة وأربعون رجلا بالهرطقة أمام أسقف لنكولن وتراجع ثلاثة وأربعون عما قالوا ، وأحرق اثنان . وفي عام ١٥١٠ حاكم أسقف لندن أربعين هرطيقا وأحرق اثنين ، وفي عام ١٥٢١ حاكم خمسة وأربعين وأحرق خمسة ، وتورد السجلات قائمة تضم ٣٤٢ محاكمة مثل هذه في خلال خمسة عشر عاماً (٣٧) .

ومما كان يعد بين الهرطقات الجدل حول القربان المقدس وهل يظل يقدم من الخبز فحسب ، وأن القساوسة لا حول لهم ولا قوة أكثر من الآحاد الآخرين من الناس في التكريس أو الحل ، وأن القرايين المقدسة ليست ضرورية للحصول على الخلاص ، وأن رحلات الحج إلى المزارات المقدسة والصلاة من أجل الموتى لا قيمة لها ، وأن الصلوات يجب أن توجه لله وحده ، وأن في وسع الإنسان أن يظفر بالنجاة بالإيمان وحده ، بغض النظر عما يقدم من صالح الأعمال ، وأن المسيحى المخلص فوق كل القوانين ما عدا شريعة المسيح ، وأن الكتاب المقدس والكنيسة يجب أن يكونا للقائد الوحيدة التى يحتكم إليها في العقيدة ، وأن كل الرجال يجب أن يتزوجوا ، وأن الرهبان والراهبات يجب أن يمحذوا أقسامهم بالتزام العفة . وكانت بعض هذه الهرطقات أصناما لمذهب لولارد ، وكانت بعضها انعكاسات لنفخات من بوق لوثر .

وفي أوائل عام ١٢٥١ كان الثائرون الشبان في اكسفورد يتلقفون في لفة أنباء الثورة الدينية في ألمانيا ، وآوت كامبردج في أعوام ١٥٢١ - ٢٥ اثنى عشر من زعماء هراطقة المستقبل ، وليام تيندال وميلز كوفردال وهيو لاتيمر وتوماس بلنى وادوارد فوكس ونيكولاس ردلى وتوماس

كرانمر . . . لقد هاجر كثير منهم : وهم يتوقعون الاصطهاد ، إلى القارة ، وطبعوا كراسات دينية مناهضة للكاتوليكية وبعثوا بها سرا إلى إنجلترا .

وأصدر هنرى الثامن عام ١٥٢١ كتابه المشهور « قضية المقدسات السبعة ضد مارتين لوثر » ، ولعله أصدره كرادع لهذه الحركة أو ربما لإظهار سعة علمه فى اللاهوت ، واعتقد الكثيرون أن ولزى هو المؤلف الخفى ، ولعل ولزى هو الذى اقترح تأليف الكتاب ، وصاحب ما ورد فيه من أفكار رئيسية كجزء من دبلوماسيته فى روما ، بيد أن إرازموس ادعى أن الملك قد فكر فى الرسالة من أولها لآخرها وألفها ، ويميل الحكم الآن إلى هذا رأى . وهذا الكهاب له سمات المبتدئ ، وهو لا يكاد يحاول تقديم رد عقلى يدحض به الآراء الأخرى ، ولكنه يعتمد على فقرات منقولة من الكتاب المقدس والروايات الكنسية والتعسف الشديد . وكتب الثائر المنتظر ضد البابوية يقول : « أى شعبان سام يصل إلى درجة من يصف نسلطة البابا بأنها مستبدة ؟ . . . وأى جارية من جوارح الشيطان تحاول أن تمزق أعضاء المسيح وتفصلها عن رأسها » . ما من عقوبة يمكن أن تكون جسيمة عندما توقع على من يعصى النفس الأكبر والقاضى الأعلى على الأرض « لأن الكنيسة بأسرها ليست رعية للمسيح فحسب . . . بل لكاهن المسيح الوحيد ، بابا روما » (٢٨) . « وكان هنرى يغط ملك فرنسا على ألقاب التشريف التى تسبغها الكنيسة عايمه مثل : « أكثر المسيحيين مسيحية » وفرديناند وايزابلا على لقب العاهلين الكاثوليكين . وعندما قدم وكياله وقتذاك الكتاب إلى ليو العاشر طلب منه أن يمنح هنرى وحلفاءه لقب — حامى العقيدة — ووافق ليو ووضع من استهل الإصلاح الدينى فى إنجلترا الكلمات على سكهة .

وتهمل لوثر فى الإجابة . ورد عام ١٥٢٥ ردا فريدا على ذلك « الحمار الأحمق » ، « وذلك المجنون الهائج . . . ملك الأكاذيب ، الملك

هينز ، ملك إنجلترا يغضب الله . . . ولما كانت تلك الدودة اللعينة العفنة قد افترت كذبا بشر مبيت على مليكي في السماء فإنه يحق لي أن أطلع هذا الملك الإنجليزي بقدره » (٢٩) « ولم يتعود هنري على هذا الرشاش فاشتكى إلى أمير سكسونيا المختار الذي قال له بأدب . جم ألا يتطفل على الأسود ، ولم يصفح الملك قط عن لوثر على الرغم من اعتذاره فيما بعد ، ونبذ البروتستانت الألمان حتى عندما تمرد تماما على البابوية .

وكان أعظم رد مفهم للوثر هو نفوذه في إنجلترا ففي ذلك العام نفسه ١٥٢٥ نسمع عن « جمعية الإخوان المسيحيين » . في لندن التي انطلق وكلاؤها المأجورون يوزعون كراسات دينية لوثرية وهرطقية أخرى وأنجيل بالإنجليزية كلها أو بعضها .

وفي عام ١٤٠٨ انزعج كبير الأساقفة أرونديل بسبب توزيع نسخة الكتاب المقدس التي ترجمها ويكلف ، فنع القيام بأى ترجمة له باللغة الوطنية دون الحصول على موافقة من الأسقف ، على أساس أن أى نسخة تترجم بدون ترخيص قد يحدث فيها تحريف لل فقرات الصعبة ، أو تلون التعبير لتأييد هرطقة . ولم يشجع كثير من رجال الدين قراءة الكتاب المقدس بأى صيغة ، واحتجوا بأن الترجمة الصحيحة تستلزم معرفة خاصة ، وأن المنتخبات من الكتاب المقدس كانت تستخدم لإثارة الفتنة (٤٠) . ولم تبد الكنيسة أى اعتراض رسمي على الترجمات السابقة لولا يكلف بيد أن هذا الإذن المفهوم ضمنا لم تكن له أهمية لأن كل النسخ الإنجليزية قبل عام ١٥٢٦ كانت مخطوطة (٤١) .

ومن ثم تأتى الأهمية الزمنية للعهد الجديد الإنجليزي الذى نشره تندرل عام ١٥٢٥ - ٢٦ . وكان قد فكر مبكراً فى أيام دراسته فى ترجمة الكتاب المقدس ، لا من النسخة اللاتينية له كما فعل ويكلف ، بل من الأصلين

العبري واليوناني . وعندما لاهمه كاثوليكي غيور وقال له : « خير لك أن تعيش بلا شريعة الرب » أي الكتاب المقدس من أن تعيش بشريعة البابا » ، رد تندال بقوله : « إذا مد الله في عمري فلن تمضي بضع سنين حتى أجعل الصبي الذي يدفع المحراث يعرف من الكتاب المقدس أكثر مما تعرف أنت (٤٢) » . ومنحه أحد معاوني بلدية لندن الفراش والمأوى لمدة ستة شهور عكف الشاب أثناءها على العمل . وذهب تندال عام ١٥٢٤ إلى فنتربرج واستمر في العمل تحت إرشاد لوثر . وبدأ في كولونيا بطبع نسخة العهد الجديد المترجمة من النص اليوناني كما حققه إرازموس . وأثار وكيل إنجائزي السلطات عليه ، ففر تندال من كولونيا الكاثوليكية إلى ورمز البروتستانتية ، وهناك طبع ٦,٠٠٠ نسخة ، أضاف لكل منها مجلدا منفصلا ضمنه تعليقات ومقدمات عدوانية ، اعتمد فيها على مقدمات إرازموس ولوثر . وهربت كل هذه النسخ إلى إنجلترا وكانت بمثابة الوقود ، الذي أشعل نار البروتستانتية الأولى ، وزعم كوثبرت تونستال ، أسقف لندن أن هناك أخطاء شنيعة في الترجمة ، وتحادلا مخرضا في التعليقات ، وهرطقات في المقدمات ، وحاول أن يمنع تداول الطبعة بشراء كل النسخ المكتشفة وإحراقها علنا في ميدان سانت بول كروس ، بيد أن نسخا جديدة ظلت ترد من القارة ، وعاق مور على ذلك بقوله إن تونستال كان يمول مطبعة تندال . وكتب مور نفسه حوارا مستفيضا (١٥٢٨) ، انتقد فيه النسخة الجديدة فرد عليه تندال ، ورد مور على الرد في « تفنيد » يتألف من ٥٧٨ صفحة من القوط الكبير . ورأى الملك أن يخدم الفتنة بمنع قراءة الكتاب المقدس بالإنجليزية وتداوله ، إلى أن تصدر ترجمة معتمدة من ذوى الشأن (١٥٣٠) ، وفي غضون ذلك حرمت الحكومة كل طبع أو بيع أو استيراد أو حيازة للمؤلفات الهرطقية .

وبعث ولزى بأوامره بالقبض على تندرال ، إلا أن فيليب ، حاكم لاندجراف هس أسبغ حمايته على المؤلف ، وتابع في ماربورج ترجمته للأسفار الخمسة (١٥٣٠) . وترجم الجانب الأكبر من العهد القديم إلى الإنجليزية في أناة ، بجهده الخاص أو تحت إشرافه . غير أنه سقط في أيدي الموظفين الإمبراطوريين في لحظة لم يتخذ فيها احتياطاته وسجن لمدة ستة عشر شهراً في فلفورد (قرب بروكسل) ، وأُعدم في المحرقة (١٥٣٦) على الرغم من تشفع توماس كرومويل وزير هنرى الثامن . وتحدثنا الرواية أن آخر كلماته كانت : « رباه ، افتح عيني ملك إنجلترا (٤٣) » وقد عاش ما يكفي لإتمام رسالته ، فالصبي الخارث يستطيع الآن أن يسمع المبشرين الإنجلييين الآن وهم يروون له بلإنجليزية ثابتة واضحة قوية قصة المسيح الملهمة . وعندما ظهرت النسخة التاريخية المعتمدة (١٦١١) كان ٩٠ في المائة من أعظم ما كتب في الأدب الكلاسي الإنجليزي وأشدّها تأثيراً كانت لتندرال بلا تغيير (٤٤) .

وكان موقف ولزى تجاه هذا الإصلاح الديني الإنجليزي الوليد يتسم باللين ، كما يمكن أن يتوقع من رجل على رأس الكنيسة والحكومة على السواء . فاستأجر شرطة سرية لكشف الهرطقة ، وفحص الأدب المشكوك فيه والقبض على الهرطقة . غير أنه سعى إلى إغراء هؤلاء بأن يسكتوهم لا أن يعاقبوهم ، ولم يصدر أوامره قط بإرسال هرطيق إلى المحرقة . وفي عام ١٥٢٨ سجن ثلاثة من طلبة جامعة أكسفورد بتهمة الهرطقة ، وترك أسقف لندن واحداً منهم يموت في الحبس وأنكر آخر ما قاله وأطلق سراحه ، أما الثالث فأخذه ولزى ووضعته تحت رعايته وسمح له بالفرار (٤٥) . وعندما ندد هيو لاتيمر ، أفصح المصلحين المدينيين الأوائل في القرن السادس عشر بإنجلترا ، بنفسه رجال الدين وطلب أسقف ايلي من ولزى منعه ، منح ولزى لاتيمر ترخيصاً بالوعظ في أى كنيسة بالبلاد .

ورسم الكاردينال خطة ذكية لإصلاح الكنيسة . وفي راوية لأسقف برنت أنه كان يحتقر رجال الدين وبخاصة . . . الرهبان الذين لا يؤدون خدمة للكنيسة أو الدولة ، ولكنهم كانوا بسبب حياتهم الفاضحة وصحة عار في جبين الكنيسة وحملوا على الدولة . ومن ثم قرر أن يوقف عدداً منهم ويحولهم إلى مؤسسة أخرى (٤٦) » . ولم يكن إغلاق دير لا يؤدي وظيفته على ما يرام بالأمر الذى لم يسمع به من قبل ، فقد حدث في كثير من الحالات قبل ولزى بأمر صدر من الكنيسة . وبدأ (١٥١٩) بإصدار تشريعات لإصلاح القوانين الكنسية التى وضعها سانت أوغسطين « ولو أن هذه القواعد اتبعت لأصبحت القوانين الكنسية نموذجية للغاية . وفوض كاتم سره توماس كروموويل في زيارة الأديار بنفسه أو بواسطة وكلاء له وأن يقدم له تقارير عن الأحوال الموجودة ، وأتاحت هذه الجولات التفتيشية مهارة متمرسه لكروموويل في تنفيذ أوامر هنرى فيما بعد بتقصى الحياة في الأديار بانجلترا بشدة . وارتفعت الأصوات بالشكوى من قسوة هؤلاء الوكلاء ومن تلقيهم « الهدايا » أو أخذها كرها ، وعن مشاطرتهم كروموويل والكاردينال (٤٧) في هذه الهدايا . وحصل ولزى عام ١٥٢٤ على إذن من البابا كليمنت السابع بإغلاق الأديار التى تضم أقل من سبعة نزلء واتفاق دخول هذه الممتلكات على إنشاء كليات . وشعر بالسعادة عندما مكنته هذه الأموال من فتح كلية في موطنه ابسويتش وأخرى في أكسفورد وراوده الأمل في أن يستمر على هذا المنوال فيغلق المزيد من الأديار عاماً بعد عام ويستبدل بها كليات (٤٨) . إلا أن نياته الطيبة ضاعت في غمرات السياسة ، وكانت أعظم نتيجة لإصلاحاته المتعلقة بالأديار هى أنه زود هنرى بسابقة جديدة بالإجلال لخطة أبعد مدى ، وتدرجاً أكثر .

وفي غضون ذلك كانت سياسة الكاردينال الخارجية قد أدت إلى نتيجة تدعو إلى الأسى . ولعله سمح لانجلترا بالانضمام إلى شارل في حربه مع فرنسا (١٥٢٢) لأنه كان يسعى إلى الحصول على تأييد الإمبراطور لترشيحه للبابوية (١٥٢١) . ومنيت الحملات الإنجليزية بالفشل وتكلفت أموالا طائلة ، وأزهقت فيها أرواح كثيرة .

ودعا ولزى (١٥٢٣) أول مجلس نيابى فى سبع سنوات ، لتمويل الجهود الجديدة ، وصدمه بطلب إعانة مالية لم يسبق لها مثيل قدرها ٨٠٠,٠٠٥ جنيه - أى خمس ما يملكه كل علمانى . واحتج أعضاء مجلس العموم ثم صوتوا على السبع فقط ، واحتج رجال الدين بيد أنهم سلموا دخل نصف عام من كل الصدقات . وعندما وصلت الأنباء بأن جيش شارل قد تغلب على الفرنسيين فى بافيا (١٥٢٥) وأخذ فرانسيس أسيراً . رأى هنرى وولزى أن من الحكمة أن يسهما فى تقطيع أوصال فرنسا الذى يوشك أن يحدث . ووضعت خطة للقيام بغزو جديد واقتضى الأمر تدبير المزيد من الأموال وخاطر ولزى بآخر ما تبقى له من شعبية ، بأن طلب من كل الإنجليز الذين يتجاوز دخلهم ٥٠ جنيهاً (٥٠٠ دولار ؟) أن يسهموا بسدس أموالهم فى « هبة ودية » ، لمتابعة الحيز والوصول بها إلى غاية مجيدة ، « ودعونا نتبرع ودياً حتى نمنح شارل من ابتلاع فرنسا بأسرها » .

وقوبل الطلب بمقاومة انتشرت على نطاق واسع اضطر ولزى إلى أن يتحول إلى وضع برنامج للسلام . ووقعت معاهدة للتبادل مع فرنسا كمحاولة أخرى لاستعادة توازن القوى . . ولكن جنود الإمبراطور استولوا عام ١٥٢٧ على روما وأسروا البابا وبدأ أن شارل

قد أصبح وقتذاك سيد القارة الذى لا يقهر ، وقضى على سياسة وازى القائمة على الصد والتوازن . وانضمت إنجلترا إلى فرنسا عام ١٥٢٨ فى الحرب ضد شارل .

وكان شارل ابن أخى كاثارين الأراجونية التى كان هنرى شديد الرغبة فى الطلاق منها ، وكان كليمنت السابع ، الذى يستطيع أن يمنحه لأسباب تتعلق بمصلحة الدولة ، أسيرا لشارل بشخصه وسياسته .

٤ - طلاق الملك

جاءت كاثارين الأراجونية ، ابنة فرديناند وإيزابلا إلى إنجلترا عام ١٥٠١ ، وكانت فى السادسة عشرة من عمرها وتزوجت (١٤ نوفمبر) من آرثر البالغ من العمر خمسة عشر عاما ، وهو أكبر أبناء هنرى السابع . ومات آرثر فى اليوم الثانى من إبريل عام ١٥٠٢ وكان المقروض بوجه عام أن الزوج قد دخل بزواجه . ومن ثم أرسل السفير الأسباني قياما بالواجب « أدلة » إلى فرديناند ولم ينتقل لقب آرثر ، أمير ويلز رسميا إلى شقيقه الأصغر هنرى إلا بعد مرور شهرين على وفاة آرثر (٤٩). ولكن كاثارين أنكرت أن زوجها دخل بها . وقد أحضرت معها صداقا قدره ٢٠٠.٠٠٠ دوكات (٢٠٠.٠٠٠ دولار ؟) وكره هنرى السابع أن يدع كاثارين تعود إلى إسبانيا ومعها هذه الدوكات ، وتهدف على أن يجدد مصاهرتة لفرديناند القسوى فاقترح أن تزوج كاثارين من الأمير هنرى على الرغم من أنها كانت تكبر الصبي بست سنوات . وكانت هناك آية فى الكتاب المقدس (سفر اللاويين اصحاح ٢٠ : آية ٢١) تحرم هذا الزواج :

« وإذا أخذ رجل امرأة أخيه فذلك نجاسة . . . يكونان عقيمين » ومهما يكن من أمر فإن هناك آية أخرى تنص على خلاف ذلك : « إذا سكن إخوة معاً ومات واحد منهم وليس له ابن أخو زوجها يدخل عليها ويتخذها لنفسه زوجة » . (سفر التثنية : اصحاح ٢٥ آية ٥) . واستنكر كبير الأساقفة وارهام الزواج المقترح ودافع عنه الأسقف فوكش الونشستري إذا أمكن الحصول على محلل من البابا للمانع من المصاهرة . وطلب هنري السابع الحصول على المحلل . فنحه له البابا يوليوس (١٥٠٣) . وجادل بعض خبراء القانون الكنسي في حق البابا في التحلل من مبدأ نص عليه الكتاب المقدس^(٥٠) وأكد البعض حقه في هذا ، أما يوليوس نفسه فقد راودته بعض الشكوك^(٥١) . وأعلنت رسمياً الخطبة ، وهى في الواقع زواج شرعى — عام ١٥٠٣ ، ولما كان العريس لا يزال في الثانية عشرة من عمره فحسب فقد أجلت المعاشرة . وفي عام ١٥٠٥ طلب الأمير هنري إعلان بطلان الزواج ، لأن أباه أكرهه^(٥٢) عليه ولكنه أقنع بصحة الزواج على أساس أنه في مصلحة إنجلترا .

وفي عام ١٥٠٩ ، وبعد ستة أسابيع من ارتقائه العرش احتفل علنا بالزواج . وبعد سبعة شهور (٣١ يناير سنة ١٥١٠) أنجبت كاترين أول طفل لها ، وقد مات عند الولادة . وأنجبت بعد ذلك بعام ابناً وابتهج هنري بولادة وريث ذكر يصل به سلسلة نسب تيودور ، ولكن الطفل مات بعد بضعة أسابيع وسقط ابن ثان وثالث بعد الولادة مباشرة (١٥١٣ و ١٥١٤) . وبدأ هنري يفكر في الطلاق . أو بعبارة أدق في إعلان بطلان الزواج باعتباره غير صحيح . وحاولت كاترين المسكينة مرة أخرى وفي عام ١٥١٦ أنجبت طفلة قدر لها أن تكون المالكة مارى . وأذعن هنري وقال لنفسه : « إذا كانت هذه المرة ابنة فإن الأبناء سوف يجيئون بعدها^(٥٣) »

بفضل الله ومنه . وفي عام ١٥١٨ أنجبت كاترين ابنا آخر ولد ميتا . واشتدت خيبة أمل الملك والبلاد لأن ماري البالغة من العمر عامين ، كانت قد خطبت إلى ولي عهد فرنسا ، وإذا لم يرزق هنري بولد فلن ماري سوف ترث العرش الإنجليزي ، وعند ما يصبح زوجها ملكا على فرنسا فإنه سيكون في الواقع ملكا على إنجلترا أيضا ، وتصبح بريطانيا مقاطعة تابعة لفرنسا ، وكان دوقات نورفولك وبكنجهام تداعبهم الآمال في أن يزيحوا ماري ويضمموا التاج لأنفسهم ، وأطلق بكنجهام لسانه فاتهم بخيانة البلاد وقطع رأسه (١٥٢١) ، وعبر هنري عن خوفه من أن يكون حرمانه من الإنجاب ولد عقابا من الله لأنه استخدم محللا بابويا^(٥٤) من وصية واردة في الكتاب المقدس . وأقسم ليقودن حملة صليبية ضد الأتراك إذا أنجبت له الملكة ولدا . غير أن كاترين لم تحمل بعد ذلك . وما أن حل عام ١٥٢٥ حتى تخلّى عن كل أمل في الحصول على ذرية أخرى منها .

وكان هنري منذ أمد بعيد قد فقد الميل إليها باعتبارها أنثى . وكان وقتذاك في الرابعة والثلاثين ، أى في عنفوان الرجولة الفتية ، وكانت في الأربعين وتبدو أكبر من سنّها . ولم تكن قط مغربة ، وألحق أن مرضها المتكرر ، أو ما صادفها من سوء الحظ ، قد شوه جسدها وأضفى على روحها قتامة . وكانت تبرز اللساء بثقاتها ودمائتها ولكن الأزواج قلما يرون أن التضلع في العلم خلة محدودة في الزوجة . وكانت زوجة صالحة مخلصمة ، تحب زوجها حبا لا يفوقه إلا حبا لإسبانيا : وكانت ترى نفسها باعتبارها — وكانت كذلك لفترة ما — سفيرة لإسبانيا وكانت ترى أن إنجلترا يجب أن تقف دائما في صف فرديناند أو شارل ؛ وفي حوالى عام ١٥١٨ اتخذ هنري أول حظية له عرفها بعد الزواج وهى اليزابيث بلاوتد شقيقة مونتهجوى صديق ارازموس ؛ وأنجبت له ابنا عام ١٥١٩ وأنعم هنري على الصبي بلقب

دوق رتشموند وسومرست ، وفكر فى أن يقف وراثة العرش عليه .
وفى عام ١٥٢٤ اتخذ حظية أخرى ، هى مارى بولين^(٥٥) ، والحق أن
سير جورج ثروكمورتون اتهمه فى وجهه بالزنا مع أم مارى أيضا^(٥٦) .
وكان هناك قانون غير مكتوب فى ذلك العهد ينص على أن الملك إذا
ما تزوج لأسباب تنعاق بمصاحبة الدولة ولم يكن ذلك باختياره ، فإن له
الحق فى أن ينشد خراج الزواج الغرام الذى فقدته فى الخدع الشرعى .

وفى عام ١٥٢٧ أوقاه حول هنرى فنته إلى آن شقيقة مارى . وكان
والدهما سير توماس بواين ، تاجرا دباوماسيا حظى منذ وقت طويل بحطف
الملك ، أما أمهما فكانت من آل هوارد ، وهى ابنة الدوق نورفولك .
وأرسلت آن إلى باريس لإتمام دراستها فيها ، وهناك عيانت وصيفة للملكة
كلود ثم لمرجريت دى نافار ، وأعلمها تشربت منها بعض النوازع البروتستانتية .
وكان فى وسع هنرى أن يراها فتاة طروبيا فى الثالثة عشرة من عمرها فى
ميدان كاوث أف جولد ، وعندما عادت إلى إنجلترا وهى فى الخامسة عشرة
من عمرها (١٥٢٢) أصبحت وصيفة للملكة كاترين . ولم تكن رائعة
الجمال ، وكانت قصيرة القامة لها بشرة فاتمة وفم واسع ورقبة طويلة ،
ولكنها خلبت لب هنرى وآخرين غيره بعينها السوداوين البراقطين وشعرها
البنى المسترسل ورشاقتها وذكائها ومرحها . وكان لها بعض العشاق الموهين
بها ، ومنهم توماس ويات الشاعر ، وهنرى برسى ، الذى أصبح فيما بعد
إيرل نورثمبرلاند ، واتهمها أعداؤها فيما بعد بأنها كانت متزوجة فى
السرى من برسى قبل أن تضع أنظارها على الملك ، إلا أن الدليل لم يكن
قاطعا^(٥٧) . ولا نعرف متى بدأ هنرى يطارحها الغرام وأقدم رسائل الحب
الباقية التى كتبها لها ترجع فيما يرجح إلى يولية عام ١٥٢٧ .

ما هى العلاقة بين هذه القصة الغرامية والتماس هنرى الحكم ببطلان

زواجه ؟ مما لا جدال فيه أنه قد فكر في هذا الأمر في وقت يرجع إلى عام ١٥١٤ عندما كانت آن فتاة في السابعة من عمرها . ويبدو أنه طرح الفكرة جانبا حتى عام ١٥٢٤ ، عندما كف عن مباشرة علاقته الزوجية مع كاترين ، وفقا لروايته (٥٨) . وأقدم إجراءات سجلت ببطلان الزواج اتخذت في مارس عام ١٥٢٧ ، بعد تعرف هنرى بآن بوقت طويل ، وفي الوقت الذى حلت فيه محل شقيقته في أحضان الملك . والظاهر أن ولزى كان لا يعلم شيئاً عن أى نية للملك في الزواج من آن عندما ذهب في يوليو عام ١٥٢٧ إلى فرنسا لإعداد العدة للزواج بين هنرى ورينيه ، ابنة لويس الثانى عشر التى سرعان ما أثارت حركة بروتستانتية في إيطاليا . وأول إشارة لما انتواه هنرى وردت في خطاب أرسله يوم ١٦ أغسطس سنة ١٥٢٧ السفير الإسباني إلى شارل الخامس يبلغه فيه أن هناك اعتقادا عاما في لندن بأن الملك إذا حصل على « طلاق » فإنه سوف يتزوج « ابنة سير توماس بولين (٥٩) » ولم يكن هذا يعنى ماري بولين لأن هنرى وآن كانا يعيشان في شقتين متجاورتين تحت نفس السقف في جرينوتش (٦٠) عند حلول نهاية عام ١٥٢٧ . وقد نستنتج من هذا أن هنرى سارع بطلب بطلان الزواج على الرغم من أنه يصعب أن يقال إن السبب في ذلك هو افتتاحه بآن . وكان السبب الأساسى رغبته في الحصول على ولد يمكن أن ينقل إليه العرش مع شىء من الثقة في خلافة هادئة . وكانت إنجلترا بأسرها تشاطره ذلك الأمل . وتذكر الناس في فزع السنوات العديدة (١٤٥٤ — ٨٥) التى نشبت فيها الحرب بين بيتى يورك ولانكاستر على التاج ، ولم يكن قد مضى على ظهور أسرة تيودور غير اثنين وأربعين عاما في سنة ١٥٢٧ ، وكان حقها في العرش مشكوكا فيه ، ولم يكن في وسع أحد أن يصل حبل الأسرة الحاكمة دون منازع إلا ولد شرعى ينحدر مباشرة من صلب الملك ، ولو لم يلتق هنرى قط بآن بولين فإنه كان قبيحاً

بأن يرغب في الحصول على طلاق وزوجة ولود بصورة مقبولة ؛ ولا شك أنه يستحق هذا .

واتفق ولزى مع الملك في هذا الموضوع وأكد له أنه يمكن الحصول على قرار من البابا ببطلاق الزواج ، وكانت سلطة البابا في منح مثل هذا الانفصال أمر مقبول بوجه عام ، كإجراء حكيم لقلبية مثل هذه الضرورات الوطنية تماما ، ويمكن تقديم سوابق كثيرة . بيد أن تقدير الكاردينال المشغول لم يعمل حسابا لتطورين بغضيين : فهنرى لم يكن يريد ريليه بل كان يريد آن ، وبطلاق الزواج سوف يصدر من بابا ، كان عند ما وصلته المشكلة ، أسيراً للإمبراطور ، كان لديه أكثر من سبب لمناسبة هنرى العدا . وربما كان شارل حرياً بأن يعارض بطلاق هذا الزواج ما دامت عمته تقاومه ، وكان يعارض أكثر لو عقد زواج جديد ، كما دبر ولزى ، بربط إنجلترا بحلف قوى مع فرنسا . ولم يكن السبب الأول للإصلاح الدينى الإنجليزى هو جمال آن بولين الصاعد ، بل الرفض العنيد الذى بدا من كاترين وشارل فى إدراك عدالة رغبة هنرى فى الحصول على ولد . واشتركت الملكة الكاثوليكية مع الإمبراطور الكاثوليكي والبابا الأسير فى انفصال إنجلترا عن الكنيسة . ولكن السبب النهائى للإصلاح الدينى الإنجليزى لم يكن طلب هنرى بطلاق الزواج بقدر ما كان من ارتفاع شأن الملكية الإنجليزية وبلوغها درجة من القوة جعلتها قادرة على أن ترفض التسليم بسلطة البابا فى التدخل فى شئون إنجلترا ، وتحكمه فى مواردها .

وأكد هنرى أن رغبته العارمة فى الحصول على بطلاق الزواج إنما دعا إليها جبريل دى جرامون الذى أقبل إلى إنجلترا فى فبراير عام ١٥٢٧ لمناقشة الزواج المقترح بين الأميرة مارى والأسرة الملكية الفرنسية . فقد أثار جرامون ، كما يروى هنرى ، سؤالاً عن شرعية بنوة مارى ،

على أساس أن زواج هنرى بكاترين قد يكون غير صحيح باعتباره مخالفة لأحد نواهي الكتاب المقدس ولا يستطيع البابا أن يمحوها . وظن البعض أن هنرى لفق القصة (٦١) ، ولكن ولزى ردها وأبلغت إلى الحكومة الفرنسية (٥٢٨) ، ولم ينكرها ، بقدر ما هو معروف جرامون ، وجاهد جرامون لإقناع كليمنت بأن طلب هنرى بطلان الزواج أمر عادل ، وأبلغ شارل سفيره في إنجلترا (٢٩ يوليو سنة ١٥٢٧) أنه كان ينصح كليمنت برفض التماس هنرى .

وبينما كان ولزى في فرنسا أبلغ على وجه التحديد بأن هنرى لا يرغب في الزواج من رينيه بل يريد الزواج من آن . واستمر يعمل للحصول على البطلان ، ولكنه لم يخف اكتسابه بسبب اختيار هنرى ، وتجاوز الملك حاجبه في خريف عام ١٥٢٧ ، وبعث بكاتم سره وليام نايت لتقديم ملتمس إلى البابا الأسير ، الأول يتضمن أن كليمنت ، إذ يعرف على صحة زواج هنرى الذى تكتنفه الشكوك وافتيقاره إلى ذرية من الذكور وكرامية كاترين للطلاق ، يجب أن يسمح لهنرى بالاحتفاظ بزوجتين . وأمر الملك أمراً في آخر لحظة أنى نايت عن تقديم هذا الاقتراح ، وكانت جراءة هنرى قد نحدت ولا بد أنه ذهل ، عند ما تلقى ، بعد ثلاث سنوات ، خطاباً من جيوفانى كاسالى أحد وكلائه في روما ، مؤرخاً في ١٨ سبتمبر سنة ١٥٣٠ يقول فيه : « منذ بضعة أيام اقترح على البابا سرّاً أن يأذن لجلالته بالتخاذ زوجتين (٦٢) » . وكان ملتمس هنرى الثانى لا يقل غرابة ، على البابا أن يمنحه محلاً للزواج من امرأة كان للملك علاقات جنسية مع ختها (٦٣) . ووافق البابا على هذا بشرط أن يعلن بطلان الزواج بكاترين إلا أنه لم يكن على استعداد لإعلان بطلان هذا الزواج . وكان كليمنت لا . شى شارل فحسب بل كان ينفر من القاعدة التى تقضى بأن أحد

للبابوات السابقين قد ارتكب خطأ جسيماً بإعلان صحة الزواج . وتلقى في نهاية عام ١٥٢٧ ملتصاً ثالثاً — بأنه يجب أن يعين ولزى قاصداً رسولياً آخر لعقد محكمة في إنجلترا تسمع الدليل وتحكم بصحة زواج هنرى بكاترين . وأذن كليمنت (١٣ أبريل سنة ١٥٢٨) ، وعين الكاردينال كامبيجيو لعقد جلسة مع ولزى في لندن وواعد — في منشور بابوى لا يطلع عليه سوى ولزى وهنرى — أن يؤيد أى قرار يتخذه المندوبان البابويان (٦٤) . وربما كان لانضمام هنرى إلى فرانسيس (يناير سنة ١٥٢٨) في إعلان الحرب على شارل وتعهدهما بتحرير البابا قد أثر في إذعان البابا .

واحتج شارل وأرسل إلى كليمنت نسخة من وثيقة ادعى أنها وجدت في المحفوظات الإسبانية ، وفيها أكد يوليوس الثانى صحة المخلل الذى اقترح هنرى وولزى بطلانه . وتعجل البابا ، وهو لا يدرى ما يفعل ولا يزال أسيراً لشارل ، فأرسل تعليمات إلى كامبيجيو ألا ينطق بحكم قبل أن يحصل على تفويض صريح من الآن فصاعداً . . . فإذا ألحق بالإمبراطور ضرر كبير ، فإن كل أمل في السلام العالمى يكون قد تبدد ولا تستطيع الكنيسة أن تنجو من الخراب التام لأنها تخضع خضوعاً كاملاً لسلطان أتباع الإمبراطور . . أجل بقدر الإمكان (٦٥) .

وعند وصول كامبيجيو إلى إنجلترا (أكتوبر سنة ١٥٢٨) حاول أن يحصل على موافقة كاترين بالاعتزال في دير للراهبات ، فوافقت بشرط أن يحلف هنرى أيمان الرهبان . ولكن لم تكن هناك أمور أبعد عن ذهن هنرى من الفقر والخضوع والعفة ، ومهما يكن من أمر فإنه اقترح أن يحلف هذه الأيمان إذا وعد البابا يحله منها عند الطلب ورفض كامبيجيو أن ينقل هذا الاقتراح إلى البابا وأبلغه بدلاً من ذلك (فبراير سنة ١٥٢٩) بعزم الملك على الزواج من آن . وكتب يقول : « إن هذه العاطفة أمر خارق للعادة أنه لا يرى شيئاً ولا يفكر في شيء سوى حبيبته آن ، إنه

لا يستطيع أن يستغنى عنها ساعة واحدة . وإني لأشعر بالإشفاق عليه عندما أرى أن حياة الملك واستقرار وسموطة البلاد بأسرها تتوقف على هذه المسألة وحدها (٦٦) .

وحدثت تغيرات في الموقف الحربى جعلت البابا يتحول أكثر فأكثر ضد اقتراح هنرى . وفشل الجيش الفرنسى ، الذى كان هنرى قد ساعده بتمويله ، فى خملته الإيطالية ، وترك البابا فى حالة اعتماد كلى على الإمبراطور . وطردت فلورنسا حكامها من آل مديتشى — وكان كليمنت مخلصا لتلك العائلة مثله فى ذلك مثل شارل الذى كان مخلصا لآل هابسبورج .

وانتهزت (فينيسيا) البندقية فرصة عجز البابا لكى تنتزع رافنا من الولايات البابوية ، فمن كان وقتذاك يستطيع أن ينقذ البابوية سوى أسرها ؟ وقال كليمنت لقد استقر رأيي تماما على أن أصبح من أنصار النظام الإمبراطورى ، وسوف أعيش وأموت وأنا متمسك بهذا الرأي (٦٧) . ووقع فى التاسع والعشرين من يونيه معاهدة برشلونه ، وبمقتضاها وعد شارل بإعادة فلورنسا لآل مديتشى ورافنا للبابوية والحرية لكليمنت ، ولكن على شريطة ألا يوافق كليمنت مطلقا على بطلان زواج كاترين إلا برضا كاترين وإرادتها الحرة .

ووقع فرانسيس الأول فى الخامس من أغسطس معاهدة كامبراي التى سلمت فى الواقع إيطاليا والبابا للإمبراطور .

وفى ٣١ مايو افتتح كامبيجيومع ولزى المحكمة المختصة بالمقاصد الرسولى للنظر فى الالتماس المقدم من هنرى ، بعد أن أجل افتتاحها لأطول مدة ممكنة . واستغاثت كاترين بروما ، وأبت أن تعترف باختصاص المحكمة . ومهما يكن من أمر فإن كلا من الملك والمملكة حضرا يوم ٣١ يونيه .

وخرت كاترين على ركبتيها أمامه وتوسلت إليه بكلمات مؤثرة أن يستأنف حياته الزوجية . وذكرته بأعمالها الكثيرة وإخلاصها التام ، وصبرها على لهوه خارج الأسوار ، وأقسمت أن الله يشهد على أنها كانت عذراء عندما تزوجها هنرى ، ونسألت أى شيء صنعت له أساءت به إليه (٦٨) ؟ فأنهضها هنرى وأكد لها أنه لم يكن هناك ما يتمناه بحماسة أكثر من التوفيق فى زواجهما وأوضح لها أن الأسباب التى حملته على طلب الانفصال ليست شخصية، بل أملت على مصلحة الأسرة المالكة والأمة . ورفض استغاثتها بروما على أساس أن الإمبراطور يسيطر على البابا ، فانسحبت وهى تبكى ، ورفضت أن تشترك بعد ذلك فى الإجراءات القضائية . وتكلم الأسقف فيشر مدافعا عنها ومن ثم اكتسب عداوة الملك . وطالب هنرى بصدور قرار واضح من المحكمة وتحاييل كامبيجيو على الماطلة فى إصدار الحكم وأخيراً (٢٣ يولييه سنة ١٥٢٩) أجل المحكمة إلى العطلة الصيفية . وألغى كليمنت القضية وحولها إلى روما لكى يجعل التردد أشد حسما .

واستشاط هنرى غضبا وشعر بأن كاترين عنيدة بصورة غير معقولة ، فرفض أن تربطه بها أية علاقة بعد ذلك ، وأخذ يقضى ساعات لهوه علنا مع آن . وربما ترجع إلى هذه الفترة معظم رسائل الحب السبع عشرة التى نقلها كامبيجيو سرا من إنجلترا (٦٩) والتى تحتفظ بها مكتبة الفاتيكان . ذخائرها الأدبية . ويبدو أن آن المحبوبة التى خبرت أساليب معاملة الرجال والملوك لم تمنحه إلا تشجيعاً ودغدغة تثير عواطفه ، وشكت وقتذاك من أن شبابها يضيع فى الوقت الذى يتوفى فيه الكرادلة الذين لم يستطيعوا أن يدركوا رغبة عذراء فى الظفر برجل ميسور من عترة بحق هنرى فى أن يتوج الرغبة برباط الزواج . ولامت ولزى لأنه لم يتعجل البت فى طلب هنرى بعزم أشد وبلاغ أسرع ، وشاركها الملك استيائها .

وقد بذل ولزى كل ما فى وسعه وإن كان يعارض الأمر بكل جوارحه .
وكان قد أرسل بالمال إلى روما لرشوة الكرادلة (٧٠) ولكن شارل كان قد
أرسل بدوره مالا وجيشا علاوة على هذا . بل إن الكاردينال كان قد
أغضى عن فكرة الزواج من اثنتين (٧١) كما فعل لوثر بعد بضع سنوات ،
ومع ذلك عرف ولزى أن آن وأقرباءها من ذوى النفوذ يقومون بمناورة
لإسقاطه . وحاول أن يهدئ من ثائرتها بالأطعمة اللذيذة والهدايا الثمينة ،
غير أن عداها كان يزداد كلما طال العهد على إصدار قرار ببطلان
الزواج . وتحدث عنها فقال : « إنها العدو الذى لم تكتحل أعيناه قط بالنوم ،
ولم يكف عن الدرس والتصور معا ، فى النوم واليقظة على السواء ،
للقضاء المبرم عليه (٧٢) » . وتلبأ بأن البطلان لو منح فإن آن سوف تصبح
ملكة وتقضى عليه ، وأنه لو لم يمنح ذلك القرار فلإن هنرى سوف
يستغنى عنه باعتباره رجلا فاشلا . ويطلب محاسبته على إدارته ، حسابا
ماليا دقيقا مفصلا .

وكان لدى الملك أسباب كثيرة لعدم الرضا عن حاجبه ، فقد فشلت
السياسة الخارجية وأثبت أن التحول من صداقة شارل إلى الحلف مع فرنسا
قد أدى إلى عواقب وخيمة :

ولم يكن فى إنجلترا وقتذاك أمروا يقول كلمة طيبة فى صالح الكاردينال
الذى تمتع يوما بسلطة مطلقة ، فقد كان رجال الدين يكرهونه بسبب
حكمه المطلق ، وكان الرهبان يخشون أن يشهدوا مزيدا من حل
الأديار ، والعامية يبغضونه لأنه أخذ أبناءهم وأهوالهم لشن حروب لا طائل
من ورائها ، والتجار يمتقونهم لأن الحرب مع شارل عاقت تجارتهم مع
الفلاندرز ، والأشراف يكرهونه بسبب ما انتزعهم منهم ظلما ، ولكبريائه

الطارئة و ثروته التي تضاعفت سريعاً . وأبلغ بعض الأشراف السفير الفرنسي (١٧ أكتوبر سنة ١٥٢٥) بقولهم إنهم « ينوون » عندما يموت ولزى أو يقضى عليه أن يتخضصوا من الكنيسة ويتلقوا أموال الكنيسة وولزى معاً (٧٣) : واقترح القماشون في كنت أن يوضع الكاردينال في قارب يتسرب منه الماء ، ويترك لتتقاذفه الأمواج في البحر (٧٤).

وكان هنرى أشد دهاء . وفي اليوم التاسع من أكتوبر سنة ١٥٢٩ أصدر أحد وكلائه أمراً قضائياً باستدعاء ولزى للمثول أمام قضاة الملك ، للرد على اتهم بأن أعماله كقاصد رسولى قد خالفت قانون الخضوع لسلطة التاج (١٣٩٢) ، الذى يقضى بمصادرة أموال أى إنجليزى يأتى بالكتب البابوية إلى إنجلترا . ولم يختلف الموقف لأن ولزى كان قد كفل سلطة القاصد الرسولى بناء على طلب الملك (٧٥) ، وأنه استخدمها بخاصة لصالح الملك . وأدرك ولزى أن قضاة الملك سوف يدينونه فأرسل إلى هنرى امثالاً ذليلاً ، يعترف بفشله ويلتمس أن يتذكر الملك أيضاً خدماته وآيات ولائه . ثم غادر لندن في نقالة مائية سارت في نهر التيمس . وتلقى في بوتنى رسالة رقيقة من الملك . وجثا على الطين في شكر بائس وحمد الله . واستولى هنرى على المحتويات الثمينة في قصر الكاردينال في هويت هول إلا أنه سمح له بالاحتفاظ بمنصب رئيس أساقفة يورك وبأموال شخصية تكفى احتياجات ١٦٠ جوادا تاجر ٧٢ عربة إلى مقره الأسقفى (٧٦). وخلف الدوق نورفولك ولزى في رئاسة الوزارة وخلفه مور في منصب الحاجب (نوفمبر سنة ١٥٢٩) .

وأقبل الكاردينال الذى تبرد من سلطانه ، على عمله ، كبير أساقفة ، في ورع ومثالية ، وأخذ يزور أبرشيائه بانتظام ويدبر ترميم الكنائس ،

ويعمل قاضيا موثوقا به للتحكيم . وتساءل رجل من يوركشاير : « من كان أقل نصيبا من الحب في الشمال من مولاي الكاردينال قبل أن يعيش بينهم ؟ ومن كان محبوبا أكثر بعد أن عاش هناك فترة ما (٧٧) ؟ » بيد أن الطموح استيقظ في أعماقه مرة أخرى وسبكن روحه من الموت وكتب خطابات ليوستاس شابويس سفير الإمبراطور في إنجلترا ، وضاعت هذه الخطابات ، بيد أن هناك تقريراً من شابويس إلى شارل ورد فيه : « لدى خطاب من طبيب الكاردينال يقول إن سيده . . رأى أن على البابا أن يعضى قدما في إجراءات لوم أشد ويستدعى الجيش العلماني (٧٨) » . أى الحرمان من غفران الكنيسة والغزو والحرب الأهلية :

وعلم نورفولك بهذه الرسائل المتبادلة وقبض على طبيب ولزى وانزع منه ، بوسائل لم تعرف على وجه التحقيق ، اعترافا بأن الكاردينال قد أشار على البابا بحرمان الملك من غفران الكنيسة . ولا نعرف هل كان السفير أو الدوق هو الذى أبلغ صدقا عن الطبيب ، أو هل كان الطبيب هو الذى أبلغ حقا عن الكاردينال ، وعلى أية حال فإن هنرى أو الدوق أمر بالقبض على ولزى .

واستسلم في هدوء (٤ نوفمبر سنة ١٥٣٠) وودع أسرته وانطلق إلى لندن . وأصيب في شفيلد برك بدوسنطاريا شديدة ألزمته الفراش . وهناك أقبل جنود الملك يحملون أوامر باقتياده إلى البرج . واستأنف رحلته ، ولكن بعد مضي يومين من الركوب بلغ من الضعف حدا جعل حارسه يسمح له بأن يلزم الفراش في دير ليسبيستر . وغغم أمام ضابط الملك سير وليام كنجستون بالكلمات التى نقلها كافنديش واقتبسها شكسبير « لو أننى خدمت الله بإخلاص وجد كما خدمت الملك لما أسلمنى في شيخوختى (٧٩) » . ومات ولزى بالغا من العمر خمسة وخمسين عاما في دير ليسبيستر يوم ٢٩ نوفمبر سنة ١٥٣٠ .

(٧ - ج ٤ . مجلد -)

الفصل الرابع والعشرون

هنرى الثامن وتوماس مور

١٥٢٩ - ٣٥

١ - برلمان الإصلاح الدينى

فى المجلس النبائى الذى اجتمع فى وستمنستر يوم ٣ نوفمبر سنة ١٥٢٩ اتفقت الجماعتان الحاكمتان - النبلاء فى المجلس ، والتجار فى مجلس العموم على انتاج ثلاثة ضروب من السياسة : تخفيض ثروة رجال الكنيسة وإضعاف سلطانهم ، والمحافظة على التجارة مع الفلاندرز وتأييد الملك فى حملته للحصول على وريث ذكر . ولم ينطو هذا الاتفاق على الرضا عن آن بولين التى كانت تواجه باستنكار عام باعتبارها مغامرة ، كما أنه لم يمنع وجود تعاطف عام مع كاترين^(١) . أما الطبقات الدنيا ، وهى عاجزة من الناحية السياسية ، فكانت حتى ذلك الوقت لا توافق على الطلاق ، ووقفت المقاطعات الشمالية ، وهى كاثوليكية شديدة التحمس ، مع البابا^(٢) فى إخلاص . وعمل هنرى على تهدئة هذه المعارضة مؤقتا بأن ظل محاظفا فى كل شىء اللهم إلا حق البابوات فى الهيمنة على الكنيسة الإنجليزية .

وكانت الروح القومية ، وهى فى إنجلترا أقوى منها فى ألمانيا ، تقف فى تلك المسألة إلى جانب الملك ، وعلى الرغم من فزع رجال الدين من تصور أن يكون هنرى سيداً لهم فلم ينفروا من الاستقلال عن بابوية لا شبهة فى خضوعها لسلطة أجنبية .

ونشر سيمون فوش حوالى عام ١٥١٨ كتيباً من ست صفحات ، قرأه هنرى ، دون أن يبدى احتجاجاً فيما نعلم ، وقرأه كثيرون باهتمام

صادق . وأطلق عليه اسم « ابتهاج الشحاظين » وطالب الملك بمصادرة ثروة الكنيسة الإنجليزية كلها أو بجانب منها :

« في العهود الخوالي لأسلافك النبلاء (هناك) تسلب في دهاء إلى مملكتهك . . شحاظون وأفاقون مقدسون ومتبطلون . . أساقفة وروساء أديار وشماسة وروساء شماسية ومعاونو أساقفة وقساوسة ورهبان ورجال دين وكهنة رهبان وبائعو صكوك غفران ومحضرون . ومن يستطيع أن يحصى هذا الضرب المتبطل المخرب الذي (طرح كل عمل جانباً) ألح في السؤال إلحاحاً شديداً إلى حد أنهم حصلوا في أيديهم على أكثر من ثلث مملكتهك بأسرها ؟ إن أعظم المقاطعات وأجمل الدور والأراضي والأقاليم ملك لهم . وكان لهم إلى جانب هذا عشر محصول الغلة والمراعى والمروج والكلاء والبصوف والمهور والعجول والحملان والخنازير والأوز والدجاج . . . أي نعم وإنهم ليتطاعون في حرص شديد إلى أربابهم إلى حد أن الزوجات المسيكنات لا بد وأن يكن مطالبات بأن يحسبن عشر كل بيضة وإلا فإن الزوجة لن تحصل على حقوقها في عيد الفصح . . . ومن التي تشرع في العمل مقابل ثلاثة بنسات في اليوم إذا كان في وسعها أن تحصل على عشرين بنسا على الأقل في اليوم لقاء نوميها ساعة مع أخ أو راهب أو قس (٣) ؟

ولعل النبلاء والتجار قد رأوا أن هناك شيئاً من المبالغة في هذا الاتهام ، بيد أنهم اعتقدوا أنه يؤدي إلى نتيجة سارة — وهي إضفاء الصبغة العلمانية على أملاك الكنيسة ، وكتب السفير الفرنسي جان دي بلای « إن هؤلاء السادة يلتون ، ، ، اتهام الكنيسة والتهام كل أموالها ، ولا أكاد أجد نفعى في حاجة إلى تسجيل هذا بالشفرة ، لأنهم يجهرون به صراحة ، وأنوقع ألا يحصل القساوسة أبداً على خاتم الدولة — أي لن يكونوا على رأس الحكومة أبداً ، مرة أخرى ، وأنهم سوف يتعرضون في هذا المجلس

النيابى لمفازع هائلة^(٥) . وكان ولزى قد منع هذا الهجوم على أملاك الكنيسة ، بيد أن سقوطه ترك رجال الدين بلا حول لهم ولا طول ، اللهم إلا ما يتمتعون به من إيمان الناس ، وهو إيمان كان آخذاً في التقلص ، ولعل السلطة البابوية التى كانت قديمة بأن تحميم هيبته أو تحريمها أو بحلفائها كانت وقتذاك المهدف الرئيسى لسخط الملك وكرة القدم التى تنقاذها السياسة الإمبراطورية ، وكان العرف يقتضى موافقة المجمع الاكليروسى لرؤساء أساقفة كنتربرى ويورك على كل تشريع يحس الكنيسة إنجلترا أو تأييده . فهل كان فى وسع هذا المجمع تخفيف سورة غضب الملك وكبح جماح الحركة المناهضة لرجال الدين فى المجلس النيابى ؟

وافتح المعركة مجلس العموم . إذ وجه خطاباً إلى الملك يقر فيه عقيدة المحافظين ، وإن انتقد رجال الدين بشدة . وهاجم « قرار الاتهام » المشهور المجمع الاكليروسى واتهمه بأنه سن القوانين ، دون الحصول على موافقة الملك أو المجلس النيابى ، التى تحدد حرية العلمانيين تحديداً خطيراً ، وتعرضهم لتعزير شديد ، وغرامات باهظة ، واتهم رجال الاكليروس بأنهم أعطوا صدقات لـ « جموع من الأحداث » ، قالوا إنهم أبناء إخوتهم » على الرغم مما يتمتع به مثل هؤلاء المستفيدين من شباب أو جهل ، واتهم المحاكم الأسقفية بأنها استغلت فى جشع حقها فى فرض رسوم وغرامات ، وهذه المحاكم بأنها قبضت على أشخاص وسجنتهم دون أن تبين التهم الموجهة إليهم ، وأنها اتهمت العلمانيين وعاقبتهم عقاباً شديداً لشبهة هرطقة طفيفة واختتمت الوثيقة بمطالبة الملك بإصلاح هذه العلل^(٥) ، ولا شك فى أن هنرى الذى كان على علم بأسرار تأليف هذا الخطاب قدم نقاطه الرئيسية إلى المجمع الاكليروسى وطلب منه الرد .

وأقر الأساقفة وجود بعض الظلم وعزوا هذا إلى أفراد ظهوروا اتفاقاً ،
وأكدوا تمسك محاكمهم بالعدالة ، وأنهم يتأسون بالملك الورع الذى زجر
لوثر فى نبل عظيم ، لمساعدتهم على قمع الهرطقة ، ثم أخطأوا خطأ فظيماً
وأساءوا فهم المزاج الملكى فأضافوا كلمات كانت بمثابة إعلان للحرب .

ما دمنا نعلن ونتمسك بسيادتنا فى سن القوانين التى تستند إلى ما فى كتب
الله المقدسة وما قررته الكنيسة المقدسة . . . فليس لنا أن نتخلى عن أعبائنا
وواجباتنا ، ، التى أمرنا بها الله على وجه التأكيد وتركها لرضاك السامى ،
ومن ثم نلتمس من مراحمك بكل خضوع . . . أن تحافظوا على هذه القوانين
والشرائع وأن تدافعوا عنها مثلنا . . . وأن يعمل بتفويض من الرب لإجل
له تعالى على دعم الفضيلة والحفاظ على عقيدة المسيح (٦) »

وعلق موضوع النزاع . ولم يواجهه هنرى فى الحال . وكان أول ما اهتم
به هو الحصول على موافقة المجلس النيابى على طلب عجيب - أن يعفى من
سداد القروض التى قدمها له رعاياه (*) . واحتج أعضاء مجلس العموم ثم
وافقوا : وقدمت ثلاثة مشروعات أخرى بقوانين تستهدف كبح جماح ساطة
رجال الاكليروس على الوصايا التى تم الإشهاد عليها وتقاضيتهم رسوماً على
الموتى واحتفاظهم بالصدقات المتعددة ، وحظيت هذه المشروعات بقوانين
بموافقة أعضاء مجلس العموم ، وعارضها بشدة الأساقفة وروساء الأديار
وأصحاب المقاعد فى مجلس اللوردات ، وقد عدلت ، ولكنها أصبحت فى
جوهرها قوانين نافذة ، وتأجل انعقاد المجلس النيابى إلى يوم ١٧ ديسمبر .

وتلقى الملك إبان صيف عام ١٥٣٠ شيئاً من التشجيع الغالى ، إذ اقترح
توماس كرانمر ، أستاذ اللاهوت فى جامعة كمبردج ، على هنرى ، أن تبدى

(*) ن' انخفاض قيمة العملة الآن يعنى الحكومات من الانجاء إلى مثل هذه الخصوصية

الشريعة .

الجامعات الكبرى في أوربا رأيتها في موضوع هو هل كان في وسع البابا أن يسمح لرجل بالزواج من أرملة شقيقه . وأعقب هذا الاقتراح مباراة مرحة في التنافس على الرشوة : ونثر وكلاء هنرى المال للتحريض على إصدار أحكام سلبية ، ولجأ وكلاء شارل إلى المال أو التهديد للحصول على ردود إيجابية (٧) ، وانقسمت ردود الجامعات الإيطالية ، ورفضت الجامعات اللوثرية تقديم أى رد مريح للمدافع عن العقيدة ، بيد أن جامعة باريس ، تعرضت لضغط من فرانسيس (٨) فقدمت الرد العزيز المنشود الذى كان يتلهف عليه . ووافقت جامعتا أكسفورد وكامبردج ، بعد أن تسلمتا رسائل صارمة من الحكومة ، على حق الملك فى الحصول على قرار بطلان زواجه

وعندما شعر بدعم مركزه إلى هذا الحد ، أصدر عن طريق وكيله العام (ديسمبر سنة ١٥٣٠) إعلانا بأن الحكومة تعزم رفع دعاوى ضد كل رجال الاكليروس الذين اعترفوا بسلطة ولزى قاصدا رسوليا ، وعلى أساس أنهم خالفوا قانون الولاء للتاج . وعندما عاد المجلس النيابى والمجلس الاكليروسى للانعقاد (١٦ يناير سنة ١٥٣١) أعلن وكلاء الملك وهم سعداء أن الدعاوى سوف تسحب إذا اعترفوا بأنهم مذنبون ودفعوا غرامة قدرها ١١٨,٠٠٠ جنيه (١١,٨٠٠,٠٠٠ دولار ؟) (٩) . فاحتجوا بأنهم لم يرغبوا قط فى أن يكون لولزى مثل هذا السلطان وأنهم لم يعترفوا به قاصدا رسوليا إلا لأن الملك قد فعل هذا بتقديم التماسه للنظر أمام محكمة ولزى وكامبيجيو . وكانوا على حق كامل بالطبع ، بيد أن هنرى كان فى حاجة ماسة إلى المال . ووافقوا ، وهم يولولون ، على سداد المبلغ من موارد أبرشياتهم . واستخف الطرب الملك فطالب وقتذاك بأن يعترف به رجال الاكليروس « حاميا للكنيسة ورجال الدين فى انجلترا والرئيس الأعلى الوحيد لهم » أى أن ولاءهم للبابا لا بد أن ينتهى وعرضوا اثنتى عشرة مصالحة وجربوا اثنتى عشرة عبارة مبهمه ، وكان هنرى قاسيا لا يرحم ، وأصر على أن يردوا بكلمة « نعم »

أو « لا » . وأخيراً (١٠ فبراير سنة ١٥٣١) عرض رئيس الأساقفة واهرام ، وكان وقتذاك في الحادية والثمانين ، في تبرم ، لإقرار صيغة الملك وأضاف إليها عبارة فيها تحفظ « يقدر ما تسمح شريعة المسيح » ، وبسكت المجلس الاكليروسى ، واعتبر السكوت رضا ، وأصبحت الصيغة قانونا . وهدأت ثائرة الملك ، فسمح عندئذ للأساقفة بمطاردة الهرطقة .

وتأجل اجتماع المجلس النيابى والمجلس الاكليروسى مرة أخرى (٣٠ مارس سنة ١٥٣١) : وفى يوليو ترك هنرى كاترين فى وندسور على الأبراهام أبدا مرة أخرى . وسرعان ما نقلت بعد ذلك إلى امبتل بينما أقامت الأميرة مارى فى رتشموند وطالب هنرى بالجوهر التى كانت قد ارتدتها كاترين بصفتها ملكة وأعطاهما لآن بولين^(١٠) واحتج شارل الخامس لدى كليمنت الذى وجه خطابه قصيرا للملك (٢٥ يناير سنة ١٥٣٢) يؤنبه فيه لاقترافه الزنا ، ويحضه على طرد آن والاحتفاظ بكاترين ملكة شرعية إلى أن يصدر قراراً فى الالتماس المقدم منه لإعلان بطلان الزواج . وتجاهل هنرى التأنيب واستمر فى غرامه . وكتب حوالى هذا الوقت إحدى رسائله الرقيقة لآن :

حبيبة قلبى ، أكتب لك هذا لأعرب عن الوحدة التى أعيش فيها هنا منذ فراقك ، لأننى أوكد لك أنى أرى الوقت قد أصبح منذ رحيلك أطول مما تعودت أن أراه مدى أسبوعين كاملين ، وأعتقد أن رقتك وحرارة حبي هما السبب . . ولكنى أفكر الآن وأنا قادم إليك ، وآلامى قد خف نصفها ، فى أن يتحقق أملى فى أمسية خاصة بين أحضان حبيبتي التى سوف أركن قريبا إلى نهديها الجميلين وأقبلهما . كتبته يد من كان ولا يزال لك وسوف يظل معك على الدوام بإرادته .

وعندما انعقد المجلس النيابي والمجلس الاكليروسى مرة أخرى (١٥ يناير سنة ١٥٣٢) حصل هنرى من المجالس الأربعة جميعاً على تشريع آخر مناهض لرجال الاكليروس ينص على : أن رجال الدين دون درجة مساعد شماس ، يجب أن يحاكموا أمام المحاكم الدينية عند اتهامهم بالخيانة العظمى ، وأن الرسوم والغرامات التى تتقاضاها المحاكم الكنسية يجب أن تخفض ، وأن الرسوم الكنسية على الموتى ورسوم التثبيت من صحة الوصايا يجب أن تخفض أو تلغى ، وأن موارد السنة الأولى لأسقف حديث التعيين يجب ألا تدفع بعد ذلك للبابا وأن تحويل الأموال الإنجليزية إلى روما من أجل محلات وصكوك غفران وخدمات بابوية أخرى يجب أن يتوقف ، وأرسلت إشارة مأكرة إلى المجلس البابوى بأن موارد السنة الأولى للأسقف حديث التعيين سوف ترد إلى البابا إذا أعان بطلان الزواج بكاترين .

وفى هذا الوقت انحازت غالبية من الأساقفة إلى رأى القائل بأنهم لن يفقدوا شيئاً من السلطة أو الدخل إذا استقلت الكنيسة الإنجليزية عن روما . وفى مارس سنة ١٥٣٢ أعلن المجلس الاكليروسى استعداده للانفصال عن البابوية : « هلا تفضلتم يا صاحب السمو بوقف أعمال الاغتصاب الظالمة المذكورة . . . وإذا اتخذ البابا إجراء ضد هذه المملكة للحصول على موارد السنة الأولى للأساقفة حديثى التعيين . . . فالتفضلوا بتموكم بسن قانون من المجلس النيابى الحالى بسحب طاعة بتموكم والشعب للكرسى البابوى فى روما (١٢) » . وفى ١٥ مايو قدم المجلس الاكليروسى تعهداً للملك بتقديم كل تشريع تال له إلى لجنة - نصفها من العلمانيين والنصف الثانى من رجال الإكليروس - لها الحق فى الاعتراض على أى قوانين ترى أنها ضارة بالمملكة . وهكذا ولدت كنيسة إنجلترا فى هذا « الإصلاح النيابى » الأسقفى وهذا المجلس الإكليروسى وأصبحت تدعى للدولة وتابعة لها .

وفي ١٦ مايو استقال توماس مور من منصب الحجابة بعد أن فشل في الوقوف أمام التيار المناهض لرجال الإكليروس وانسحب إلى بيته . ومات رئيس الأساقفة واهرام في أغسطس بعد أن أملى وهو على فراش الموت رسالة أبدى فيها رفضه لخضوع المجلس الإكليروسي للملك . واستبدل هنري بتوماس مور توماس أودلي ، وبواهرام ، توماس كرانمر . ومضت الثورة قدماً . وأجاز المجلس النيابي « قانون الاستئناف » ، وبمقتضاه كان كل نزاع أرسل سابقاً إلى روما للفصل فيه يحسم « في المحاكم الروحية والزمنية داخل المملكة دون اعتبار ، لأي منع أو حرمان من غفران الكنيسة أو تحریم يصدر من جهة أجنبية (١٢) » .

وفي ١٥ يناير سنة ١٥٣٣ تزوج هنري من آن التي كانت حاملاً منذ أربعة شهور (١٤) . وكان لدى الملك وقتذاك أسباب ملحة لإعلان بطلان زواجه من كاترين ، ولما كان قد بعث بطلب آخر للبابا دون أن يؤدي إلى نتيجة ، فقد حصل من المجلس الإكليروسي على موافقة على « طلاقه » (إبريل سنة ١٥٣٣) وفي ٢٣ مايو أعلن كرانمر بصفته رئيس أساقفة كنتربري أن الزواج بكاترين مخالف للشريعة وباطل ، وفي يوم ٢٨ مايو أعلن أن آن زوجة شرعية له . وركبت آن بعد ثلاثة أيام وهي ترتدي الديباج وتزين بالجوهر لكي تتزوج ملكة لإنجلترا في احتفال ملكي مهيب ، وضعت تصميمه التقاليد وهانز هولبين الصغير . ولاحظت وسط مظاهر الابتهاج صمت الجماهير الدال على الاستنكار ، ولعلها تساءلت إلى متى يحمل رأسها القلق التاج ؟

وأعلن البابا كليمنت بطلان الزواج الجديد ، وأن الأولاد الذين سيكونون ثمرة له غير شرعيين ، وحرّم الملك من غفران الكنيسة (٢٢ يوليو سنة ١٥٣٣)

وولدت اليزابث يوم ٧ سبتمبر وأهملغ سفير شارل مولاه أن حظية الملك
أنجبت ابنة سفاح (١٥) ،

واستأنف المجلس النيابي ، الذي كان قد أجل يوم ٤ مايو جلساته في ١٥ يناير
سنة ١٥٣٤ . وكانت موارد الأساقفة الجدد في السنة الأولى والموارد البابوية
الأخرى قد خصصت نهائياً وقتذاك للتاج ، وأصبح تعيين الأساقفة امتيازاً
للملك من الناحية القانونية ، كما جرى العمل به فعلاً . ونقلت دعاوى الاتهام
بالمهرطقة من القضاء الكنسي إلى القضاء المدني ،

وفي عام ١٥٣٣ أذاعت اليزابث بارتون وهي راهبة من كنت أنها تلقت
أوامر من الرب بإدانة الزواج الثاني للملك ، وأنها قد سمح لها بروؤية المكان
الذي يعد لاستقبال هنري في الجحيم . وعرضتها المحكمة الملكية لاختبار قاس ،
وانتزعت منها اعترافاً بأن رواها الإلهية كانت إفكاً وخداعاً ، وأنها سمحت
لآخرين باستخدامها في مؤامرة للإطاحة بالملك (١٦) . وحوكت هي وستة
« شركاء في الجريمة » أمام مجلس اللوردات وقضى عليهم بالإدانة ، ونفذ
فيهم حكم الإعدام (٥ مايو سنة ١٥٣٤) ، واتهم الأسقف فيشر بأنه علم
بالمؤامرة وتفاعس عن تحذير الحكومة ، واتهم أيضاً بأنه كان هو وكاترين
مطلعين على أسرار خطة وضعها شابويس ولم يشجعها شارل ، لغزو إنجلترا
في الوقت الذي يقوم فيه أنصار كاترين بالتمرد (١٧) . وأنكر فيشر التهم الموجهة
إليه ، ولكنه ظل موضع الاشتباه بالخيانة ،

وكان توماس كرومويل أشد وكلاء هنري العدوانيين في هذه الأمور .
وقد ولد عام ١٤٨٥ ، وهو ابن حداد من بوتني ، ونشأ في فقر ومسغبة ،
ومضى يضرب سنوات في أرض فرنسا وإيطاليا أفاقاً بالفعل ، وعاد إلى
إنجلترا واشتغل بصناعة النسيج وأصبح مريباً وكون ثروة ، وخدم ولزي
بإخلاص خمس سنوات ، ودافع عنه في أيام البؤس ، واكتسب احترام

هنرى بسبب صناعته وولائه . وعين على التوالى حاجباً لخزانة الدولة وأميناً للسجلات وكان سر للملك (مايو سنة ١٥٣٤) ، وكان فى الفترة من عامى ١٥٣١ و ١٥٤٠ المدير الأكبر لشئون الحكومة باعتباره منفذاً مطيعاً للإرادة الملكية ، واتهمه أعداؤه الأرسقراطيون ، الذين احتقروه بوصفه حديث نعمة يرمز لخصوصهم الصاعدين ، رجال الأعمال ، بأنه يطبق مبادئ « أمير » مكياڤلى ، بقبول الرشسا وبيع المناصب وحب الثروة والسلطان حباً يتجاوز الحدود . وكان هدفه ، الذى سعى بجاهداً لإخفائه ، هو أن يجعل الملك صاحب الكلمة العليا فى كل مجال من مجالات الحياة الإنجليزية ، وأن يمول ملكية مطلقة بثروة الكنيسة المصادرة ، وأظهر فى سعيه لتحقيق أغراضه مقدرة تامة لا تعرف تأنيب الضمير ، وضاعف ثروته ، وكسب كل معركة خاضها ما عدا الأخيرة ، والراجع أن هنرى ، وقد أزعجه تزايد عدااء الشعب له ، استدرج المجلس النبائى ، بناء على اقتراحه وعن طريق احتياله ، إلى الموافقة على قانون وراثة العرش (٣٠ مارس سنة ١٥٣٤) الذى أعلن أن الزواج بكاترين غير صحيح ، وحول ماري إلى ابنة سفاح ، وعين اليزابث وريثة للعرش إلا إذا أنجبت آن ولداً ، ونص على أن أى شخص يحاول فى صحة زواج آن بهنرى يستحق أقصى عقاب . وقضى القانون بأن يحلف جميع الإنجليز رجالاً ونساء يميناً بالولاء للملك . وأخذ مندوبون للملك يؤازرهم جنود ، يخرقون البلاد راكبين ، ودخلوا البيوت والقصور وأديار الرهبان وأديار الراهبات ، وانتزعوا اليمين كرها . ولم يرفض حلف اليمين إلا قلة ضئيلة من بينهم الأسقف فيشر وتوماس مور : وعرضوا أن يحلفوا على ما جاء بشأن وراثة العرش على ألا يتسموا على باقى ما تضمنه القانون . وحكم عليهم بالسجن فى البرج . وصوت المجلس النبائى آخر الأمر على قانون السيادة الخامس (١٢ نوفمبر سنة ١٥٣٤) ، وأكد هذا القانون سيادة الملك على الكنيسة والدولة فى إنجلترا ، وعمد الكنيسة الوطنية الجديدة باسم الكنيسة

الانجليكانية ، وخول الملك كل هذه السلطات على الأخلاق والتنظيم والمهرطقة والعقيدة والإصلاح الكنسى ، وكانت حتى وقتذاك من اختصاص الكنيسة . ونص القانون على أن المرء يرتكب جريمة الخيانة إذا تحدث عن الملك أو كتب عنه أنه مغتصب أو طاغية أو انقضى أو هرطيق أو كافر . وطلب من جميع الأساقفة أن يخلفوا عينا جديدة بأنهم يقبلون سيادة الملك المدنية والكنسية دون تحفظ « بقدر ما تسمح شريعة المسيح » ، وأنهم لن يرضوا أبداً في المستقبل باستئناف السلطة الباهوية في إنجلترا . وانتشرت كل قوات الحكومة لشل حركة المعارضة لهذه المراسيم ، التي لم يسبق لها مثيل . وتظاهر رجال الإكليروس العلمانيون بالخنوع شيئاً فشيئاً ، وأحجم كثير من الرهبان والإخوان الرهبان عن حلف الأيمان ، نظراً لولايتهم للبابا ، وأسهمت مقاومتهم في اتخاذ الملك قراره الأخير بإغلاق الأديار .

وأحقق عناد الإخوة الرهبان في تشارتر هاوس ، وهو دير كارتوزى لندن ، هنرى وكرومويل بخاصة . وجاء ثلاثة من رؤساء الأديار الكارتوزيين إلى كرومويل ليقدموا له إيضاحاً عن إحجامهم عن الاعتراف بأى علمانى رئيساً للكنيسة في إنجلترا ، فبعث بهم كرومويل إلى سجن البرج . وفى يوم ٢٦ إبريل سنة ١٥٣٥ حوكموا هم وراهب آخر وقسيس علمانى أمام قضاة الملك الذين كانوا يميلون إلى الصلح عنهم ، غير أن كرومويل خشى أن يشجع الرفق على المزيد من المقاومة ، فطالب بقرار بالإدانة وأذن القضاة .

وفى يوم ٣ مايو جر الرجال الخمسة وكانوا لا يزالون يرفضون قبول قانون السيادة على زخافات إلى تيرن وعلقوا واحداً وراء الآخر وأسقطوا بقطع الحبال وهم أحياء وقطعوا إرباً (١٨) وعلقت ذراع مبتورة على مدخل عقد تشارتر هاوس لتلقين الرهبان الباقين درساً ، ولكن أحداً منهم لم

يراجع عن رفضه . وسجن ثلاثة في البرج وشد وثاقهم وهم منتصبون بسلاسل من حديد حول أعناقهم وأقدامهم ، وأكروهوا على الوقوف في هذا الوضع سبعة عشر يوماً . وقدم إليهم الطعام ، ولكن لم يفلت وثاقهم لقضاء أى حاجة طبيعية . أما باقى الرهبان الكارتوزيين ، وكانوا لا يزالون يبدون عناداً ومشاكسة فقد تشبثوا في أديار أخرى ما عدا عشرة منهم ، سجنوا في نيوجيت ومات تسعة من هؤلاء من «حمى السجن وقلره» (١٩) .

وكان هنرى وقتذاك هو الحكم الوحيد فيما يتعين على الشعب الإنجليزى أن يؤمن به في مجالى الدين والسياسة . ولما كان لاهوته لا يزال كاثوليكيّاً من كل وجه فيما عدا السلطة البابوية فقد اتخذ مبدأ مطاردة النقاد البروتستانت للمذهب الكاثوليكي بغير تحيز ، والنقاد الكاثوليك لسيادته الكنسية ، والحق أن مطاردة الهراطقة قد استمرت وظلت طوال مدة حكمه . وفي عام ١٥٣١ أحرق توماس بلنى بأمر أصلده الحاجب توماس مور ، لأنه انتقد الصور الدينية ، ورحلات الحج والصلوات من أجل الميت . وقبض على جيمس بينهام لأنه اعتبر أن المسيح لا يكون حاضراً في القربان المقدس إلا بروحه فعذب لى ينزع منه أسماء هراطقة آخرين ، وتشبهت بما قال وأحرق في سمنفيلد في ابريل عام ١٥٣٢ . وأحرق آخرون في ذلك العام وعرض أسقف لندن أن يمنح في خلال أربعين يوماً صك غفران للمسيحيين الصالحين الذين يحملون حزمة من الحطب لتغذية النار (٢٠) .

ووصل عهد الإرهاب إلى ذروته في اضطهاد فيشر ومور ، وقد وصف لارازاموس أسقف روشيستر بأنه « شخص مثقل بكل فضيلة» (٢١) . بيد أن فيشر نفسه كان قد اقترع ذلب الاضطهاد ، وقد انضم إلى السفير الأسباني في حث شارل على غزو إنجلترا وخلع هنرى (٢٢) . وقد اقترع في نظر القانون جريمة خيانة الدولة ، وهو أمر لم يشفع له عندما احتج بأنه كان مخلصاً للكنيسة . وارتكب الحبر الأعظم الجديد ، بولس الثالث خطأ بتعيين

الأسقف المسجون كاردينالا ، وعلى الرغم من أن فيشر أعلن إنه لم يسع إلى هذا الشرف ، فإن هنرى رأى وقتذاك فى هذا التعيين تحدياً له . وفى ١٧ يونيو سنة ١٥٣٥ قدم الأسقف ، وكان وقتذاك فى عامه الثمانين ، إلى محاكمة أخيرة ورفض مرة أخرى أن يوقع على قسم يعترف فيه بهنرى رئيساً للكنيسة الإنجليزية ، واقتيد فى ٢٢ يونيو إلى كتلة على تل تاور . ووصفه شاهد عيان بأنه « جسد طويل أعرج ، لا شيء فيه سوى الجلد والعظام ، إلى حد أن معظم من شاهده دهشوا من رؤية رجل لا يزال فيه رمق من حياة ، على الرغم من باوجه هذا الحد من الوهن (٢٣) » .

وتلقى وهو على منصة المقصلة عرضاً بالمغفرة: إذا حلف اليمين فرفض وعلق رأسه المقطوع فوق جسر لندن . وقال هنرى : فى وسعه أن يذهب الآن ، إذا استطاع ، إلى روما ويحصل على قلنسوة الكاردينال (٢٤) .

ومع ذلك فقد بقى هناك مكابر عنيد أشد مراساً .

٢ - مؤلف المدينة الفاضلة

كان والد توماس مور محامياً ناجحاً وقاضياً بارزاً . وتلقى توماس تعليمه فى مدرسة سانت أنطونى بلندن ، وعمل وصيفاً لرئيس الأساقفة مورتون ، وكان لهذا الفضل فى تثبيت عقيدته المحافظة وتكامله وتقواه المرحية . وتنبأ مورتون ، كما يقال لنا ، بأن « هذا الطفل الذى يخدم هنا على المائدة ... سوف يثبت أنه رجل عجيب (٢٥) » . وذهب الشاب إلى أكسفورد وهو فى الخامسة عشرة من عمره ، وسرعان ما فتن بالأدب الكلاسى إلى درجة حلت والد الشاب على انتزاعه من الجامعة ، لإنقاذه من أن يصبح أديبا خاوى الوفاض ويبحث به لدراسة القانون فى لندن ، وكالت أكسفورد وكامبردج لا تزالان تستهدفان إعداد الطلاب للعمل فى سلك الكهنوت . وكانت كلية

نيو إن وكلية لنكولن إن(*) تدرسان الرجال الذين كانوا وقتذاك يشرفون من بيع رجال الاكليروس على الحكومة في إنجلترا، ولم يتلق من أعضاء مجلس العموم تعليماً جامعياً سوى ثمانية أعضاء بينما كانت هناك نسبة مرتفعة من المهملين ورجال الأعمال .

وفي عام ١٤٩٩ التقى مور ، وكان في الحادية والعشرين من عمره ، بإرازموس وافتتن بالمذهب الإنساني . وتعد صداقتهما من أطيب العطور شذى في ذلك العصر . فقد وهب كلاهما مرحباً بقدرما ، وجعلاً لدراستهما طعماً مستساغاً بالهجو الضاحك . وكانا يشتركان في كراهية الفلسفة الكلامية التي قال مور إن ما تنطوي عليه من خبيث في التفريق بين الأشياء يعود على المرء بفائدة توازي ما يكسبه من حلب تيس في غربال^(٣) . وكانا يأملان في إصلاح الكنيسة من الداخل وتجنب تفكك أواصر الوحدة الدينية والتواصل التاريخي . ولم يكن مور ندأ لإرازموس في العلم أو التسامح ، والحق أن رفته المألوفة وكرمه كان يشوبهما في بعض الأوقات تطرف في الدين ، وكان في الجدل ينحني بين آن وآخر مثل كل معاصريه ، لبوجه لخصومه طعناً شديداً مريراً^(٤) . ولكنه كان يفوق إرازموس في الشجاعة والإحساس بالكرامة والإخلاص لقضية . ولا شك أن الرسائل التي تبادلها تعد شاهداً ثميناً على أفضل عصر فظ . فهناك رسالة لمور يقول في ختامها « وداعاً يا إرازموس الحبيب يا من هو أعز علي من عيني^(٥) » .

وكان من أعظم رجال الدين في القرن الذي عاش فيه ، أخزى بتقواه - العلمانية تهافت رجال الكهنوت من أمثال ولزى على الدنيا . وفي الثالثة والعشرين عندما تبهر في دراسة القانون فكر في أن يصبح قساً . وألقى

(*) كليتان لدراسة الحقوق على النظام الداخلي أُنشئ به نظام « الرواق » في الأزهر الشريف - المترجم .

محاضرات عامة (١٥٠١) عن مدينة الرب التي بشر بها أوغسطين ، وجلس
بين مستمعيه علماء نحارير أكبر منه سناً مثل جروسين .

وعلى الرغم من انتقاده الرهبان لتقاعسهم عن الامتنال لما يفرضه عليهم
نظامهم فإنه أعجب إعجاباً شديداً بنظام الدير المخلص ، وأسف أحياناً لأنه
لم يختَر هذا النظام ، وظل وقتاً طويلاً يرتدى قيصاً من شعر الخيل لا يلبس
تحتة شيئاً ، وكان بين آن وآخر يسحب منه دماً يكفي لتلطيف ثيابه يبقع من
الدماء ترى بوضوح . وكان يؤمن بالمعجزات ويصدق قصص القديسين
والمخلفات التي تستخدم للعلاج والصور الدينية ورحلات الحج (٢٩) وكتب
مصنفات ولائية لها نغمة القرون الوسطى . أن الحياة سجن وأن الهدف من
الدين والفلسفة تهيئة نفوسنا للموت ، وتزوج مرتين وأنجب عدة أطفال
أنشأهم على حب نظام مسيحي يتسم بالوقار والانضباط في آن واحد ،
وتصحبه صلاة متكررة وحب متبادل وإتكال كامل على العناية الإلهية .
وكانت « دار مانور » في تشلسي التي انتقل إليها في عام ١٥٢٣ مشهورة
بمكتبتها وصالة العرض فيها وحداثتها الممتدة إلى مائة ياردة إلى نهر التامز .

واختير وهو في السادسة والعشرين من عمره (١٥٠٤) نائباً بوصفه
مواطناً حراً في المجلس النيابي . وهناك ناقش بنجاح ضد إجراء اقتراحه
هنري السابع مما دفع الملك إلى أن يسجن مور الكبير فترة قصيرة . ويفرض
غرامة باهظة كوسيلة منحرفة لتلقيح الخطيب الشاب درساً في موااساة
المواامة .

وعند إغلاق ذلك المجلس النيابي عاد مور إلى الحياة الخاصة ونجح في
مزاولة القانون . وأقنع عام ١٥٠٩ بتولى منصب مساعد المشرف في المدينة ،
أى في لندن القديمة شمالى نهر التيمس . وكان مكلفاً بتبعات تنفق ومزاجه ،
وهى وظائف لها صبغة قانونية أكثر مما تتسم بالمخاطرة . وأكسبته أحكامه

شهرة واسعة ، لما اتسمت به من حكمة وعدم تحيز ، وخالف برفضه المهذب للهدايا من المتخاصمين ، سوابق العهد الشائنة التي كانت لا تزال في عنقوانها أيام فرانسيس بيكون . وسرعان ما عاد إلى المجلس النيابي وما إن حل عام ١٥١٥ حتى كان خطيب مجلس العموم .

ووصف إرازموس في خطاب بعث به إلى هوتن مور (٢٣ يولية ١٥١٧) ، بأنه متوسط الثامة له بشرة شاحبة وشعر أصحم لا يهتم بالملبس أو المظهر زاهد في الطعام والشراب ، منشرح سريع النكتة حاضر الابتسامة ، يميل إلى الدعابات والحدع ويحتفظ في بيته بمهرج وقرود وكثير من الحيوانات المدللة الصغيرة ، « وكانت كل الطيور في تشلزيا تأتي إليه ليطعمها » . وكان زوجا مخلصا وأبا محبا يعبد أولاده وخطيبا مقنعا ومستشارا أصيل الرأي ورجلا شديد الحرص على البر وخدمات الأصدقاء — واختتم هذا الرسم التمهيدى الذى يدل على الوله به بأنه « باختصار ماذا خلقت الطبيعة ألطف وأحلى وأسعد من عبقرية توماس مور (٣٠) ؟ » .

ووجد أمامه متسعا من الوقت لتأليف كتب وبدأ بكتاب « تاريخ رتشارد الثالث » ، ولكن نزعته كانت حادة ضد الحكم المطاق ، وكان يجلس على العرش حاكم مطاق ، ورأى أن من الفطنة أن يتجنب قضاء الكامة المطبوعة : ونشر بعد وفاته وكتب شكسبير مسرحية تقوم عليه ، ولعل السيرة الذاتية التي أذاعتها الدراما تحمل بعض المسئولية عن الخلق الذى يحمله رتشارد ، وفي عام ١٥١٦ طرح مور باللاتينية ، كما لو كان يقوم بدعابة ، كتابا من أشهر الكتب بأسرها ، مبدعاً كلمة ، وواضعا سابقة مقدما على خطوة للمدن الناضلة الحديثة ومتوقعا نصف الاشتراكية ، ومعبرا عن نقد للاقتصاد والمجتمع والحكومة في إنجلترا إلى حد أنه تسليح من جديد بالإقدام بعد التروى ونشر المجلد في الخارج . ست طبعات لاتينية قبل أن يسمح بطبعه

باللاتينية كذلك في إنجلترا : واعترف بأنه كتبه للتسلية دون أن يقصد نشره على الجمهور بيد أنه شكر إرازموس لاطلاعه عليه في المطبعة بلوفان^(٣١) وترجم إلى الألمانية والإيطالية والفرنسية قبل أن تظهر النسخة الإنجليزية (١٥٥١) بعد وفاة المؤلف بستة عشر عاماً . وما أن حل عام ١٥٢٠ حتى كان حديث القارة .

وأطلق عليه مور اسم « ليس في موضع » ولا نعرف من خطر له ذلك الخاطر السعيد بتغيير هذا العنوان وسط الطباعة إلى المرادف اليوناني يوتوبيا أو المدينة الفاضلة^(٣٢)، وتم إخراج الحكاية بصورة بارعة جداً دفعت كثيراً من القراء إلى الاعتماد بأنها قصة حقيقية ويقال إن مبشراً دينياً قد فكر في السفر وتحويل سكان المدينة الفاضلة إلى المسيحية^(٣٣). وكان هنري الثامن قد أرسل مور سفيراً إلى بروكس (١٥١٥) ومن هناك انتقل إلى أنتورب برسالة قدمه فيها إرازموس إلى بيتر جيلس كاتب المدينة . وادعت المقدمة أن جيلس قد قدم مور إلى ملاح برتغالي له لحية ، لوحث بشرته ثقلبات الطقس ، بدعى رافاييل هيثلوداي ، وترادف باليونانية « ماهر في الملاح » كان قد سافر بحراً مع أمريجو فسبوتشي عام ١٥٠٤ ، ودار حول الكرة الأرضية (ست سنوات قبل رحلة ماجلان) ، وزار في العالم الجديد ، جزيرة سعيدة حل سكانها معظم المشكلات التي كانت تعاني منها أوروبا في ذلك العهد . وجعلت طبعة لوفان للسخرية أكثر تقبلاً بأن بدأت بحفر الخشب للجزيرة وعينة من لغة المدينة الفاضلة : ولم يكشف المؤامرة إلا هفوة واحدة : فهيتلد واى يميل إلى الثناء على رئيس الأساقفة مورتون بكلمات^(٣٤) أقرب إلى فطرة مور التي تعترف بالجميل من تجربة الملاح .

ويصف ماجلان الوهمي شيوعية سكان الجزيرة بقوله : « لما كان كل شيء على المشاع ، بين سكان المدينة الفاضلة فإن كل شيء متوفر لدى كل

إنسان . وأنا أقارن بينهم وبين كثير من الأمم . . . حيث يقول كل إنسان إن كل ما قد حصل عليه ملك خاص له وإنه أموال خاصة . وأنا أستمسك جيدا بما قاله أفلاطون . . . إن كل الناس يجب أن يحصلوا ويتمتعوا بحصص متساوية من الثروة والأمتعة . . . لأنه حيث ينزع كل إنسان ، يتخذ ألقابا معينة ويتمسك بادعاءات ما ، ويختطف أكبر قدر يستطيع الحصول عليه بحيث نجد أن قلة هي التي تتقاسم فيما بينها كل الثروات فلن يترك للباقي سوى العوز والفاقة (٣٥) .

وكل إنسان في المدينة الفاضلة يأخذ إنتاجه إلى المخزن العام ويتسلم منه حسب ما تتطلبه احتياجاته . ولا أحد يطلب أكثر مما يكفيه لأن الأمان من الحاجة يصدده عن الجشع . ويتناول الناس الوجبات على مائدة مشتركة ولكن للمرء أن يأكل في بيته إذا شاء . وليس في المدينة الفاضلة عملة ولا شراء بثمان رخيص ولا بيع بثمان غال ، وآفات الغش والسرقة والنزاع على الملكية غير معروفة . ولا يستخدم الذهب بوصفه عملة ، ولكن لصناعة أشياء نافعة مثل الأواني التي تقضى فيها الحاجة . وهي لا تعرف الجماعات أو السنوات العجاف ، لأن المخازن العامة تحتفظ باحتياطي للطوارئ . وكل أسرة تشتغل بالزراعة والصناعة معاً ، يستوى في ذلك الرجال والنساء . ولكي يتحقق إنتاج مناسب لا بد أن يعمل كل بالغ ست ساعات يوميا ، ويتحدد اختيار المهنة باحتياجات الجماعة . وسكان المدينة الفاضلة أحرار بمعنى الحرية من الجوع والخوف ، ولكنهم ليسوا أحرارا في أن يعيشوا على حساب الآخرين . وفي المدينة الفاضلة قوانين بيد أنها بسيطة وقليلة ، ومن ثم ينتظر من كل إنسان أن يدافع عن قضيته ولا حاجة لوجود محامين . ويحكم على الذين يخالفون القانون بالعمل عبيدا للجماعة ، ويقومون بأداء المهام الكريهة ، ولكنهم يستعيدون المساواة الكاملة بأقاربهم بعد انتهاء دورهم . أما الذين يكذبون صفو الأمن تكديرا خطيرا فيحكم عليهم بالإعدام في بلاد أخرى .

ووحدة المجتمع في المدينة الفاضلة هي الأسرة الأبوية « والزوجات يهيمن على أزواجهن، والأولاد ينسبون لأبائهم (٣٦) ». والزواج من واحدة هو الشكل الوحيد الذى يسمح به في مجال الارتباط الجنسي .

وقبل الزواج ينصح الخطيبان بأن يرى أحدهما الآخر وهو مجرد من الملابس، حتى يكشف العيوب الجسدية في حينه، وإذا بلغت درجة كبيرة من الجسامة فإن العقد قد يلغى . وتذهب الزوجة لتعيش مع زوجها في دار والده بعد الزواج ويسمح بالطلاق بسبب الزنا أو برضى الطرفين بشرط موافقة مجلس الجماعة . وتختار كل ثلاثين أسرة زعيم قبيلة كل عام ليحكمها ويختار كل عشرة من زعماء القبائل رئيساً لإدارة مقاطعة بها ٣٠٠ أسرة . ويكون المائتا زعيم للقبائل مجلساً قومياً ينتخب أميراً أو ملكاً مدى الحياة .

ومن التبعات الأساسية للملقة على عاتق زعماء القبائل المحافظة على صحة الجماعة بنزويدها بالماء النظيف واتخاذ الإجراءات اللازمة للحفاظ على الصحة العامة وتوفير العناية الطبية والعلاج بالمستشفيات لأن الصحة أهم النعم على الأرض . وينظم الحكام التعليم للأطفال والكبار ويهتمون اهتماماً شديداً بالتدريب المهني ويؤيدون العلم ولا يشجعون التنجيم وقراءة الطالع والخرافة . ولهم أن يشنوا الحرب على الشعوب الأخرى إذا رأوا أن هذا يقتضيه صالح الجماعة . « لأنهم يعتبرون أن أعداء سبب للحرب يتوفر عندما يحتفظ أى شعب بقطعة من الأرض فضاء ولا تستغل بأى صورة نافعة أو مربحة، ويمنع الآخرين من الاستفادة منها أو حيازتها ، وهم بحكم قانون الطبيعة يجب أن يطعموا ويفرج عنهم (٣٧) (هل كان هذا دافعاً عن استعمار أمريكا ؟) . بيد أن سكان المدينة الفاضلة لا يجدون الحرب « لأنهم يكرهونها باعتبارها عملاً وحشياً واضحاً ، ومناقضاً لشعور كل أمة أخرى تقريباً . ويرون أنه لا شيء أكثر خسة وتفاهة من الحجد المستمد من الحرب (٣٨) » .

والدين في المدينة الفاضلة لا يكاد يكون حرّاً تماماً . وتعامل بالتسامح

أى عقيدة، اللهم إلا الإلحاد وإنكار خلود الإنسان، وفي وسع ساكن المدينة الفاضلة إذا شاء أن يعبد الشمس أو القمر . ولكن الذين يلجأون إلى العنف في العمل أو الكلام عن أى دين معترف به يقبض عليهم ويعاقبون لأن القوانين تستهدف منع النزاع الدينى (٣٩) . والذين ينكرون الخلود لا يعاقبون بل يبعدون عن الوظيفة ويحرم عليهم إبداء آرائهم لأى إنسان اللهم إلا للقساوسة و « أصحاب الشأن » . وإلا « فإنه يباح لكل إنسان أن يؤثر ويتبع أى دين يشاء . . . ويستطيع أن يبذل كل جهده لإقناع آخر برأيه ما دام يفعل هذا سلميا وفي رصانة ، وفي غير ما عجلة وبلا زجر أو قدح بصدران عن نزاع ضد الآخرين (٤٠) » . ومن ثم فإن في المدينة الفاضلة عدة أديان بيد أن « أعظم وأحكم دور . . . هو الإيمان بوجود قوة إلهية معروفة ، دائمة ، لا تدرك ولا تفسر ، أعظم من أن يدركها عقل الإنسان ومقدرته ، متفرقة في أنحاء العالم (٤١) » . والرهبانية مسموح بها بشرط أن يشغل الرهبان أنفسهم بأعمال البر والمنفعة العامة ، مثل إصلاح الطرق والجسور وتطهير الخنادق وقطع الأخشاب والعمل خدما بل ورفيقا ، وفي وسعهم أن يتزوجوا إذا رغبوا . وهناك قساوسة ، ولكنهم يتزوجون أيضاً . وتعتبر الدولة أن أول وآخر كل شهر وكل عام بمثابة أعياد دينية ، ولكن في تأدية الاحتفالات الدينية في هذه العطلات ، « لا يرى تمثال أى إله في الكنيسة » ، ولا تؤدي صلوات ، ولكن في وسع كل إنسان أن يتلو صلاة ما في جراحة دون أن يسئ إلى أى طائفة (٤٢) . وفي كل يوم من هذه العطلات تسجد الزوجات والأطفال أمام أزواجهن أو آبائهم ، ويطلبون الصفح عن أى ذنب قد اقترفته أو أى واجب يكونون قد أخلوا به ، ولا يسمح لأحد بالحضور إلى الكنيسة إلا بعد أن يسود الوثام والسلام بينه وبين عدوه . وهذه لمسة مسيحية ، ولكن إنسانية مور الفتية تبدو في قبوله الجزئى لوجهة النظر اليونانية عن الانتحار . إذا عانى إنسان من مرض عضال غير قابل للشفاء ، فإنه

يسمح له ويشجع على إنهاء حياته . أما في الحالات الأخرى فإن مور يعتقد أن الانتحار جبن ، ويروى « أن الجثة يجب أن تلقى دون دفن في مستنقع نزن (١٢) » .

ولا نعرف كم من هذه يمثل النتائج التي توصل إليها مور بعد ترو ، وكم منها كان من تفكير إرازموس ، وكم منها كان من وحى الأعياب الخيال . وعلى أية حال فإن السياسي الشاب أبعد نفسه في حرص عن اشتراكه سكان المدينة الفاضلة ، وهو يتمثل نفسه بقول هيثلوداي : « أرى أن كل الناس لن يعيشوا في ثراء حيث تكون كل الأشياء على المشاع . لأنه كيف تكون هناك وفرة في السلع . . حيث نجد أن نظرة الإنسان إلى مكاسبه الشخصية لا تدفعه إلى العمل ، ولكن الأمل يراوده في أن يجد في عماء الآخرين ما يجعله ينعم بالكسل . لا يمكن أن تكون كل الأمور على ما يرام ، ما لم يكن كل الناس صالحين ، وهو ما أعتقد أنه لن يحدث في هذه السنين العديدة الطويلة (١٣) » . ومع ذلك فإن بعض التعاطف على ضروب الحنين المنطرفة لا بد أن يكون قد استلهم بصورة كبيرة المثال الشيوعي . وثمة صفحات أخرى في المدينة الفاضلة تنتقد في غضب قسوة استغلال الأغنياء للفقراء . وفيها تنديد بإحاطة اللوردات الإنجليز لبعض الأراضي العامة بسياج ، وذلك بصورة مفصلة وروح لا يتوقعان فيما يبدو ، من أجنبي . ويقول هيثلوداي لمور : « إن الطمع الجائر للقلة قد تحول إلى الخراب التام لجزيرتك . إن هؤلاء الأغنياء لا يطيقون إلا أن يشتروا كل شيء ليتلهاوا ويستأثروا بكل شيء ويتمحكموا في السوق وحدهم كما يشاءون باحتكارهم (١٤) » . وعندما أفكر وأزن بعقلي كل هذه الحكومات التي تزدهر الآن في كل مكان فلائي لا أفهم - وليساعدني الله - إلا أن هناك مؤامرة ، يديرها الأغنياء لترويج سلعهم باسم الجمهور . إنهم يتحرعون ويتوسلون بكل الوسائل والحدع . .

كيف يستأجرون ، . . ويتسففون . . . في جهد الفقراء مقابل مبلغ صغير
يقدر الإمكان . . . وهذه الحيل تؤدي إلى سن القوانين (٤٦) .

وهذا يكاد يكون صوت كارل ماركس يحرك العالم من سفح فضاء في
المتحف البريطاني ، ولا شك أن المدينة الفاضلة هي أقوى ضروب الانهزام
وأولها للنظام الاقتصادي الذي استمر في أوروبا الحديثة حتى القرن العشرين ،
ولإنها سوف تظل معاصرة مثل اقتصاد يسير وفق خطة معينة ومثل رفاهية
الدولة أيضاً .

٣ - الشهيد

كيف تأتى لرجل تعج في رأسه مثل هذه الأفكار أن يهين في مجلس
هنري الثامن في السنة التالية لنشر كتاب المدينة الفاضلة ؟ الراجح أن الملك
على الرغم مما اشتهر به من علم ، لم يستطع أن يتحمل قراءة الكتاب باللاتينية
ومات . قبل أن ينشر بالإنجليزية . واحتفظ مور بنخايطره المتطرفة لأصدقائه .
وعرفه هنري مزيجاً نادراً من المقدرة والكمال ، وقدّره باعتباره صلة وثيقة
بينه وبين مجلس العموم ، ونصبه فارساً وعينه وكيلاً للخزانة (١٥٢١) ،
وعهد إليه بمهام دبلوماسية دقيقة .

وعارض مور السياسة الخارجية التي انتهجها ولزى وقاد بها إنجلترا
للحرب مع شارل الخامس ، إذ أن الإمبراطور في نظر مور لم يكن داهية
خطيراً فحسب ، بل كان أيضاً البطل المدافع عن العالم المسيحي ضد الأتراك .
وعندما سقط ولزى نسي مور حتى وقتذاك أخلاقياته ليراجع - في المجلس
النيابي - زلاته وأخطائه التي أدت إلى السقوط . وكان ، بصفتة زعيماً
للمعارضة ، الخليفة المنطقي لكاردينال ، وظل يعمل رئيساً لوزراء (حاجباً)
لإنجلترا واحداً وثلاثين شهراً .

ولكن الملك كان الخليفة الحقيقي لولزى . فقد اكتشف هنرى قوته ومقدرته وقال إنه قرر أنه يحور نفسه من بايوية تكن له العداوة وتقف في طريقه وأن يسبغ صفة الشرعية على زواجه بامرأة أحبها وتستطيع أن تنجب له وريثاً للعرش .

ووجد مور نفسه لا يوجه السياسة بل يخدم الأهداف التي تسير في اتجاه مضاد لأعمق مشاعر الولاء التي يطويها بين جوانحه . وواسى نفسه بتأليف كتب ضد اللاهوت البروتستانتي وبمطاردة زعماء البروتستانت . وأنفق في كتاب حوار يتعلق بالهرطقة (١٥٢٨) وفي كتب متأخرة ، مع فرديناند الثاني وكالفن والأمراء اللوثرين على ضرورة الوحدة الدينية لتحقيق القوة والسلام القوميين . وخشى انقسام الإنجليز إلى اثنتي عشرة أو مائة طائفة دينية . ومع أنه كان قد دافع عن ترجمة إرازموس للعهد الجديد إلى اللاتينية فإنه احتج ضد نسخة تندال الإنجليزية باعتبارها تحريفاً للنص بصورة تثبت وجهات النظر اللوثرية ، وشعر بأن ترجمات الكتاب المقدس يجب ألا تتحول إلى أسلحة يشرعها فلاسفة الحانة . وعلى أية حال فإنه تمسك بأن الكنيسة كانت أداة ثمينة جداً للنظام والمواساة والإلهام ، بحيث لا يجوز تمزيقها إرباً بالاستدلال المتسرع من مجادلين معجبين بأنفسهم .

وانتقل من هذه الحال إلى إحراق البروتستانت على المحرقة . أما الاتهام الذى وجه إليه بأنه أمر بجلد رجل فى بيته بسبب الهرطقة (٤٧) فإنه موضع خلاف ، ويبدو أن رواية مور عن المذنب بعيدة عن اللاهوت « إذا نظر خلصة لأية امرأة وهى تركع » فى الصلاة و « إذا تدلى من رأسها شئ فى تضرعاتها فإنه عندئذ يتسلل وراءها . . . يعمل على رفع كل ثيابها ويقذف بها فوق رأسها (٤٨) » . ويمكن أن يقل إنه فى أحكام الإعدام الثلاثة التى أعلنت فى أسقفيته إبان توليه منصب الحاجب ، كان يستجيب فيها للقانون ، الذى كانت الدولة فى حاجة إليه ليكون العضد العلمانى للمحاكم الكنسية (٤٩) ،

ولكن ليس من شك في أنه وافق على عمليات الإحراق^(٥٠). ولم يسلم بوجود أى تناقض بين سلوكه والتسامح الكبير في الاختلافات الدينية الذى أبداه في مدينته الفاضلة ، لأنه حتى هناك رفض التسامح مع الملحدين والمنكرين للخلود ، وهؤلاء الهراطقة الذين لجأوا إلى العنف أو توسلوا بالطعن . ومع ذلك فقد ارتكب هو نفسه جريمة الطعن بمجادلته البروتستانت الإنجليز^(*) .

وبجاء الوقت الذى رأى فيه مور أن هنرى أخطر هراطقة على الإطلاق . ورفض الموافقة على زواجه من آن بولين ورأى في التشريع المناهض لرجال الدين الذى صدر في ١٥٢٩ - ٣٢ اعتداء صارخاً على كنيسة يرى أنها بمثابة قاعدة لا غنى عنها للنظام الاجتماعى . وعندما تقاعد من المنصب وانسحب إلى خلوة بيته في تشلسى (١٥٣٢) كان لا يزال في عنفوانه ، في الرابعة والخمسين من عمره ، ولكنه كان يرتاب في أنه لن يعيش طويلاً . وحاول أن يهيئ أسرته للمأساة بالحديث (هكذا يقول زوج ابنته وليام روبر) عن حياة الشهداء الأحرار وعن جلدتهم العجيب وعما كابده من آلام وعن مبتهم التي آثروا فيها أن يتعرضوا للعذاب على أن يسينوا إلى

(*) « ومع ذلك فهناك خنزير لا يثلق أى تعليم إلا ليدسه وهناك كلاب تمزق بأنيابها كل علم نافع . . ولا يكفي أن يمظ الناس أمثال هؤلاء الكلاب بل يجب جلدتهم بالسياط والمقارع بعنف ، والحيلولة بينهم وبين تمزيق العلم النافع بأنيابهم . . إلى أن يستكينوا ويصيحوا السمع لما يقال لهم . وهذه الوسائل يمنع الخنزير من إلحاق الأذى ، والكلاب تخضع أحياناً للتعليم إلى حد . . أنها تعلم كيف ترقص على مزمار سيدها . والعقاب رادع في حين أن التعليم المجرد منه لا يكفي . فن هم الكلاب بمعنى الكلمة الآن سوى هؤلاء الهراطقة الذين يذبحون على القرايين المقدسة المباركة . . ومن هم الخنازير بمعنى الكلمة سوى هراطقة أباونا هذه ، وهم من ضرب نجس لم يشهد أحد قط من قبل ؟

وفي مثل هذا المركب الرزين أقسم بجمع أصحاب القداسة على العنة . . وتحولوا إلى جرية قذرة شائنة ينهم بها الرهبان بنكاح الراهبات^(٥١) .

الرب فأى شيء أسعد وأكثر بركة من أن يحب الله وأن يتعرض لفقد المال والسجن وضيق الأرض بل والحياة أيضاً » . وكان فضلاً عن هذا يقول لهم معتمداً بعقيدته إذا أدرك أن أبنائه سوف يشجعونه على الترحيب بالموت في سبيل هدف سام فإنه سوف يجد في هذا من السلوى ما يملأ نفسه حبوراً ولهذا السبب يهرع إلى الموت مبتهجاً^(٥٢) .

وتحقق كل ما توقعه ، فقد اتهم عام ١٥٣٤ ، ووجهت إليه تهمة بأنه كان على علم بمؤامرة تتعلق براهبة كنت ، فأقر بأنه التقى بها ، وآمن بأنها تتلقى الوحي ، ولكنه أنكر أنه كان على علم بالمؤامرة . وتشفع كرومويل ، وتفضل هنري بالصفح عنه . ولكن في السابع عشر من إبريل حكم على مور بالسجن في البرج لأنه رفض أن يحلف اليمين على قانون الوراثة ، الذي رأى عندما قدم إليه أنه ينطوي على إنكار لسيادة البابا على الكنيسة في إنجلترا .

وكتبت إليه ابنته الأثيرة مرجريت رسالة ترجوه فيها أن يحلف اليمين ، فرد عليها بأن توسلها سبب له ألماً أشد مما سببه له سجنه . وزارته زوجته (الثانية) في البرج وانتهرت (كما يقول روبر) لعناده :

« إني لأعجب لك في هذا العام يا مستر مور ، يا من كنت أحسبك حتى الآن رجلاً عاقلاً ، لماذا تتظاهر بالحمق ، فترقد هنا في هذا السجن الضيق القذر ، وترضى بأن تحبس بين الفئران والجردان ، بينما في وسعك أن تكون حراً في الخارج ، وتنعم بحظوة ورضا الملك ومجلسه ، إذا فعلت فقط ما فعله كل الأساقفة وخير المتعلمين في هذه الممملكة . وعندما أرى أن لك في تشلسي بيتاً جميلاً لائقاً ، وأرى مكتبتك وكتبك وقاعة صورك وحديقتك وبستانك وكل الضروريات الأخرى ، تبدو جميلة من حولك ، حتى لتستطيع أن تسعد برفقتي ، أنا وزوجتك ، ورفقة أولادك وأسرتك ، فإني أأمل باسم الرب ماذا تعني بمكوثك هنا وكلفك باطالة أمده^(٥٣) » .

وبذلت محاولات أخرى لرحلته عن موقفه ، بيد أنه فاعدها كلها
بالبسامة .

وفي أول يولية سنة ١٥٣٥ قدم لمحاكمة أخيرة . فدافع عن نفسه جيداً
ولكن حكم عليه بالإدانة لخيانة الدولة ، وبينما كان عائداً من وستمنستر
إلى البرج اقتحمت ابنته مرجريت صفوف الحرس ، واحتضنته وتقبلت
بركتها الأخيرة . وفي اليوم السابق لإعدامه أرسل قيضه المصنوع من الشعر
إلى مرجريت ومعه رسالة « غداً نلتقي » لكي نذهب إلى الله . . . وداعاً
يا ابنتي العزيزة ، صلي من أجلي ، وسوف أصلي من أجلك ، ومن أجل
جميع أصدقائك ، لكي نلتقي في السماء سرورين (٥٤) .

وعندما ارتقى منصة المقصلة (في ٧ يوليو) ووجد أنها ضعيفة توشك
أن تنهار قال لأحد التابعين : « أرجوك أيها الملازم أن تراعى أن أكون في
أمان وأنا في أعلاها ، وبالنسبة لنزولي دعني أحتال لنفسي (٥٥) » . وطلب منه
الجلاد الصفع والمغفرة فاحتضنه مور . وكان هنري قد أصدر تعليمات
بألا يسمح للسجين إلا بوضع كلمات . وطلب مور من المشاهدين أن يصلوا
من أجله ، وأن يشهدوا بأنه تعرض للموت في سبيل عقيدة الكنيسة
الكاثوليكية المقدسة ، ومن أجلها ، ثم طلب منهم أن يصابوا من أجل
الملك ، وأن ينعم الله عليه بمشير صالح ، واحتج بأنه مات وهو خادم صالح
للملك ، ولكنه خادم الرب أولاً (٥٦) . وتلا المزمز الحادي والخمسين ، ثم
وضع رأسه على الكتلة ، وسوى بعناية لحيته البيضاء الطويلة ، حتى لا تعرض
لأذى أذى وقال : « مما يؤسف له أنها سوف تقطع ، وأنها لم ترتكب جريمة
خيانة الدولة (٥٧) » ، وعلق رأسه على جسر لندن .

وسرت موجة من الرعب في إنجلترا التي أدركت وقتذاك قسوة الملك ،
التي أصر عليها ، وسرت في أوروبا قشعريرة من الفزع . وشعر إرازموس

أنه هو نفسه قد مات لأنه ، « ليس لنا إلا روح واحدة تتردد بيننا » (٥٨) وقال انه لم تعد لديه وقتذاك أى رغبة فى الحياة . وبعد عام مات هو أيضاً . وعلم شارل الخامس بالحادث وقال للسفير الإنجليزى : « لو كنت سيداً لخادم مثل هذا توفرت لى — أنا نفسى — عن أعماله خبرة غير ضئيلة فى هذه السنوات العديدة ، فإنى كنت أفضل أن أفقد أحسن مدينة فى ممتلكاتى ولا أفقد مثل هذا المستشار الجليل » (٥٩) . وصاغ البابا بولس الثالث نشرة بابوية بحرمان هنرى الخارج على القانون من زمالة العالم المسيحى ، وتحريم الصلوات الدينية فى إنجلترا ، ومنع كل تجارة معها ، وحل كل الرعايا البريطانيين من إيمانهم بالولاء للملك ، وأمرهم هم وكل الأبراء المسيحيين بخلعه فوراً . ولما كان كل من شارل وفرانسيس لا يرحبان بهذه الإجراءات ، فإن البابا حجز صدور النشرة البابوية حتى عام ١٥٣٨ . وعندما أصدرها ، منع شارل وفرانسيس نشرها فى مملكتيهما ، إذ لم يرضيا التصديق على الادعاءات البابوية بوجود سلطة له على الملوك . وكان فشل النشرة البابوية لإيداننا بضعف السلطة البابوية ، وارتفاع سلطان الدولة القومية .

ورأى دين سويقت أن مور رجل « يتمتع بأعظم الفضائل » — ولعله يستخدم الكلمة بمعناها القديم الخاص بالشجاعة — « بين الرجال الذين أنجبهم هذه المملكة » (٦٠) .

وفى الذكرى الأربعمئة لإعدام توماس مور وجون فيشر أدركتهما كنيسة روما بين قديسيها .

٤ — حكاية ثلاث ملكات

فقد هنرى ثلاثاً من ست ملكات فى خلال ثلاثين شهرا من وفاة مور . فقد تلاشت حياة كاترين فى معتزلها الشمالى ، وهى لا تزال تدعى أنها زوجة هنرى الشرعية الوحيدة ، وملكة إنجلترا صاحبة الحق الشرعى ، واستمرت

وصيغاتها في إطلاق هذا اللقب عليها . وفي عام ١٥٣٥ نقلت إلى قلعة كيمبالتون قرب هنتنجدون^(٦١)، وهناك حبست نفسها في حجرة واحدة ولم تكن تركها إلا لحضور القداس . واستقبلت زوارا و « عاملتهم في كرم زائد »^(٦٢) وحجرت ماري ، وكانت وقتذاك في التاسعة عشرة في هاتفيلد التي لا تبعد إلا بمسيرة عشرين ميلا ، غير أنه لم يسمح للأم ولا لابنتها بأن ترى إحداهما الأخرى ، ومنعاً من الاتصال ببعضهما ، ومع ذلك فلإنهما تراسلا ، وتعد رسائل كاترين من أعظم الرسائل المؤثرة في الأدب بأسره . وعرض هنري عليهما دارين آخرين أفضل من داريهما ، إذا اعترفتا بملكته الجديدة ، فرفضتا . وعينت آن بولين عمتها مربية لماري وأمرتها بأن تحتفظ « بابنة الستاح » وتلزمها حدها بـ « لكمة على الأذنين بين آن وآخر »^(٦٣) . ومرضت كاترين في ديسمبر سنة ١٥٣٥ وكتبت وصيتها وبعثت برسالة للإمبراطور تطلب منه حماية ابنتها ووجهت وداعا مؤثرا لـ « سيدها وزوجها العزيز » الملك .

« إن ساعة وفاتي تقترب ولا حيلة لي إلا أن أنصحك ، بحكم ما أكنه لك من حب ، بأن نعني بطهارة روحك التي يجب ان تؤثرها على كل الاعتبارات في الدنيا ، أو على أى جسد تشتهييه مهما كان ، والذي من أجله قذفت بي في كوارث عديدة ، وبنفسك في متاعب كثيرة ولكنني أغفر لك كل شيء ، وأرجو الله أن يغفر لك أيضا ، وبالنسبة للباقي أوصيك خيراً بابنتنا ماري ، وأتوسل إليك أن تكون لها أباً صالحاً . . . وأخيراً فلإني أردت هذا القسم بأن عيني تريدان أن تبصرك فوق كل شيء وداعاً »^(٦٤) .

وبقي هنري عندما نسلم الرسالة ، وعندما ماتت كاترين (٧ يناير سنة ١٥٣٦) بالغة من العمر خمسين عاماً ، أمر الخاشية بإعلان الحساد . فرفضت آن^(٦٥) .

ولم تستطع آن أن تعرف أنها ستموت أيضاً في خلال خمسة شهور ، ولكنها أدركت أنها خسرت الملك ، فقد أدى طبعها الحاد وسورات غضبها المتسمة بالصلف ، ومطالبها التي تبعث على الضجر ، إلى إنهاك هنرى الذى رأى أن لسانها السليظ يتناقض مع رقة كاترين^(٦٥) . وفي اليوم الذى دفنت فيه كاترين ولدت آن طفلاً ميتاً ، وبدأ هنرى الذى كان لا يزال يتلهف على ولد يفكر في طلاق آخر — أو في بطلان للزواج كما سوف يفعل ، وروى عنه أنه قال إن زواجه الثانى تم تحت إغراء السحر ، ومن ثم فإنه باطل^(٦٦) . وبدأ من أكتوبر سنة ١٥٣٥ يولى اهتماماً خاصاً بإحدى وصيفات آن وهى جين سيمور . وعندما أنبته آن أمرها بأن تتحمله في صبر ، كما فعل من هن أفضل منها^(٦٧) ، ولعله انتهج حيلة قديمة عندما اتهمها بالخيانة . إذ يبدو إنه مما لا يصدق أن تخاطر حتى امرأة نزقة بعروشها بالمحظة تبذل ، ولكن يبدو أن الملك كان قد آمن في إخلاص بأنها مذنبه . وأشار إلى الشائعات الدائرة عن غرامياتها التي وصلت إلى مجلسه ، فاستقصى الأمر وأبلغ الملك أنها اقترفت الزنا مع خمسة أعضاء من البلاط ، هم سير وليام بريريتون ، وسير هنرى نوريس ، وسير فرانسيس وستون ، ومارك سميذون ، وأخيها اللورد روشفورد ، وأرسل الرجال الخمسة إلى البرج وتبعثهم آن في اليوم الثانى من مايو سنة ١٥٣٦ .

وكتب لها هنرى يعلمها بالآمال في الصفح عنها والرفق بها إذا كانت صادقة معه ، فردت بأنها ليس لديها ما تعترف به . وزعم خدمها في السجن أنها أقرت بأنها تلقت عرضين بتبادل الحب مع نوريس وستون ، بيد أنها ادعت أنها صدمتهما . وفي يوم ١١ مايو وبعد أن طلب من هيئة المحلفين الكبرى في مدلسكس أن تقوم بتحقيق محلي في الجرائم التي يقال إن الملكة قد ارتكبتها في تلك البلاد أبلغت أنها وجدتها مذنبه لاقترافها الزنا مع جميع الرجال الخمسة المتهمين ، وقدمت أسماء وتواريخ معينة^(٦٨) . و

يوم ١٢ مايو حوكم أربعة من هؤلاء الرجال في وسمنستر أمام هيئة محلفين ، منهم والد آن الايرل أف ولتشاير . واعترف سميتون أنه مذنب كما اتهم ، أما الآخرون فدافعوا عن أنفسهم بأنهم غير مذنبين ، وحكم بإدانة الأربعة جميعاً . وفي يوم ١٥ مايو حوكت آن هي وأخوها أمام جماعة مكونة من ستة وعشرين نبيلاً برئاسة اللدوق أف نورفولك وهو عمها ، ولكنه عدوها السياسى . وأكد الشقيقان أنهما بريئان ، ولكن كل عضو من جماعة القضاة أعلن أنه مقتنع بأنهما مذنبان ، وحكم عليهما بأن يحرقا أو يقطع رأسهما كما يتراءى للملك . وفي يوم ١٧ مايو شق سميتون ، أما الرجال الأربعة الآخرون فقد قطعت رؤوسهم كما يليق برتبهم . وفي ذلك اليوم طلب وكلاء الملك من رئيس الأساقفة كراغر أن يعلن عدم صحة للزواج بأن وأن اليزابث ابنة سفاخ فازعن . ولا يعرف الأسس التى بنى عليها هذا الحكم ، ولكن يظن أن زواج آن السابق المزعوم بلورد نورمبيراند أعلن وقتئذ أنه حقيقى .

وركت آن عشية وفاتها أمام لادى كننجهتون زوجة الحارس وطلبت منها مئة أخيرة : أن تذهب وتركع أمام ماري ، تتوسل إليها باسم آن أن تصفح عن الأخطاء التى ارتكبت فى حقها ، بسبب كبرياء امرأة تعسة غير متبصرة (٦٩) ، وطلبت أن ينفذ فيها حكم الإعدام فوراً يوم ١٩ مايو . والظاهر أنها استمدت شيئاً من العزاء من فكرة خطرت لها هي : « لقد سمعت أن الجلاد بارع جداً ولى عتق صغير » - ومن أجل ذلك ضحككت واقتبدت ظهر ذلك اليوم إلى منصة المقصلة ، وطلبت من المشاهدين أن يصلوا من أجل الملك « لأنه ليس هناك أمير يزه فى الرقة والرأفة (٧٠) » ، ولم يكن هناك أحد يقطع بأنها مذنبية ، ولكن نيلين أسفوا لسقوطها :

وفى يوم وفاتها منح كراغر للملك محلاً بالزواج مرة أخرى فى سعيه

المتجدد للحصول على ولد ، وفي اليوم التالي خطب هنرى ، جين سيمور سرآ ، وتزوجا يوم ٣٠ مايو ١٥٣٦ ، ونودى بها ملكة يوم ٤ يونية ، وكانت سليلة أسرة ملكية ، إذ أنها تنحدر من إدوارد الثالث ، وكانت لها صلة قرابة من الدرجة الثالثة أو الرابعة بهنرى ، مما دعا إلى الحصول على محلل آخر من كرائمر المطيع . ولم تكن تتمتع بجمال خاص ، بيد أنها أثرت في الجميع بذكاها ورقتها بل وتواضعها ، ووصفها الكاردينال بول خصم هنرى اللود بأنها : « ممتلئة بالطيبة » ، ولم تشجع محاولات الملك التقرب بها إبان حياة آن ، ورفضت قبول هداياه ، وأعادت رسائله دون أن تفتحها ، وطلبت منه ألا يتحدثها إلا في حضور آخرين (٢١).

وكان أول عمل تم بعد الزواج هو القيام بالتوفيق بين هنرى ومارى . وقام هنرى به بطريقته الخاصة فأمر كرومويل بأن يبعث لها رسالة عنوانها : « اعتراف لادى ماري » . وهى تعترف بالملك رئيساً أعلى للكنيسة فى إنجلترا وتنكر « سلطة أسقف روما المزعومة » ، وتعترف أن زواج هنرى بكاترين « من قبيل سفاح القربنى وغير شرعى » . وطلب من ماري أن توقع باسمها على كل جملة ، ووقعت ولم تصفح عن نفسها قط . وبعد ثلاثة أسابيع أقبل الملك والملكة لرويتها وقدمتا إليها هدايا . و١٠٠٠ كراون ، وأطلق عليها مرة أخرى لقب أميرة ، وفي يوم عيد الميلاد لعام ١٥٣٦ استقبلت فى البلاط ، وهناك لا بد أن شيئا طيبا كان فى هنرى وفى « ماري الدموية » . - لأنها كادت تتعلم فى السنوات الأخيرة أن تحبه .

وعندما اجتمع المجلس النيابى مرة أخرى (١٨ يونية سنة ١٥٣٦) أصدر بناء على طلب الملك قانوناً جديداً بوراثة العرش وبمقتضاه أعلن أن الزايت ومارى على السواء بنتان غير شرعيتين ، وتقرر أن يقتصر التاج على اللرية المنزوع أن تنجبها جين سيمور :

ومات الدوق آن رتشموند ابن هنرى غير الشرعى ، وتعلقت آمال الملك كلها فى حمل جين . وهالت لإنجلترا معه عندما ولدت (١٢ أكتوبر سنة ١٥٣٧) ولدا هو إدوارد السادس فى المستقبل . بيد أن جين المسكينة التى ارتبط بها الملك وقتذاك ارتباطاً عميقاً ، بقدر ما سمحت روحه ، التى تتركز حول ذاته ، ماتت بعد ولادة ابنها باثنى عشر يوماً . وظل هنرى رجلاً محطماً بعض الوقت . وعلى الرغم من أنه تزوج مرة أخرى ثلاث مرات فإنه طنب عند وفاته أن يدفن بجانب المرأة التى ضحّت بحياتها فى سبيل حمل ابنه .

ماذا كانت ردود الفعل لدى الشعب الإنجليزى بالنسبة لأحداث هذا العهد المضطرب ؟ من الصعب أن نقول شيئاً ، فالدليل فيه تحامل ويكتنفه الغموض ومشقة . وروى شابويس عام ١٥٣٣ أن رأى الكثيرين من الإنجليز أن « الملك رتشارد السابق لم يكن قط مكروها من شعبه إلى هذا الحد مثل هذا الملك (٧٢) » . وقد تعاطف الشعب بوجه عام مع رغبة هنرى فى الحصول على ولد ، وأدان قسوته على كاترين ومارى ولم يذرف دموعاً على آن ، ولكنه صدم صدمة عميقة بإعدام فيشر ومور . وكانت أغلبية الأمة السابقة لا تزال تدين بالكاثوليكية (٧٣) ، وكان رجال الاكليروس — بعد أن حققت الحكومة وقتذاك لنفسها موارد الأساقفة حديثى التعيين فى السنة الأولى — يأملون فى التوفيق مع روما . ولكن لم يجرؤ أحد على أن يرفع صوته بنقد الملك . وتلقى نقداً ، ومن إنجليزى ولكن مع وجود القنال بينه وبين ذراع الملك .

كان ريجينا لدبول ابن مرچريت بلانتا حينت كونتيسة سالزبورى ، وهى نفسها ابنة أنخى إدوارد الرابع ورتشارد الثالث . وقد تعلم على نفقة هنرى ، وكان يتسلم مرتباً من الملك قدره ٥٠٠ كراون كل عام ، والظاهر أنه كان يعد لتولى أعلى المناصب فى الكنيسة الإنجليزية . ودرس فى باريس

وبادوا ، وعاد إلى إنجلترا ، وهو يتمتع بحظوة كبيرة لدى الملك ، واذن عندما أصر هنرى على سماع رأيه فى الطلاق ، رد ريجينالد صراحة أنه لا يستطيع أن يوافق عليه ما لم يصدق عليه البابا . ولم يقطع هنرى مرتب الشاب وسمح له بالعودة إلى القارة .

وهناك لبث بول اثنين وعشرين عاما وارتفع فى تقدير البابا باعتباره عالماً ومتضلعا فى اللاهوت ، ونصب كاردينالا وعمره ستة وثلاثون عاماً (١٥٣٦) . وألف فى ذلك العام باللاتينية رسالة هجوم على هنرى هى دفاع عن وحدة الكنيسة . ورأى أن الأخذ بسيادة هنرى على الشؤون الكنسية فى إنجلترا يدعو إلى الانقسام بين أبناء الديانة المسيحية وتشعبهم إلى قوميات متنوعة ، وأن التصادم الناتج بين العقائد سيؤدى إلى فوضى اجتماعية وسياسية فى أوروبا . واتهم هنرى بأنه مصاب بجنون حب الذات والحكم المطلق . ولام الأساقفة الإنجليز على تسليمهم بعبودية الكنيسة للدولة . وندد بالزواج من آن باعتباره زنا ، وتنبأ (ولم يكن هذا من الحكمة إلى حد كبير) بأن النبلاء الإنجليز سوف يعدون الزايت « ابنة سفاح لعاهرة إلى الأبد (٧٤) ، وطالب شارل الخامس ألا يضيع أى ذخيرة حربية فى حرب الأتراك وأن يحول القوات الإمبراطورية للقتال ضد ملك إنجلترا الكافر . كانت رسالة طعن شديدة ، أتلقتها كبرياء الشباب فى الفصاحة . وأشار الكاردينال كوتناريني على المؤلف ألا ينشر الرسالة ، بيد أن بول أصر ، وأرسل نسخة إلى إنجلترا .

وعندما نصب بولس الثالث بول كاردينالا اعتبر هنرى هذا عملا من أعمال الحرب . وتخلى الملك عن كل فكرة تدور حول المصالحة ، واتفق مع كروموويل على أن الأديار فى إنجلترا يجب أن تحل ، وأن تضم أملاكها إلى التاج .

الفصل الخامس والعشرون

هنرى الثامن والأديار

١٥٣٥ - ٤٧

١ - تقنية الحل

كان هنرى عام ١٥٣٥ مشغولاً جداً بالحرب والحرب فلم يستطع أن يلعب دور البابا جملة أو تفصيلاً ، فعين كرومويل الذى يؤمن بفلسفة اللا أدريّة^(١) « نائبا للملك فى كل قضاائه الكنسى » . ووجه كرومويل وقتذاك السياسة الخارجية والتشريع الوطنى والسياسة القضائية العليا والمجلس الخاص والخبايا وقاعة النجم وكنيسة إنجلترا ، ولم يكن لولزى فى أوج مجده قط أصابع طويلة متشبثة بفطائر غضة بهذه الكثرة . وكان يراقب أيضاً كل الطباعة والنشر ، وأقنع الملك بأن يحرم طبع الكتب أو بيعها أو استيرادها إلا بعد الحصول على موافقة وكلاء التاج ، وأمر بنشر الكتب المناهضة للبابوية على نفقة الحكومة .

وقام جواسيس كرومويل ، وهم لا يحصون ، بإبلاغ كرومويل بكل حركات أو بيانات المعارضين لهنرى أو له . وكانت أية إشارة تدل على الاشتقاق على فيشر أو مور وأية دعاية تدور حول الملك يمكن أن تؤدى إلى محاكمة سرية وسجن طويل^(٢) ، وكان التنبؤ بوفاة الملك يعرض المرء لفقد حياته^(٣) .

وقام كرومويل ، فى بعض القضايا الخاصة بدور ممثل الاتهام والمخالفين

والقاضي ليصل إلى نتائج محققة . وكان كل واحد في إنجلترا يخشاه ويكرهه .

وكانت أكبر معضلة واجهها هي أن هنري كان مفلسا ، على الرغم من سلطانه العظيم . وكان الملك يتوق إلى زيادة حجم البحرية والإكثار من مرافئه وموانئه أو تحسينها ، وكانت حاشيته تتجاوز الحدود ونفقاته الشخصية باهظة ، ونظام كرومويل في الحكم يحتاج إلى نهر عريض من الأموال . فكيف يجمع المال ؟ كانت الضرائب مرتفعة إلى الحد الذي تقابل فيه بمقاومة تجعل الجباية تكلف من النفقات أكثر مما تدر من الربح ، وكان الأساقفة قد استنزفوا أبرشياتهم لتهدئة سورة الملك ، ولم يكن هناك ذهب يتدفق من أمريكا ، كما يتدفق يوميا لإغاثة الإمبراطور عدو إنجلترا . ومع ذلك كانت في إنجلترا مؤسسة واحدة ثرية وموضع ريبة وعاجزة لا تجد من يدافع عنها وهي الأديار . كانت موضع ريبة لأن ولاها الأخير كان للبابا ، واشتراكها في قانون السيادة يعد من قبيل المداينة وغير تام ، وكانت في نظر الحكومة هيئة أجنبية ملزمة بتأييد أى حركة كاثوليكية ضد الملك . وكانت عاجزة لأنها في كثير من الحالات كفت عن القيام بوظائفها التقليدية في مجالات التعليم والضيافة والبر ، وكانت لا تجد من يدافع عنها لأن الأساقفة استاءوا من إعفائهم من المراقبة الأسقفية ، ولأن الأشراف ، وقد أفقرتهم الحرب الأهلية ، طمعوا في ثروتها ، ولأن طبقة رجال الأعمال كانوا يرون في الرهبان والإخوة من الرهبان متلفين كسالى للموارد الطبيعية ، ولأن القسم الأكبر من العامة ، ومنهم كثير من الكاثوليك الصالحين . لم يعودوا يؤمنون بفاعلية الخلفاء التي كان الرهبان يعرضونها ، أو بالقداسات التي كان يقيمها الرهبان للموتى ، لذا دفع لهم الأجر . وكانت هناك سوابق رائعة لإغلاق الأديار ، فقد أغلقها زوينجلى في زيورخ والأمراء اللوثريون في ألمانيا وولزى في إنجلترا . وكان المجلس النيابي قد صوت (١٥٣٣)

بالموافقة على تحويل الحكومة سلطة التفتيش على الأديار وإجبارها على
تقويم اعوجاجها .

وأرسل كرومويل في صيف عام ١٥٣٥ ثالوثا من « المفتشين » كل
منهم معه عدد كبير من الموظفين لفحص حالة أديار الرهبان والراهبات
في إنجلترا من النواحي البدنية والأخلاقية والمالية وتقديم تقرير عنها . وكذلك
للتفتيش على الجامعات والكراسى الأسقفية كإجراء مقبول . وكان هؤلاء
« المفتشون » شبانا متهورين ، « من المرجح أن يسوموا بتنفيذ عملهم في إنقار
أكثر مما يتوسلون في تنفيذه بالركة^(٤) » ، ولم يكونوا في عصمة من قبول
« الهدايا^(٥) » ، وكان « الهدف من مهمتهم الحصول على قضية للتاج ، ولعلمهم
لجأوا إلى كل الوسائل المخولة لهم لحث الرهبان والراهبات على إدانة
أنفسهم^(٦) . ولم يكن من الصعب أن يعثر في ٦٠٠ دير في إنجلترا على
عدد مقنع ويدل على وجود انحرافات جنسية — وأحيانا انحرافات جنسية
شاذة^(٧) — ونظام متحلل واستغلال لمخلفات زائفة هدفه اكتناز المال ،
وبيع أوعية مقدسة أو مجوهرات مقدسة لإضافة المزيد إلى ثروة الدير ،
وما فيه من ضروب الراحة^(٨) وإهمال الشعيرة أو الضيافة أو البر^(٩)
ولكن التقارير أغفلت عادة ذكر نسبة الرهبان الآثمين إلى الرهبان الجديرين
بالتقدير ، والتمييز بوضوح بين الثروة والدليل^(١٠) .

وقدم كرومويل للمجلس النيابى الذى انعقد في ٣ فبراير عام ١٥٣٦
« كتابا أسود » ، ضاع الآن ، يكشف عن الاخطاء فى الأديار ، وينصح ،
باعتدال استراتيجى : بإغلاق أديار الرهبان والراهبات التى يبلغ دخلها ٢٠٠
جنيه (٢٠٠ رطل) أو أقل فى العام . فوافق المجلس النيابى الذى
كان معظم أعضائه قد اختيروا بواسطة معاونى كرومويل^(١١) . وعين
الملك محكمة المزايدات لى تسلم لصالح خزانة الملك أملاك وموارد هذه
الأديار الصغرى البالغ عددها ٣٧٦ . وأطلق سراح ألفى رادب ليذهبوا للدور

أخرى أو يخرجوا إلى العالم — وفي الحالة الأخيرة كانوا يمنحون مبلغاً صغيراً أو معاشاً يسد ومقهم إلى أن يجدوا عملاً . ولم يكن بين ١٣٠ دير للراهبات سوى ١٨ ديـرا يتجاوز دخلها ٢٠٠ جنيه ، ولكن لم يغلق منها وقتذاك إلا نصفها .

وقامت في الشمال ثورة ثلاثية قطعت دراما الحل . وكما نشأت المسيحية في المدن ووصلت إلى القرويين — الوثنيين — فكذلك نهض الإصلاح الديني في المدن بسويسرة وألمانيا وإنجلترا ، ولقي مقاومة دامت طويلا في الريف . وتقلص ظل البروتستانتية في إنجلترا وسكوتلندا كلما ابتعدت المسافة من لندن أو أدنبره ، ووصلت متأخرة إلى ويلز وشمالي إنجلترا ، ولقيت قرحيا ضئيلا في إيرلنده . وفي المراكز الشمالية بإنجلترا أشعل سلب الأديار الصغرى نار الاستياء التي كانت مهياة للاشتعال منذ وقت طويل بسبب الضرائب المتزايدة والحكم الملكي المطلق على رجال الكايروس والتحريض الخفي للقساوسة . وانضم الزهبان ، الذين جردوا من أموالهم ووجدوا أن من الصعب عليهم الحصول على مرتباتهم أو على عمل ، إلى المتعطلين العديدين المكتشين ، أما الراهبات اللاتي جردن من أملاكهن واللاتي كن يتجولن من مأوى إلى مأوى فقد أثرن غضب الجمهور ضد الحكومة . وألهم معاونو كرومويل « نار » الغضب بتزيين أنفسهم بأسلاب المعابد بالأديار وصناعة صديريات من القباء ، وسروج من صدرات القساوسة وقرابات خناجر من محافظ الخلفات (١٢) .

وفي يوم ٢ أكتوبر سنة ١٥٣٦ هاجم جمهور في لوث مفتشا ، كان قد أغلق توا ديـرا للراهبات في لجبورن المجاورة لها ، وتم الاستيلاء على سجلاته وأوراق اعتماده وأحرقت وصوب إلى صدره سيف وأكره على أن يحلف بيمين الولاء للعامة . وحلف كل من كان حاضرا بين الجمهور يمينا بأن يكون مخلصا للملك والكنيسة الرومانية المقدسة : وفي اليوم التالي احتشد

جيش ثائر في كاستور على مسيرة بضعة أميال ، حرضه قساوسة ورهبان لا مأوى لهم ، واضطر أعيان الجهة - ومنهم من فعل ذلك باختياره - إلى الانضمام لجيش الثوار . وفي اليوم نفسه تجمع حشد كبير من القرويين في هورن كاسل ، وهي مدينة أخرى تقع في لنكولنشاير . واتهم حاجب أسقف لنكولن بأنه عميل لكرومويل ، وانتزع من فراشه ، وضرب حتى الموت بالهراوات . وصمم الثوار علما يصور محراثا وقدحا وبوقاً ، و« الكلمات الخمس الأخيرة » للمسيح ، واستخلصوا مطالب أرسلت إلى الملك : يجب أن تعاد الأديار وتخفف الضرائب أو تيسر ، وألا يدفع رجال الاكليروس ضرائب العشور أو موارد السنة الأولى من التعيين إلى التاج ، وأن يبعد « الدم الخبيث » (أى كرومويل) من المجلس الخاص ، وأن يقال الأساقفة المراطقة - وبخاصة كاتدرائية لانيمر - ويعاقبون :

وانضم إلى الثورة مجندون من الأقاليم الشمالية والشرقية . واحتشد في لنكولن حوالي ٦٠,٠٠٠ رجل ، ولبثوا يرقبون رد الملك .

وكان رده عنيفا لا يقبل التفاهم . واتهم الثوار بإنكار جميل حاكم كريم ، وأصر على أن اغلاق الأديار الصغرى إنما تم بإرادة الأمة التي عبرت عنها عن طريق المجلس النيابي ، وأمر الثائرين بتسليم زعمائهم ، وأن يتفرقوا وينصرفوا إلى بيوتهم ، وإلا تعرضوا لعقوبة الإعدام ومصادرة أموالهم . وفي الوقت نفسه أمر هنري أعوانه بحشد قواتهم والزحف بقيادة إيرل أف سفلوك لمساعدة اللورد شروسبرى ، الذي كان قد نظم تابعيه لصد الهجوم ، وكتب رسائل خاصة إلى الأشراف القلائل الذين كانوا قد انضموا إلى الثورة . وعند ما أدرك هؤلاء وقتذاك أن الملك لا يمكن إرهابه ، وأن الثوار المسلحين تسليحا سيثا سوف يقهرون وشيكا ، اقتنع الكثيرون منهم بالعودة إلى قراهم ، وصرعان ما ذاب جيش الثوار فوق احتجاجات

القساوسة . وسلمت لوث خمسة عشر زعيما وأسر مائة آخرون ، وأعلن صدور عفو مائى عن الباقيى . وأخذ الأسرى إلى لندن والبرج وشتق ثلاثة وثلاثون ، منهم سبعة قساوسة ، وأربعة عشر راهبا ، وأطلق سراح الباقيى على مهل (١٣) .

وفى غضون ذلك كانت هناك فتنة أشد خطورة قد نمت فى يوركشاير . اوجد رتشارد آسك ، وهو محام شاب ، نفسه متورطا بدنيا وعاطفيا فى ولركة . وأفزح محام آخر فتولى قيادة فرقة نائرة فى بفرى ، وأعار اللورد دارسى أف تمبلهرست ، وهو كاثوليكي متحمس ، الثورة تأييده الخفى ، وانضم اثنان من أسرة برسى ، وحذا حذوهم معظم أشراف الشمال .

وفى ١٥ أكتوبر سنة ١٥٣٦ ضرب الجيش للرئيسى ، المكون من ٩٠٠٠ رجل ، الحصارا على يورك . وأجبر المواطنون فى المدينة للعمدة على فتح الأبواب . ومنع آسك رجاله من نهب المدينة ، وحافظ بوجه عام على نظام ملحوظ فى جيشه غير المدرب . وأعلن إعادة فتح الأديار ، وعاد إليها الراهبان فى اغتباط ، وأدخلوا السرور على أئندة الاتقياء بحرارة قرانيمهم الجديدة . وقدم آسك واستولى على بومفريه ، واستولى ستابلتون على هل دون إراقة دماء . وانضم آخرون إلى رجال لنكولنشير فى تقديم المطالب وأرسلوا للملك : « أن يجمع كل المراطقة وكتبهم ، ويستأنف الروابط للكنسية مع روما ، وأن يسبغ صلوة الشرعية على مارى ، ويعزل مفتشى كرومويل ويعاقبهم ، ويأمنى كل تسوير للأراضى العامة منذ عام ١٤٨٩ .

كانت هذه أخرج لحظة فى عهد هنرى . كان نصف البلاد يحمل السلاح ضد سياسته ، وكانت لبرلنده فى ثورة ، وكان بولس بول الثالث

والكردينال بول يمشان فرانسيس الأول وشارل الخامس على غزو إنجلترا ونخلع الملك . واستجمع قواه المتخاذلة ، وأرسل أوامراً إلى كل الجهات بمحشد فرق موالية ، وفي الوقت نفسه أصدر تعليمات للدوق أف نورفولك بأن يتغفل الزعماء الثائرين بإجراء مفاوضات . ورتب الدوق مداولة مع أسك وعدة نبلاء وأغراهم بوعده منه بالعفو عنهم جميعاً . ودعا هنرى أسك إلى لقاء شخصى ومنحه جواز أمان . فجاء إلى الملك واقتن بعبير الملكية ، وعاد وديعا ، ولم يلحقه أذى إلى يوركشاير (يناير سنة ١٥٣٧) ، وعلى أية حال فإنه قبض عليه هناك وأرسل سجيناً إلى لندن . وانقطعت صلة الجيش الثائر بقواده فانشعب إلى فرق غاضبة وساده اضطراب همجى ، وتضاعفت حالات التمرد . وبينما كانت فرق الملك المتحدة تقترب اختفى الجيش الثائر كسراب تبدد (فبراير سنة ١٥٣٧) .

وعندما استوثق هنرى من انهيار الثورة والغزو ما أنكر وعد نورفولك بالعفو العام ، وأمر بالقبض على من يمكن العثور عليه من الزعماء مشرى الفتنة ، وأعدم الكثيرون منهم ومن ضمنهم أسك ، وكتب إلى الدوق يقول : « يسرنا أن نراك قبل أن نظوى علمنا مرة أخرى أن تقوم بإعدام مروع لعدد لا بأس به من السكان فى كل مدينة وقرية وحلة تكون قد أجمرت ، حتى يكون فى هذا عبرة لكل من تسول له نفسه أن يقوم بمثل ذلك فى المستقبل . . . وما دامت هذه الاضطرابات كلها قد نشجت من تحريض الرهبان والكنسيين فى هذه البقاع وموآمراتهم الغادرة ، فلنأمر نريد منك فى هذه الربوع التى تأمروا فيها ، ودافعوا عن بيوتهم بالقوة . . أن تأمر بلا رحمة أو شفقة بشد وثاق هؤلاء الرهبان رجال الكنيسة الذين ثبت خطوهم بأية وسيلة دون تأخير أو إجراء رسمى (١٤) .

وعندما رأى كرومويل ما لحق بالمعارضة من رعب شديد مضى قدماً

فى إغلاق الدور الدينية الباقية فى إنجلترا . وحلت يوما كل أدهار الرهبان والراهبات التى كانت قد انضمت إلى الثورة وصودرت ممتلكاتها لمصلحة الدولة . وامتد مجال الزيارات التفتيشية ، وأثمرت تقارير عن الخروج على النظام والفجر والخيانة والانحلال . وتوقع كثير من الرهبان سلفا لإغلاق الأديار فباعوا الممتلكات والنقائس التى فى دورهم إلى أعلى مزايده ، وبلغ ثمن لصبح لسانت أندرو أربعين جنيه^(١٥) . وأدين الرهبان فى والسنجهام بتزييف معجزات ، وألقى تمثال العذراء ، الذى كان يدر عليهم أرباحا ، فى النار . وهدم ضريح سانت توماس ببيكيت التاريخى فى كانتربرى ، وأعلن هنرى الثامن أنه فى انتصاره على هنرى الثانى لم يكن قد بسا حقا ، وأحرقت الممتلكات التى أساءت إلى كويله ، وتفككه بها لإرازاموس . ونقلت التحف الثمينة التى وهبها الحجاج الورعون فى خلال ٢٥٠ عاما إلى الخزائنة الملكية (١٥٣٨) ، ولبس هنرى بعد ذلك فى إبهامه خاتما محلى بياقونة كبيرة أخذت من الضريح . وسعت بعض الأديار إلى خداع القدر بإرسال المال والهدايا لكرومويل ، وقبل كرومويل كل شىء وأغلقها جميعا . وما أن حل عام ١٥٤٠ حتى كانت كل الأديار وكل الأملاك الديرية ماعدا كنائس دير الكاتدرائية قد انتقلت إلى الملك .

وعلى الحملة فقد أغلق ٥٧٨ ديرا للرهبان وحوالى ١٣٩ دير للراهبات ، واشتلت ٦٥٢١ راهبا أو أخوا و ١٥٦٠ راهبة . وتخلّى حوالى خمسين راهبا وراهبتان من هؤلاء عن الرداء الدينى ، بيد أن الكثيرين توسلوا أن يسمح لهم بمتابعة حياتهم التى ألفوها فى الدير فى مكان آخر^(١٦) . وفقد حوالى ١٢٠٠٠ شخص ، كانت الدور الدينية تستخدمهم فيما مضى أو كانوا يعتمدون عليها فى معيشتهم ، وظائفهم أو منحصاصاتهم من الصدقات . وكانت الأراضى والمباني المصادرة تدر دخلا سنويا قدره حوالى ٢٠٠.٠٠٠ جنيه

(٢٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ دولار ؟) ، غير أن عقود البيع التي أبرمت سريعا خفضت الدخل السنوى للأملاك بعد التأميم إلى حوالى ٣٧ر٠٠٠ جنيه ، ولا بد أن يضاف إلى هذا المبلغ ٨٥ر٠٠٠ جنيه من المعدن الثمين المصادر ، ومن ثم قد يبلغ ما حصل عليه هنرى إبان حياته من جملة الأسلاب والدخل حوالى ٥٠٠ر٢٣ر٤١ جنيه^(١٧).

وكان الملك سخيا بهذه الأسلاب . فقد وهب بعض هذه الممتلكات — ومعظمها باعه بأسعار بعد مساومة — لنبلأ صغار أو مواطنين أحرار كبار — تجار أو محامين — ممن أيدوه أو وجهوا سياسته . وتسلم كرومويل أو اشترى ستة أديار لها دخل سنوى قدره ٢٢٩٣ جنيتها ، وتسلم ابن أخيه سير رتشارد كرومويل سبعة أديار تدر دخلا قدره ٢٥٥٢ جنيتها^(١٨) وكانت هذه أصل الثروة التى جعلت من أوليفر الحفيد الثانى لرتشارد رجلا من رجال الثروة المادية والنفوذ فى القرن التالى . وذهبت بعض الأسلاب لبناء سفن وحصون وموانى وبعضها ساعد فى تمويل الحرب وذهب بعضها إلى القصور الملكية فى وستمنستر وتشلسى وهامبتون كورت ، وفقد الملك بعضها فى لعب النرد^(١٩) . وأعيدت ستة أديار إلى الكنيسة الانجليكانية لتستخدم كراسى أسقفية ، وخصص مبلغ صغير لمواصلة أعمال الر العاجلة التى كان يقدمها فيما سبق الرهبان والراهبات ؛ وأصبحت الأرستقراطية الجديدة التى نشأت بفضل هدايا هنرى وعقود البيع التى أبرمها ، عضدا قويا للعرش التيودورى ، ودعامة للمصلحة الاقتصادية ضد أى عودة للكاتوليكية . وقد أبادت الأرستقراطية الإقطاعية القديمة نفسها ، أما الأرستقراطية الجديدة ، التى تأصلت جذورها فى التجارة والصناعة ، فلإنها غيرت طبيعة الأشراف من السلبية المحافظة إلى عمل إيجابى ، وصبت دما جديدا وطاقة جديدة فى الطبقات العليا بإنجلترا . ولعل هذا — والأسلاب كان مصدر خصب العهد الإليزابيثى .

وكانت نتائج التحلل معقدة بلا حدود . ولعل الرهبان المتحررين قد أسهموا بدور متواضع أو لم يسهموا في زيادة عدد سكان إنجلترا من حوالى ٢٠٠.٠٠٠ عام ١٤٨٥ إلى حوالى ٤٠٠.٠٠٠ عام ١٥٤٧ (٢٠) وساعدت زيادة مؤقتة في عدد المتعطلين على تخفيض أجور الطبقات الدنيا جيلا كاملا ، وأثبت ملاك الأراضي الجدد أنهم أكثر جشعا من القدامى (٢١).

وكانت النتيجة من الناحية السياسية هي زيادة سلطة الملكية ، وفقدت الكنيسة آخر معقل للمقاومة ، وكانت النتائج من الناحية الأخلاقية ازدياد الجرائم والخصاصة والتسول وتقلص الموارد اللازمة لأعمال البر (٢٢). وأغلق ما يزيد على مائة مستشفى تديرها الأديار ، وقامت السلطات البلدية بتزويد قلة منها بالحاجة . أما المبالغ التي أوصت بها الأرواح الخائفة أو الموقرة للقساوسة ، كتأمين ضد نار جهنم أو نار المطهر ، فقد صودرت على أساس أن هناك أملا في ألا يلحق الموتى أذى ، وانتزع الملك (٢٣). ٢٣٧٤ من الهبات الموقوفة على إقامة قداسات للأرواح . وكالت أقصى النتائج في مجال التعليم . فقد كانت أديار الرهبان تهيئ مدارس للبنات ، وكانت الأديار والقساوسة المشرفون على الهبات المخصصة للقداسات قد حافظت على مدارس وتسعين كلية للبنين ، وحلت كل هذه المؤسسات .

وبعد أن ذكرنا الحقائق بإنصاف لا يشويه إلا تحامل يصدر عن اللاوعى ، فإنه يسمح للمؤرخ بإضافة تعليق اقتراضى يعترف به . إن جشع هنرى وجور كرومويل هما اللذان ساعدا مدى جيل على تخفيض حتمى في عدد الأديار الإنجليزية وإضعاف نفوذها . وكانت هذه الأديار قد قامت يوما بعمل يدعو للإعجاب في مجالات التعليم والبر والعناية بالمرضى في المستشفيات ، بيد أن إسباغ الصفة العلمانية على هذه الوظائف كان يسير قدمه في سائر أنحاء غربي أوروبا ، حتى في المناطق التي كانت تغلب عليها

المكاثوليكية : وكان ضعف الغيرة الدينية والنزعات الدنيوية الأخرى تحتجز تدفق المترهبين على المؤسسات الديرية . وانخفض عدد هؤلاء المترهبين إلى حد بدا أنه لا يتناسب مع فعامة مبانيهم والدخل الذى تدره أراضيهم . ومما يؤسف له أن الموقف قوئل بالاندفاع الفجائى اللفظ من كروويل ، بدلا من خطة وازي الإنسانية ، والأسلم ، وتنحصر فى تحويل المزيد من الأديار إلى كليات .

وكانت الوسيلة التى لجأ إليها هنرى هنا ، كما فعل من قبل فى سعيه للحصول على ابنه ، أسوأ من الهدف الذى يلبشه . لم يكن هنا بأس فى وضع نهاية ، إلى حد ما ، لاستغلال ورع ساذج بغش يتظاهر بالورع . وإننا لنعرب عن عظيم أسفنا لما حدث للراهبات اللاتى كن فى الغالب الأعم بشقين قياما بالواجب فى إقامة الصلوات والتدريس وأعمال البر ، بل إن المرء الذى لا يستطيع أن يشاركهن إيمانهن الذى لا يتزعزع يجب أن يكون شاكرا لأن هن مثيلات يمددن يد العون مرة أخرى ، بإخلاص بدوم مدى الحياة ، ويلببن حاجة المرضى والفقراء .

٢ - الأيرلندى العنيد ١٣٠٠ - ١٥٥٨

برر الملوك الإنجليز سيطرتهم على إيرلندة على أساس أن قوة معادية فى القارة يمكن فى أى لحظة أن تستخدم هذه الجزيرة المخضرة للقيام بهجوم جانبى على إنجلترا ، وأصبح هذا الاعتبار ، بعد حب السلطة ، أشد قوة عندما فشلت إنجلترا البروتستانتية فى كسب إيرلندة إلى صفها من الكنيسة الرومانية . وكان الشعب الأيرلندى ، الذى يعشق البطولة والفوضى والمشهور بالرجولة والعنف ، والموهبة الشاعرية ، والذى يقتدر إلى النضج السياسى ، يقاوم كل يوم خضوعه لدم أجنبى ولغة دخيلة .

وازدادت سيئات الاحتلال الإنجليزي . وعاد كثير من ملاك الأراضي ،
الإنجليز - إيرلنديين إلى إنجلترا في عهد إدوارد الثالث ، ليعيشوا هناك في
يسر على ما تدره إيجارات الأراضي الإيرلندية ، وعلى الرغم من أن المجلس
النيابي الإنجليزي ندد مراراً بهذا العمل فإن « مأكية الأرض الغائبة » ازدادت
خلال ثلاثة قرون ، لتصبح حافزاً أكبر للثورات الأيرلندية . ومال الإنجليز
الذين ظلوا في إيرلندا إلى الزواج من فتيات إيرلنديات ، وامتزجوا تدريجاً
بالدم الإيرلندي ، وألفوا طرق العيس الإيرلندية . وكان المجلس النيابي
الإيرلندي ، الذي يسيطر عليه المقيمون الإنجليز ، ويغلب عليه النفوذ
الإنجليزي ، تواقاً إلى سد هذه البالوعة الساللية فأجاز قانون كالكنتي الشهير
(١٣٦٦) الذي منع ، مع بعض النصوص السخية التي لا تخلو من حكمة
الزواج المختلط أو التريب أو أى علاقات ألفة أخرى بين الإنجليز والإيرلنديين
في إيرلندا وأى حديث بالإيرلندية أو تقليد للعادات الإيرلندية أو ارتداء
النزى الإيرلندي بواسطة الإنجليز ، وإلا تعرضوا للسجن وخسارة الممتلكات .
ولم يكن يحق للإيرلندي آنذاك أن يستقبل في أى منظمة دينية إنجليزية ،
ولا لمنشدين أو قصاصين إيرلنديين أن يدخلوا بيوتا إنجليزية^(٢٤) . وفشل هذا
الحظر فقد تألفت الورود الإيرلندية ، وفاقته سلطة القانون واستمر الاندماج
السلالى في تلك المناطق الضيقة مارش أو بوردر أو بيل التي لم يجرؤ الإنجليز
على السكنى إلا فيها وحدها(*) .

وكان يمكن إيرلنده إبان حروب الوردتين أن تطرد الإنجليز ، لو أن
الزعماء الإيرلنديين اتحدوا ، ولكنهم آثروا النزاع الأخوى ، وشجعهم
أحياناً على هذا الذهب الإنجليزي . ووطد هنرى السابع من جديد السلطة

(*) كانت منطقة « بيل » في عام ١٥٠٠ مقصورة على كونتيات دبلن وميث واوث

وجزء من كيلدار .

الإنجليزية في منطقة بيل ، ودفع نائبه الإقطاعي سير إدوارد بويننجز في المجلس النبائي الأيرلندي « قانون بويننج » المذل (١٤٩٤) ، ونص على أنه ليس للمجلس النبائي الأيرلندي أن ينعقد . المستقبل حتم ، تكون كل مشروعات القوانين المقدمة له قد وافق عليها الملك والمجلس الخاص في إنجلترا .

وأصبحت الحكومة الإنجليزية في إيرلندة ، بعد أن أضعفت إلى هذا الحد ، أشد الحكومات في العالم المسيحي عجزاً وجوراً وفساداً . وكانت حيلتها الأثيرة هي تعيين واحد من سنين زعماء إيرلنديا كمندوب لنائب الملك . وتفويضه في شراء أو إخضاع الباقين . وحقق جيرالد إيرل كلدار الثامن ، الذي عين على هذا النحو ، شيئاً من التقدم في هذا الاتجاه وخفف من حدة التمرد بين القبائل ، مما ساعد المظالم الإنجليزية على إبقاء إيرلندة ضعيفة وفقيرة . وعند وفاته (١٥١٣) عين ابنه جيرالد فيتزجيرالد ليخلفه كنائب . وكان لهذا الإيرل التاسع لكلدار سير حياة جارية نمطية للوردات الأيرلنديين . واتهم بالتآمر مع إيرل أف دزموند بالسماح لقوة فرنسية بالنزول إلى أرض إيرلندة ، فاستدعى إلى إنجلترا وحكم عليه بالسجن في البرج . وأطلق هنري الثامن سراحه ، وعينه من جديد نائباً لدى وعده بمساعدة القضية الإنجليزية بإخلاص . وسرعان ما أتهم بسوء الحكم وأحضر إلى إنجلترا مرة أخرى وأرسل من جديد إلى البرج حيث مات خلال عام (١٥٣٤) ، وأعلن ابنه المخلص « سلكين توماس » (توماس الحريري) Fitzجيرالد على الفور الحرب على الإنجليز ، وحارب بشجاعة وتهور أربعة عشر شهراً وقهر وشتى (١٥٣٧) .

وفي هذا الوقت كان هنري الثامن قد أكمل إجراءات انفصاله عن الكنيسة الرومانية . وأمر المجلس النبائي بقمحة تميزها أن يعترف به رئيساً للكنيسة في إيرلندة ، وكذلك في إنجلترا ، فأذعن ، وطلب من جميع الموظفين

الحكوميين في إيرلندة أن يحلفه ايميناً بقبول سيادته الكنسية ، وفرض أن تدفع كل ضرائب العشور الكنسية منذ ذلك إلى الملك . ودخل المصلحون الدينيون إلى الكنائس في منطقة النفوذ الإنجليزي في إيرلندة وحطموا المخالفات والمآثريل الدينية . وأغلقت الأديار جميعاً ما عدا قلة في مكان قصي ، واستولت الحكومة على ممتلكاتها ، وطرد رهبانها على أن يمنحوا معاشاً إذا لم يثيروا ضجيجاً . ووزعت بعض الأسلاب على الزعماء الإيرلنديين وقبل معظمهم ، بعد أن رشوا على هذا النحو ، ألقاب نبلاء من الملك الإنجليزي ، واعترفوا بسيادته الدينية وأنكروا قسمهم للبابا (١٥٣٩) (٢٥) . وألغى نظام العشرة ، وأعلن أن إيرلندة مملكة ، وهنرى ملك لها (١٥٤١) .

كان هنرى منتصراً ولكنه فان ، ومات في خلال خمس سنوات من انتصاره . وبقيت الكاثوليكية في إيرلندة . واعتبر الزعماء مروقهم حادثاً عابراً في السياسة وظلوا كالكافة (كما فعل هنرى) ، اللهم إلا فيما يختص بتجاهل البابا ، وظل القساوسة الذين أيدهم في خدماتهم الدينية وتقبلوها محافظين تماماً في العقيدة . ولم تتعرض عقيدة الشعب لأي تغيير أو بالحرى اكتسبت حيوية جديدة ، لأنها حافظت على عزة القومية في وجه ملك ينزع إلى الانشقاق ، وفيما بعد أمام ملكة بروتستانتية . وأصبح الكفاح من أجل الحرية أشد مما كان عليه من قبل ، لأنه كان وقتذاك يدور لصالح الجسد والروح .

٣ - ملك من قمة رأسه إلى اخمص قدميه

كان هنرى في عام ١٥٤٠ أعظم ملك يحكم حكماً مطلقاً عرفته إنجلترا . وكان النبلاء النورمنديون القدامى الذين كبحوا جماح وليام الفاتح ، يخضعون صاغرين في جبن ، ونسوا تقريباً العهد الأعظم (الماجنا كارتا) الذي نص

على امتيازاتهم . أما النبلاء الجدد ، الذين أثروا من التجارة وأنعم عليهم الملك ، فقد وقفوا حاجزا أمام الثورات الأرسقراطية أو الدينية . وأذعن له مجلس العموم الذى كان يوما الحامى الغيور للحرريات الإنجليزية ، وكان وكلاء الملك وقتذاك قد اختاروه بعناية ، وخول تقريباً سلطات لم يسبق لها مثيل : الحق فى مصادرة الأملاك وتعيين من يشاء خلفاً له ، وتجديد العقيدة المحافظة والمهرطقة ، وإرسال رجال للإعدام بعد محاكمة مزيفة ، وإصدار إعلانات لها سلطة القوانين الصادرة من المجلس النيابى « كانت روح الاستقلال الإنجليزية فى عهد هنرى تشتعل خافتة فى قلبها وحب الحرية غدا فاتراً » (٢٦) . وقبل الشعب الإنجليزي هذا الحكم المطلق بسبب الخوف من ناحية ؛ ولأنه خيل إليه أنه البديل للحرب ورد أخرى . كان النظام أهم من الحرية .

وأغرت نفس البديلات الإنجليزي بتحمل سيادة هنرى على الشئون الكنسية ، وعند ما رأى هنرى أن الكاثلكة والبروتستانت على استعداد لأن يمسك كل منهما بخناق الآخر ، ورأى أن المواطنين الكاثوليك والسفراء والحكام يتآمرون ضده إلى حد الغزو تقريباً ، اعتقد أن النظام لا يمكن أن يستتب فى الحياة الدينية فى إنجلترا إلا بتحديد الملك للعقيدة والشعبية ، وقبل ضمناً حالة السلطة فى الدين التى كانت من صنع الكنيسة . وحاول أن يعلى من يجب أن يتلو الكتاب المقدس . وعند ما صادر الأساقفة ترجمة تنال للكتاب المقدس ، أمرهم بإعداد ترجمة أفضل ، وعند ما توانوا طويلاً سمح لكرومويل بتفويض مايلز كوفردال فى إعداد ترجمة جديدة . وظهرت أول نسخة كاملة بالإنجليزية فى زيورخ عام ١٥٣٥ . ونشرت عام ١٥٣٩ طبعات متقحة ، وأمر كرومويل بأن يوضع هذا « الكتات المقدس العظيم » فى كل كنيسة إنجليزية . ومنح هنرى « بلافع من الكرم والطيبة الملكيين » المواطنين امتياز تلاوة الكتاب المقدس فى بيوتهم ، وسرعان ما أصبح تقليداً

يوميا عند كل أسرة إنجليزية تقريبا . ولكنه كان يذبوعا للشقاق والإلغام أيضا ، فقد أثبتت كل قرية مفسرين هواة ، أثبتوا أى شيء أو عكسه بما ورد في الكتاب المقدس ، وتجادل المتعصبون حوله في الكنائس ، وتعرضوا لضربات بشأنه في الحانات (٢٧) . ومنح بعض الرجال الطموحين زوجاتهم أوامر قضائية بالطلاق ، أو احتفظوا بزوجتين في آن واحد ، بحجة أن هذا عمل سليم أباحه الكتاب المقدس (٢٨) . وأسف الملك لحرية الغلاوة التي منحها للناس ، وعاد إلى مظاهرة الكاثوليك ، وحث المجلس النيابي عام ١٥٤٣ على سن قاعدة بأنه لا يجوز قانونا حيازة الكتاب المقدس إلا للنبلاء والملوك ، ولا يجوز لغير القساوسة الوعظ به أو الجدل فيه علنا (٢٩) .

وكان من الصعب على الناس - وحتى على الملك - أن يعرف ما يدور في ذهن الملك . واستمر الكاثوليكية يرسلون إلى المحرقة أو المقصلة بسبب إنكارهم سيادته في الشئون الكنسية ، والبروتستانت بسبب جدلهم في اللاهوت الكاثوليكي ، و«سُلِّق فورست وهو رئيس شعبة المتشددين من الفرنسيين الممثلين في جرينوتش ، رفض أن ينكر ساطة البابا ، على نار وهو مكبل بالأغلال ، وشوى ببطء حتى مات (٣١ مايو سنة ١٥٣٧)» (٣٠) .

وقبض على جون لامبرت ، وهو بروتستانتي بسبب إنكاره وجود المسيح حقيقة في القربان المقدس ، وحاكمه هنري بنفسه ، وحكم عليه هنري بالموت وأحرق في سميثفيلد (١٦ نوفمبر سنة ١٥٣٨) ومع تزايد تفوذ ستيفن جاردنر أسقف ونشستر مال هنري أكثر وأكثر نحو العقيدة المحافظة ، وفي عام ١٥٣٩ أعلن الملك والمجلس النيابي والمجمع الاكثيوسى بـ « قانون المواد الستة » موقف الكنيسة الرومانية الكاثوليكية في موضوعات الحضور الحقيقي للمسيح وعزوبة رجال الاكليروس وأقسام رهبان الدير والقداسات من أجل

الموتى ، وضرورة الاعتراف السرى أمام قسيس وكفاية تناول القربان المقدس من ضرب واحد . وكل من ينكر شفائها أو كتابة ، الحضور الحقيقى للمسيح ، يتعرض للموت حرقا دون أن تتاح له فرصة لإنكار ما قال أو للاعتراف أو الغفران ، وكل من ينكر أية مادة أخرى يجب أن تصادر أملاكه عند ارتكابه الذنب لأول مرة وتزهق روحه عند ارتكابه له مرة أخرى .

وأعلن أن كل الزيجات التى عقدها القساوسة حتى وقتذاك باطلة ، وأى قسيس يحتفظ بزواجه بعد ذلك يعد مرتكباً لجريمة الخيانة العظمى (٣١) . وكان الناس لا يزالون محافظين من حيث العقيدة ، فوافقوا على هذه المواد ، غير أن كرومويل بذل جهده لتخفيفها عند التطبيق ، وفى عام ١٥٤٠ تحول الملك مرة أخرى ، فأمر بوقف المطاردة بموجب هذا القانون . . . ومع ذلك فإن الأسقفين لانيمر وشاكستون ، اللذين لم يوافقا على مواد القانون ، عزلا وسجنا . وفى يوم ٣٠ يوليو سنة ١٥٤٠ تعرض ثلاثة من البروتستانت وثلاثة من الكاثوليك للموت فى سميثفيلد فى وفاق تم رغم إرادتهم ، أما البروتستانت فلأنهم حاولوا التشكيك فى بعض العقائد الكاثوليكية ، وأما الكاثوليك فلأنهم رفضوا الاعتراف بسيادة الملك على الشئون الكنسية (٣٢) . وكان هنرى قويا شديداً فى الحكم وفى اللاهوت ، وعلى الرغم من أنه احتفظ بحاشية كثيرة العدد ، وقضى وقتاً طويلاً فى التهام الطعام ، فإنه تعب كثيراً فى الاضطلاع بأعباء الحكم . واختار أعواناً مهرة جائرين مثله . وأعاد تنظيم الجيش ، وجهزه بأسلحة جديدة ، ودرس آخر ما توصل إليه الخبراء فى التكتيك والاستراتيجية . وبنى أول أسطول بحرى ملكى دائم طهر السواحل والقناة من القراصنة ، وأعد العدة للانتصارات البحرية التى تمت فى عهد اليزابث ، ولكنه فرض على شعبه مكوساً إلى الحد الذى

يحتمله ، وخفض قيمة العملة مراراً ، وصادر الأملاك الخاصة بمحجج واهية ، أو طلب « اشتراكات » ، وأنكر ديونه ، واقترض من آل نوجر ، وروج الاقتصاد الإنجليزي مؤملاً أن يعود عليه بدخل إضافي .

وكانت الزراعة في تدهور ، وكان رق الأرض لا يزال منتشرأ . ولم ينقطع تسوير الأراضي لترعى فيها الأغنام وضاعف ملاك الأراضي الجدد ، الذين لم تصدهم تقاليد الإقطاع ، لإيجارات الأراضي مرتين أو أربع مرات على مستأجريهم ، بحجة ارتفاع الأسعار ، ورفضوا تجديد عقود الإيجار المنتهية « وشق آلاف من المستأجرين الذين جردوا من أراضيهم المستأجرة طريقهم إلى لندن وطرقوا بشدة أبواب المحاكم لرفع الظلم ، وهو أمر لم يستطيعوا الحصول عليه (٣٣) » .

ورسم مور الكاثوليكي صورة مؤثرة للفلاحين المتسولين (٣٤) ، وندد لاتيمر البروتستانتي بـ « اللوردات الحديدية النعمة الذين يرفعون الإيجارات » ، ورأى مثل لوثر ماضياً مثالياً كاثوليكياً . عندما كانت أفئدة الرجال مفعمة بالشفقة والحنان (٣٥) . « وفرض المجلس النيابي عقوبات صارمة على الضرب في الآفاق والتسول . وكان قانون ١٥٣٠ - ٣١ يفرض على كل من يتسول ، ويكون قادراً جسدياً على العمل ، سواء كان رجلاً أو امرأة ، أن يشد وثاقه إلى عربة وهو عار ويحلد بالسياط في سائر أنحاء المدينة إلى أن يتلطيخ جسده بالدم » . وإذا عاد لارتكاب الذنب مرة أخرى تقطع أذنه ، وإذا ارتكب مرة ثالثة تقطع أذنه الأخرى ، ومهما يكن من أمر فإن ارتكاب الذنب للمرة الثالثة كان يعرض المتسول للإعدام (٣٦) . ووجد الفلاحون المبعدون تدريجاً عملاً في المدن وخففت الإغاثة المقررة للفقراء من وقع الخصاصة . وارتفعت إنتاجية الأرض في آخر الأمر بالزراعة على نطاق واسع بيد أن عجز الحكومة عن تخفيف التحول كان بمثابة فشل لإجرامى قاس للحنكة السياسية .

وأسبغت الحكومة نفسها الحماية على الصناعة بالتعريفات الجمركية : وأفاد أصحاب المصانع من وخص أجر العمل ، الذى تيسر بهجرة الفلاحين للمدن ، وأعادت الطرق الرأسمالية تنظيم صناعة النسيج ، ورفعت طبقة جديدة من الأثرياء ، لتقف إلى جانب التجار فى مساندة الملك . وحل القماش محل الصوف باعتباره أهم صادرات إنجلترا . وكانت معظم الصادرات من الضروريات التى تنتجها الطبقة الدنيا ، وكانت معظم الواردات من سلع الترف التى لا يحصل عليها إلا الأغنياء (٣٧) .

وأفادت التجارة والصناعة من قانون صدر عام ١٥٣٦ يغير أسعار الفائدة بواقع ١٠ فى المائة . وكان ارتفاع الأثمان السريع فى صالح المشروع وبمباشرة عقاب حكم به على العمال والفلاحين والوردات الإقطاعيين من النخط القديم . وارتفعت الإيجارات إلى ١٠٠٠ فى المائة بين عامى ١٥٠٠ و ١٥٧٦ (٣٨) . وارتفعت أسعار الطعام من ٢٥٠ إلى ٣٠٠ فى المائة ، وارتفعت الأجور بمقدار ١٥٠ فى المائة (٣٩) . وكتب توماس ستار فى حوالى عام ١٥٣٧ : « أن الفقر يسود الآن إلى حد يقف فيه أمام أى خير حقيقى ومزدهر للجماعة » (٤٠) .

ووجد أعضاء الطوائف الحرفية شيئاً من الفرج فى التأمين والمساعدة المتبادلة ، زودهم بما يسد رمقتهم ، أمام الفقر والنار ، غير أن هنرى صادر عام ١٥٤٥ أملاك الطوائف الحرفية (٤١) .

٤ - التنين بثناعد

أى ضرب من الرجال كان هذا الملك الغول ؟ لقد رسم هولبين الصغير ، الذى جاء إلى إنجلترا حوالى عام ١٥٣٦ ، صورا شخصية لهنرى وجين سيمور . فالكساء الفاخر يكاد يخفى بدانة الملك ، والأحجار الكريمة

وفرو الفاقم ، واليد التي تقبض على سيف محلى بالجواهر ، تكشف عن استعلاء السلطة وزهو رجل لم يجد من يقاومه ، والوجه العريض المكتنز ينم على ميل شديد للذات الحسية ، والأنف دعامة قوة ، والشفتان المضغوطتان والعينان القاسيتان تنم على طاغية مستبد سريع الغضب بارد إلى حد القسوة . وكان هنرى وقتذاك فى السادسة والأربعين ، فى أوج مجده السياسى ، ولكن بدأ الضعف يدب فى جسده . وقدر له أن يتزوج ثلاثا مرة أخرى ، ومع ذلك لم يرزق بعدها بذرية . ولم ينجب من زوجاته الست سوى ثلاثة أطفال ، عاشوا إلى ما بعد سن الطفولة . وأحد هؤلاء الثلاثة ، وهو إدوارد السادس ، كان معتل الصحة ، ومات فى الخامسة عشرة من عمره ، وظلت مارى عاقراً بائسة عندما تزوجت ، أما الزباث فلأنها لم تجرؤ قط على الزواج ، وربما كان ذلك لشعورها بوجود عائق جسمانى . وأصابت لعنة شبه العقم أو العيب الجسمانى أعظم الأمر الحاكمة اعتزازاً بنفسها فى التاريخ الإنجليزى .

وكان هنرى حاد الذهن وحكمه على الرجال يدل على الفراهة ، وشجاعته عظيمة ، وقوة إرادته هائلة . وكان سلوكه فظا ، ووساوسا تبددت مع شبابه . ومهما يكن من أمر فإنه ظل مع أصدقائه شفوفاً كريماً ، ولطيفاً بشوشاً ، قادراً على كسب ودهم وإخلاصهم . وقد ولد ليكون ملكاً ، وأحيط منذ ولادته بالخضوع والملق ، ولم يجرؤ على معارضته إلا تليلون ، وقد دفنوا بعد أن قطعت رءوسهم . وكتب مور من سجن البرج : « مما يؤسف له كثيراً ولا شك أن نرى أى أمير مسيحي على استعداد لأز يلبى رغباته بواسطة مجلس ركع أمامه ، وبوساطة رجال دين ضعاف . . . والملق ، فاشتط فى ظلم الناس بصورة مخجلة (٤٢) » ، كان هذا هو المصدر الخارجى لتكوص هنرى على عقبيه فى الخلق — فقد أدى عدم وجود مقاومة

لإرادته ، بعد وفاة مور ، إلى أن يصبح خائراً معنوياً وبدنياً . ولم يكن أكثر تهاوناً في المجلس من فرانسيس الأول ويبدو أنه بعد حادث آن بولين قد أصبح أشد تمسكاً للزواج بواحدة ، على التوالي ، من شارل الخامس . ولم يكن الانحلال الجنسي أسوأ نقيصة فيه . وكان نهمة للمال لا يقل عن نهمة للسلطة ، وقلما سمح لاعتبارات الإنسانية أن تقف في وجه استيلائه على الأموال ؛ وليس من شك في أن استعداده المقسم بالحدود لقتل النساء اللاتي أحبن أو الرجال ، أمثال مور وكرومويل ، الذين خدموه بإخلاص سنوات طوال ، أمر خسيس ، ومع ذلك يمكن القول أنه لم يسفك من الدماء عشر ما سفكه شارل التاسع حسن النية ، عندما أجاز مذبحه سانت بارتولميو ، أو شارل الخامس عندما صفح عن نهب روما ، أو الأمراء الألمان عندما حاربوا ثلاثين عاماً للحصول على حقهم في تحديد المعتقدات الدينية لرعاياهم .

والأصل الداخلي لفساده هو ما تعرضت له لإرادته من إحباط متكرر في الحب والأبوة . فقد خاب أمله طويلاً في الحصول على ابن ، وصعد بطريقة خادعة في طلبه المعقول لإعلان بطلان زواجه الأول ، وخدعته (كما اعتقد) الزوجة التي خاطر من أجلها بعرشه ، وفقد سريعاً الزوجة الوحيدة التي أنجبت له وريثاً ، وخدعته في الزواج امرأة أجنبية تختلف عنه تماماً في اللغة والمزاج ، وخائنه (كما ظن) زوجة خيل إليه أنها ستحقق له آخر الأمر بيتاً تحيم عليه السعادة — ها هو ملك كان يملك إنجلترا بأسرها ، ولكنه حرم من المباهج العائلية التي يستمتع بها أبسط زوج في مملكته ، وكان يعاني من ألم متقطع بسبب قرحة في ساقه ، وكافح الثورات والأزمات في سائر مدة حكمه ، واضطر في كل لحظة تقريباً أن يتسلح لصد الغزو والخيانة والاختيال — فكيف كان في وسع رجل مثل هذا أن ينمو ويصبح سوياً ، أو يتحاشى الفساد والتورط في الشك والدهاء

والقسوة ؟ وكيف يتأتى لنا ، نحن الذين نغضب من وخز محنة نتعرض لها ، أن نفهم رجلا جمع في عقله وفي شخصه عاصفة الإصلاح الدينى الإنجائى وثقله ، وحرَم شعبه بخطوات مخفوفة بالمخاطر من ولاء جذوره عميقة ، ومع ذلك لا بد أنه كان حرياً بأن يشعر فى روحه المنقسمة بدهشة مفتتة - أحرر أمة أو مزق شمل المسيحية ؟

كان الوسط الذى عاش فيه هو الخطر وكذلك السلطة . ولم يكن فى وسعه قط أن يعرف المدى الذى يصل إليه أعداؤه ، أو متى ينجحون . وفى عام ١٥٣٨ أمر بالقبض على سير جيوفرى بول شقيق ريجينالد . وخشى جيوفرى أن يتعرض للتعذيب ، فاعترف بأنه هو وشقيق آخر يدعى اورد مونتاجو ، وسير إدوار فيفيل والمركز والمركيزة أف إكستر كانوا يتبادلون رسائل تنطوى على خيانة الدولة مع الكاردينال . وظفر جيوفرى بالصفحة أما إكستر ومونتاجو وآخرون عديدون فقد شقوا وشطروا إلى أربعة أقسام (١٥٣٨ - ٣٩) ، وأما ليدى إكستر فقد سجنّت ، ووضعت الكونتيسة أف سالزبورى ، والدة بول وإخوته الأشقاء تحت الحراسة . وعندما زار الكاردينال شارل الخامس فى طليطلة (١٥٣٩) يحمل له طلباً لا طائل تحته . من بول الثالث يرجو فيه من الإمبراطور أن ينضم إلى فرانسيس فى تحريم التجارة مع إنجلترا (٤٣) ، انتقم هنرى بالقبض على الكونتيسة ، التى كانت وقتذاك فى السبعين من عمرها ، ولعله كان يأمل بالاحتفاظ بها فى البرج ، أن يكبح جماح الكاردينال للغزو . كان كل شيء عادلاً فى لعبة الحياة والموت :

وبعد أن ظل هنرى عامين دون أن يتزوج أمر كرومويل أن يبحث له عن حليف بالمصاهرة يقوى سلطانه ضد شارل . فنصح كرومويل بالزواج من أن أخت زوجة الأمير المختار لسكسونيا ، وشقيقة الدوق أف كليفس الذى كان وقتذاك على خلاف مع الإمبراطور . وآلى كرومويل على نفسه

أن يتم هذا الزواج الذى كان يعلق عليه آمالاً بتكوين حلف من الولايات البروتستانتية آخر الأمر ، وبهذا يجبر هنرى على إلغاء المواد الست المناهضة للوثر . وأرسل هنرى المصور هولبين لرسم صورة للسيدة ، ولعل كرومويل أضاف بعض التعليمات للفنان ، وجاءت الصورة ، ورأى هنرى أنها محتملة ، فهى تبدو حزينة ، لا تشجع فى الصورة التى رسمها هولبين ، والمعلقة فى متحف اللوفر ، ولكن تقاطيعها ليست أقل وضوحاً من جين سيمور التى رقت لحظة من قلب الملك .

وعندما جاءت آن بشحمها ولحمها ، ووقعت أنظار هنرى عليها (أول يناير سنة ١٥٤٠) مات الحب لدى أول نظرة . وأغمض عينيه وتزوجها ، وتضرع مرة أخرى أن يرزقه الله بابن يوطد به ورائة العرش فى آل تيودور ، إذ كان مظهر الأمير إدوارد وقتذاك يدل على ضعفه الجسمانى . ولكنه لم يصفح قط عن كرومويل .

وأمر بالقبض على وزيره الذى أفاده أكثر من أى وزير آخر بعد أربعة شهور زاعماً غلظه وفساده . ولم يكن يعترض ، فقد كان كرومويل تابعاً يحظى بأكبر نصيب من الكراهية فى إنجلترا — بسبب أصماه ووسائله وخسته وثروته . وطلب فى سجن البرج أن يوقع بيانات يعارض فيها صحة الزواج . وأعلن هنرى أنه لم يكن قد قدم « رضاه الباطنى » عن الزواج ، وأنه لم يدخل بزوجه قط . واعترفت آن بأنها لا تزال عذراء ووافقت على بطلان الزواج ، مقابل معاش يوفر لها سبيل الراحة . وكرهت أن تواجه أخاها ، فاختارت أن تعيش وحيدة فى إنجلترا ، وكان لها عزاء صغير فى أنها دفنت فى مقابر دير وستمنستر عند وفاتها (١٥٥٧) . وقطعت رأس كرومويل يوم ٢٨ يوليو سنة ١٥٤٠ هـ

وفى اليوم نفسه تزوج هنرى من كاثرين هوارد ، البالغة من العمر

عشرين عاماً ، وهى من أسرة كاثوليكية لا تحيد عن عقيدتها قيد أنملة ، وكان هذا كسباً للحزب الكاثوليكي . وكف الملك عن أن يتقرب من البروتستانت بالقارة ، وعقد صلحاً مع الإمبراطور . وعندما شعر بأنه أصبح أخيراً آمناً فى ذلك الحمى تحول بفكره شمالاً معلقاً الآمال على ضم لاسكوتلنده ، وبذلك يكمل دائرة الحدود الجغرافية لبريطانيا ويضمن لها الأمن . وصرفته عن هذا ثورة أخرى فى شمالى إنجلترا . وقبل أن يرحل لقمعها وإخاد مؤامرة دبرت وراء ظهره ، أمر بإعدام جميع المسجونين السياسيين فى البرج ومنهم الكونتيسة أف سالزبورى (١٥٤١) . وانهارت الثورة وعاد هنرى إلى هامبتون كورت يتخبط فى الحُموم ، لينشد السلاوى عند ملكته الجديدة .

وكانت كاترين الثانية أجمل زوجاته ، وتعلم الملك كيف يحبها تقريباً ، وهو يعتمد أكثر من قبل على الخدمات الجديرة بزوجة ، وحمد الله على الحياة الطيبة التى كان يعيشها ، والتى راوده الأمل فى أن يحققها تحت إشرافها ، ولكن فى اليوم الذى ردد فيه تسبيحة للشكر هذه (٢ نوفمبر سنة ١٥٤١) سلمه رئيس الأساقفة كرانمر وثائق تدل على أن كاترين كانت لها علاقات سابقة للزواج مع ثلاثة خاطبين متعاقبين : واعترف اثنان من هؤلاء وكذلك اعترفت الماكة . وقال السفير الفرنسى فى تقرير له : أن هنرى تملكه حزن شديد ، حتى ساد الاعتقاد بأنه جن^(٤٤) . وأمضه الخوف من أن تكون لعنة الله قد حلت بكل زيجاته . وكان يميل إلى الصفح عن كاترين ، ولكن قدم إليه دليل على أنها اقترفت الزنا مع ابن عمها بعد زواجها بالملك . وأقرت بأنها استقبلت ابن عمها فى جناحها الخاص فى ساعة متأخرة بالليل ، ولكن حدث هذا فى حضور اليدى روشفورد ، وأنكرت أنها ارتكبت أى ذنب وقتها ، أو فى أى وقت منذ زواجها ، وشهدت ليدى روشفورد بصحة هذه البيانات بقدرما وصل إلى علمها^(٤٥) . بيد أن المحكمة

الملكية أعلنت أن الملكة مذنبه . وفي يوم ١٣ نوفمبر سنة ١٥٤٢ قطع رأسها في نفس البقعة التي سقط فيها رأس آن بولين قبل ذلك بست سنوات ، أما عشاقها فقد حكم عليهم بالسجن مدى الحياة .

وكان الملك وقتذاك رجلاً محطماً . وأعيت قرعته طب عصره ، وكان الزهرى للذى لم يشف منه تماماً ينتشر ويعيث فساداً في هيكله^(٤٦) . وبعد أن فقد لذة الحياة سمح لنفسه بأن يصبح كتلة ضخمة من اللحم ، وكان خداه متهدلين ويكادان يغطيان فكيه ، وكادت عيناه الضيقتان أن تختفيا في تلافيف وجهه . ولم يكن في وسعه أن يسير من غرفة إلى أخرى دون أن يستند إلى أحد . وأدرك أنه لن يعيش إلا بضعة سنوات فأصدر (١٥٤٣) مرسوماً جديداً يحدد فيه وراثته عرشه : يتولاه أولاً إدوارد ثم ماري ثم اليزابث ، ولم يذهب إلى أبعد من ذلك ، لأن من تليهم في سلسلة النسب هي ماري ستيوارت ملكة اسكتلنده . وقام بمحاولة لكي ينبغي ولداً صحيحاً معافى ، بعد أن حثه مجلسه مراراً فبنى بزوجة سادسة (١٢ يوليو سنة ١٥٤٣) . وكانت كاترين بار قد عاشت بعد وفاة زوجين سابقين ، ومع ذلك فإن الملك لم يعد يصبر على الزواج من عذارى . وكانت امرأة على حظ من الثقافة والفطنة ، فقامت برعاية مريضها الملك في صبر ، وصالحته مع ابنته اليزابث ، التي طال إهماله لها ، وحاولت أن تُلطف لاهوته ، وتخفف حماسته للاضطهاد .

ولم تنقطع المشاعل اللاهوتية حتى نهاية حكمه ، فأحرق ستة وعشرون شخصاً بتهمة الهرطقة في الثماني السنوات الأخيرة من عهده . وفي عام ١٥٤٣ أبلغ الجواسيس الأسقف جاردنر أن هنرى فيلمر قال : « إذا كان الرب موجوداً حقاً (في القربان المقدس) فلنأى أكون قد أكلت في حياتي عشرين ربا ، د وأن روبرت تستوود حذر القسيس عند رفع القربان المقدس ، من أن يترك الرب يسقط ، وأن أنتوني بيرسون وحصف كل

قسيس يعظ الناس بأى شيء سوى « كلمة الله » — أى الكتاب المقدس — يكون لصاً . وأحرق كل هؤلاء الرجال تنفيذاً لأوامر أصدرها الأسقف الإنجليكاني ، فى مرج أمام القصر الملكى فى وندسور . وانزعج الملك لأنه وجد أن الدليل الذى قدمه شاهد فى هذه القضايا كان قسماً زوراً ، وأرسل الجانى الأثيم إلى سجن البرج (٤٧) . وفى عام ١٥٤٦ أدين جاردنر أربعة آخرين ، وأرسلهم إلى المحرقة لإنكارهم وجود المسيح حقاً فى القربان المقدس ؛ وكانت إحداهم امرأة شابة تدعى آن اسكيو تشبث بهرطقتها طوال خمس ساعات من الاستجواب وقالت فى محاكمتها : « إن ما تسمونه ربكم قطعة من الخبز ، والدليل على ذلك أنكم لو تركتموها فى صندوق لمدة ثلاثة شهور لتعفنت » . وعذبت حتى أشرفت على الموت لكي تكشف عن أسماء هراطقة آخرين ، وظلت صامتة لم تنبس ببنت شفة ، وهى تتوجع ، وسارت إلى حتفها وهى تقول : « إننى سعيدة كواحدة كتب عليها أن تنجى السماء » (٤٨) . ولم يكن للملك دور فعال فى هذه المطاوعات غير أن الضحايا استغاثوا به دون جدوى .

واشتبك عام ١٥٤٣ فى حرب مع اسكتلنده و « وأخيه المحبوب » فرانسيس الأول ، ومرعان ما وجد نفسه متحالفاً مع عدوه القديم شارل الخامس ، ولكى يمول حملاته طالب رعاياه بتقديم « قروض » جديدة ، وامتنع عن سداد قروض عام ١٥٤٢ وصادر الهبات للجامعات (٤٩) . وحمل إلى ميدان القتال ليشارك فيها شخصياً وأشرف على حصار بولونيا والاستيلاء عليها . وغزت جيوشه اسكتلنده ، وهدمت أديار ملروز ودرايبورج وخمسة أديار أخرى ، ولكنها هزمت هزيمة منكرة فى أنكرم مور (١٥٤٥) . وأبرم اتفاق فيه فائدة مع فرنسا (١٥٤٦) ، واستطاع الملك أن يموت فى سلام .

وكان وقتذاك ضعيفاً واهناً إلى حد أن الأسر النبيلة أخذت تتنازع

فيما بينها على من تكون له الوصاية على إدوارد الصغير . وكان إيرل أف مسورى ، وهو شاعر ، واثقا أن أباه الدوق أف يورك سوف يكون وصيا إلى حد أنه اتخذ درعا وضع عليه شارة لا تصلح إلا لولى العهد، وقبض هنرى عليهما معا فاعترفا بأنهما مذنبان وقطع رأس الشاعر فى التاسع من يناير عام ١٥٤٧ ، أما الدوق فقد سجل فى قائمة انتظار الذين ينفذ فيهم حكم الإعدام بعد السابع والعشرين فورا .

ولكن الملك مات فى اليوم الثامن والعشرين . وكان فى الخامسة والخمسين من عمره ، ولكنه عاش عمره عشرات المرات . وترك مبلغا كبيرا . يدفع لإقامة قداسات لكى ترقد روحه فى اطمئنان .

وقد دام عهده سبعة وثلاثين عاما ، حول إنجلترا إلى بلاد أخرى أعمق مما كان يتصور أو يشتمى : وفكر فى أن يخلف البابا ، ويترك العقيدة القديمة التى عودت الناس على القبول الأخلاقية والخضوع للقانون دون أن يمسهما بتغيير ، ولكن تحديه للبابوية الذى صادفه التوفيق ، وتشبثه السريع للربان والخلفات ، وإذلاله المتكرر لرجال الإكليروس ، ونزعه للملكية الكنيسة وإسباغ الصفة العلمانية على الحكومة ، كل ذلك أضعف الهيبة الكنسية والسلطة الدينية إلى حد كبير ، مما أدى إلى حدوث التغييرات اللاهوتية التى أعقبت ذلك فى عهدى إدوارد واليزابث . كان الإصلاح الدينى الإنجليزى أقل اعتمادا على العقيدة من الإصلاح الدينى الألمانى ، ولكنهما أثمرا نفس النتيجة البارزة - وهى انتصار الدولة على الكنيسة . ونجا الشعب من براثن بابا معصوم ليقع فى أحضان ملك مستبد .

ولم يغنم شيئا من الناحية المادية فقد دفع ضرائب العشور كما دفع من قبل ، غير أن صافى الفائض عاد إلى الحكومة . وكان كثير من الفلاحين يزرعون وقتذاك أراضيهم المستأجرة « للورداتهم المحدثين » ، وكانوا

أشد قسوة من الرهبان الذين اتخذ منهم كارلايل مثالا في كتابه :
« الماضى والحاضر » .

ومن رأى وليام كويت أن « الإصلاح الدينى الإنجليزى » كان فى الحقيقة من وجهه الاجتماعى ، ثورة قام بها الأغنياء ضد الفقراء (٥٠) ، وتشير سجلات الأسعار والأجور إلى أن العمال الزراعيين وعمال المدن كانوا أحسن حالا عند ما ارتقى هنرى العرش منهم عند وفاته (٥١) .

وكانت المظاهر الأخلاقية لهذا العهد سيئة . فقد ضرب الملك للأمة مثلا يدل على فساد خلقه بانغماسه فى علاقات جنسية وبانتقاله اللفظ فى خلال بضعة أيام من مصرع زوجة إلى فراش الزوجة للتالية وبقسوته الهائلة وعدم أمانته المالية وجشعه المادى . وأشاعت الطبقات العليا الفوضى فى البلاط والحكومة بما دبرته من مؤامرات فاسدة . وتبارى الأعيان مع هنرى فى الاستحواذ على ثروة الكنيسة ، وابتز رجال الصناعة عاملهم وابتزهم الملك : ولم تكل الصورة باضمحلل البر لأنه بقى هناك الخضوع الحقير لحاكم مطلق أنانى من شعب يرتجف هلعاً . ولم ينقد الموقف سوى شجاعة الشهداء البروتستانت والكاثوليك وأشرفهم فيشر ومور قد اضطهدا فى دورهما .

وإذا تأملنا بمنظور واسع هذه السنوات المريعة نجد أنها كانت تحمل بعض الثمار اللطيفة . ولم يكن هناك بد من الإصلاح الدينى . ولا بد أن نذكر أنفسنا مرارا وتكرارا بهذا ونحن نسجل شيطنة القرن الذى ولد فيه ، كان الانفصام عن الماضى عنيفا ومؤلما ولم يكن فى الإمكان زعزعة قبضته على أذهان الناس إلا بتوجيه ضربة وحشية . وعندما أزيل الكابوس أصبحت روح القومية ، التى سمحت فى أول الأمر بالاستبداد ، حماسة شعبية وقوة خلاقة . وأدى تخلص الشئون الإنجليزية من البابوية إلى ترك الناس تحت رحمة الدولة حينما من الزمن ، ولكنه أجبرهم فى المدى الطويل على الاعتماد

على أنفسهم في كبح جماح حكامهم والمطالبة ، عقدا وراء عقد ، بقدر من الحرية يكافئ ذكاءهم . وإن تكون الحكومة قوية دائماً كما كانت في عهد هنري الرهيب ، بل سوف تكون ضعيفة في عهد ابن عليل وابنة تطوى جوانحها على مرارة شديدة ، ثم تنهض الأمة بعد أن تنفجر طاقتها المنطلقة من عقابها في عهد ملكة مذنبذة ، ولكنها ظافرة ، وترفع نفسها إلى مرتبة زعامة الفكر الأوروبي . ولولم تكن إنجلترا قد تحررت على يد أسوأ وأقوى ملوكها فربما كان قدر للعالم أن لا يرى اليزابث وشكسبير .

الفصل السادس والعشرون

إدوارد السادس ومارى تيودور

١٥٤٧ - ١٥٥٨

١ - حماية سومرست

لقد رسم هوليين صورة تعد من أعظم صوره على الإطلاق جاذبية للصبي البالغ من العمر عشر سنوات ، والذي ارتقى عرش إنجلترا باسم إدوارد السادس ، وذلك قبل ارتقائه العرش بأربع سنوات : قلنسوة مزينة بالريش ، وشعراً أحمر ، ورداء له بنية من فرو للقائم ، ووجهاً فيه من الدعة والرقرة التي تنم على قلق دفين ، ما يدفعنا إلى الظن بأنه ورث كل هذه الصفات من جين صيمور ولم يرث شيئاً من هنرى الثامن . ولعله ورث عنها ضعفها الجسماني الذي جعلها تدفع حياتها فداء له ، ولم يوفق يوماً في الحصول على القوة التي تعينه على الحكم . ومع ذلك فإنه قام بالشبغات الملقاة على عاتقه باعتباره أميراً أو ملكاً بإخلاص نبيل ، فدرس اللغات والجغرافية وفن تدبير الحكم والحرب بشغف ، وفرض رقابة دقيقة على كل شئون الدولة التي تصل إليها معرفته ، وأبدى للجميع ما عدا الكاثوليكة المنشقين شفقة عظيمة وحسن نية كبيرة ، إلى حد أن إنجلترا ظنت أنها دفنت غولا لتتوج قديساً . وتعلم على يد كرانمر فأصبح بروتستانتيًا متحمساً ، ولم يكن من أنصار توقيع أى عقوبة قاسية على من يتهم بالهرطقة ، ولكنه كره أن يترك أخته غير الحقيقية ماري تحضر القداس ، لأنه كان يؤمن بإخلاص أن القداس أشد ضرراً بعبادة الأوثان ككفرًا . وقبل مسروراً القرار الذي اتخذته المجلس

الملكي باختيار عمه إدوارد سيمور - الذي أنعم عليه حالا بقلب دوق أف سومرست - وصيا عليه ، وقد أثر انتهاج سياسة بروتستانتية .

كان سومرست رجلاً على حظ من الذكاء والشجاعة ، ويتصف بناسك ، يشوبه بعض النقص ، وإن كان في عصره من السجايا البارزة ، وكان وسياً رقيق الحاشية كريماً ، وأخجل بسيرته الطبقة الأرستقراطية الجبانة التي كانت لا تشد إلا مصلحتها ، وتغفر له كل شيء إلا تعاطفه مع الفقراء . وعلى الرغم من أنه كان يتمتع بسلطة مطلقة تقريباً ، فإنه قضى على الحكم المطلق الذي أقامه هنرى السابع وهنرى الثامن ، وسمح للناس بحرية أكبر في التعبير بالكلام ، وخفض عدد الأفعال التي كانت تعد فيما سبق من قبيل خيانة الدولة أو الخيانة العظمى ، واقتضى وجود دليل أقوى للحكم بثبوت الجريمة ، وأعاد إلى أرامل المحكوم عليهم صداقهم ، وأغى القوانين الجائرة الخاصة بالدين والتي صدرت في العهد السابق . وظل الملك رئيساً للكنيسة الإنجليزية . وكان الحديث في غير خشوع عن القربان المقدس جريمة تستحق العقاب ، بيد أن القافون نفسه أمر بأن يقدم القربان المقدس بالصورتين المعروفتين ، ونص على أن الإنجليزية هي لغة الصلاة ، ورفض المطهر والقداسات للموتى . وعاد البروتستانت الإنجليز الذين كانوا قد فروا من إنجلترا ومعهم لقاح لوثر وزوينجلي وكالفن ، وعندما اشتهم مصاحون أجانب عبر الحرية الجديدة ، جاءوا معهم إلى الجزيرة المضطربة بأناجيل متعددة .

وأقبل بيتر مارتير فيرجلي ومارتن بوسر من ستراسبورج ، وجاء برنادرينو أوكينو من أجسبورج ، وجان لاسكى من إمدن . وعبر المنكرون للتعهد والقائلون بوحدة الكنيسة القناة للتبشير في إنجلترا بهرطقات أفزعت البروتستانت بقدر ما أفزعت الكاثوليك . وأزالت الجماهير محطمة الأصنام في لندن الصليبان والنصور والتماثيل من الكنائس ، ووعظ نيكولاس ريدلى ، عميد كلية بمبروك ، بجامعة كامبردج بعنف ضد الصور الدينية والماء المقدس ،

ولكى يتفوق عليهم جميعاً رئيس الأساقفة كرانمر « أكل اللحم علناً في الصوم الكبير ، وهو أمر لم يشهده أحد قط من قبل منذ أصبحت إنجلترا بلداً مسيحياً^(١) » . ورأى المجلس الملكي أن هذا قد تجاوز الحد ، ولكن - ومرست تغلب عليه ، وأطلق الحرية للإصلاح الديني - وأصدر المجلس النيابي (١٥٤٧) برئاسته أمراً بنزع كل صورة على جدار كنيسة أو نافذتها تشيد بذكر نبي أو حوارى أو قديس « حتى لا تبقى هناك أى ذكرى له نفسه » . وحطم معظم الزجاج الملون في الكنائس وسحقت أغلب التماثيل ، واستبدل بالصلبان شعارات ملكية ، واتخذت الجدران المبيضة بالكلس والنوافذ ذات الزجاج الأبيض لونها من ديانة إنجلترا .

وكان في كل محلة كفاح مرير من أجل فضة الكنيسة وذهبها ، واستولت الحكومة عام ١٥٥١ على ما تبقى . وبقيت تقريباً كاتدرائيات القرون للوسطى الفخمة .

وكان الأسقف كرانمر هو الذى تزعم حركة القيام بهذه التغيرات ، وكان خصماًها الكبيران آدموند بونر ، أسقف لندن ، وستيفن جاردنر ، أسقف ونشستر ، وقد أمر كرانمر بإرسالهما إلى سجن فليت^(٢) . وفى غضون ذلك كان الأسقف يقوم منذ سنوات بمحاولة ليقدم فى كتاب واحد بديلاً لكتاب القداس وكتاب الصلوات عند الكنيسة المغاوبة على أمرها . وساعده بيتر مارتير وعلماء آخرون ، بيد أن هذا الكتاب الأول للصلوة العامة (١٥٤١) كان أصلاً ثمرة جهد شخصى لكرانمر ، امتزجت فيه الحماسة للعقيدة الحديدية بإحساس رقيق بحمال رزين فى الشعور واللفظ بل أن ترجماته من اللاتينية فيها سحر عبقريته .

(١) سجن فى لندن أطلق عليه هذا الاسم بسبب قربه من نهر فليت ، وهو مصب (مغضى الآن) لنهر التيمس .

ولم يكن الكتاب ثوريا تماما فقد أخذ ينتهج بعض السوابق اللوثرية مثل رفض تسمية التضحية في القداس ، ولكنه لم ينكر أو يؤكد التجسيد ، واحتفظ بالكثير من الشعيرة الكاثوليكية ، وكان يمكن قس من أنصار الكنيسة الرومانية لا يدقق كثيراً أن يقبلها . ولم يقدمه كرامر إلى المجمع الاكليروسى بل قدمه إلى المجلس النيابى ، ولم تكن هذه الهيئة العلمانية تطوى بين جوانحها أى تبكيّت مصدره سلطة قضائية في النص على شعيرة أو عقيدة دينية . وأصبح الكتاب قانونا للمملكة ، وصدرت الأوامر لكل كنيسة في إنجلترا بالعمل به . وأعيد سجن بونروجاردنر ، وكانا قد أطلق سراحهما في عفو عام ١٥٤٩ ، وذلك عندما رفضا الاعتراف بحق المجلس النيابى في سن تشريع في مجال الدين . وسمح للأميرة مارى بحضور قداس في خلوة بجناحها .

ونشأ موقف دولى خطير أدى إلى تهدة الجدل العنيف بين الكاثوليكة والبروتستانت إلى حين . وطلب هنرى الثانى ملك فرنسا الجلاء عن بولونيا ، وعندما رفض طلبه أعد لحصارها ، والحق إن مارى ستيورات ، ملكة الاسكتلنديين ، وكانت وقتذاك في الخامسة من عمرها وتقيم في فرنسا ، كانت حرة بأن تدخل اسكتلندة في الحرب . وعندما علم سومرست أن الاسكتلنديين يتسلحون ويثيرون فتنة في إيرلندة قاد قوة عبر بها الحدود وهزمهم في بنكى كليو (١٠ سبتمبر سنة ١٥٤٧) ، وكانت الشروط التى عرضها على الاسكتلنديين سخية وتدل على بعد النظر : لن يتعرض الاسكتلنديون إلى التفريط في حريتهم أو مصادرة أملاكهم ، وتتحده اسكتلندة وإنجلترا في « إمبراطورية بريطانيا العظمى » . ولكل أمة أن يكون لها حكم ذاتى تطبق فيه قوانينها الخاصة ، ولكن كلا البلدين تحكمهما ، بعد الحكم الجارى ، ذرية ملكة الاسكتلنديين ، وكان هذا على وجه الدقة الاتحاد الذى تم في عام ١٦٠٣ ، اللهم إلا إذا استثنينا أنه يسر عودة الكاثوليكية

إلى إنجلترا وتواصلها في اسكتلندة : ورفض الكاثالكة في اسكتلندة المشروع خشية أن تصل عدوى البروتستانتية الإنجليزية إلى بلادهم ، وإلى جانب هذا كان النبلاء الاسكتلنديون يتلقون مرتبات من الحكومة الفرنسية ، وكانوا يرون أن عصفوراً في اليد خير من عشرة على الشجرة .

وأحبطت مساعي سومرست في سبيل السلام وواجه الحرب مع فرنسا ، وجاهد أن يرسى دعائم مصالحة بين عقائد لا تعرف المصالحة في الوطن ، وترامى إلى أسماعه دقات متجددة لطبول ثورة زراعية في إنجلترا ، فشرب كأس السلطة حتى الثمالة عند ما دبر شقيقه مؤامرة للإطاحة به . ولم يقنع توماس سيمور بأن يكون اللورد أمير البحار وعضو المجلس الخاص بل كان يريد أن يصبح ملكاً . فنودد إلى الأميرة ماري ثم إلى الأميرة إليزابث ، ولكن عبثاً . وتلقى مالا مسروقاً من دار السكة وأسلاباً من القراصنة الذين سمح لهم بالدخول في القناة ، وعندما حصل على الأموال اللازمة حشد مخازن سرية للأسلحة والذخيرة . واكتشفت مؤامراته ، واتهمه إيرل وارويك وإيرل سوشامبتون ، وأدانته مجلسا البرلمان بالإجماع تقريباً ، وحكم عليه في ٢٠ مارس سنة ١٥٤٩ بالإعدام ، وحاول سومرست أن يحميه ، ولكنه فشل ، وسقطت وضاعت هيبة الحامي بسقوط رأس أخيه :

وألحقث ثورة كيث الخراب الشامل بسومرست . وأوضحت تلك الثورة مدى ما تتسم به من شذوذ ظاهر ، فبينما كان ثورة الفلاحين في ألمانيا بروتستانتية ، كانت في إنجلترا كاثوليكية ، وفي كل حالة كان الدين مظهرًا للاستياء من الحالة الاقتصادية ، وفي إنجلترا كان المظهر كاثوليكيًا لأن الحكومة كانت وقتذاك بروتستانتية . وكتب فرود البروتستانتى يقول : « في التجربة التي خاضها فقراء المزارعين كانت زيادة معاناة الأشخاص نتيجة رئيسية الإصلاح الدينى (٢) » .

ومما يفاخر به رجال الدين البروتستانت في هذا العهد - كراغر ولايمر
وليفر كراولى ، أنهم استنكروا الاستغلال الشديد للفلاحين ، ولقد ندد
سومرست في غضب شديد باغتصاب الملاك الجدد « الذين برزوا من
الحضيض » لثروة المدينة (٣) .

ولم يكن في وسع المجلس النيابي أن يفكر في وسائل علاج أكثر حكمة
من إجازة قوانين صارمة ضد التسول ، وأن يوجه الكنائس بأن تتولى جمع
تبرعات للفقراء كل أسبوع : وأرسل سومرست لجنة تنقصى الحقائق عن
الأراضي المسورة والإيجارات المرتفعة ، وقوبلت بمقاومة مستورة حيناً
أو صريحة حيناً آخر من ملاك الأراضي ، وأرهب المستأجرون إلى حد العمل
على إخفاء أخطائهم ، ورفض المجلس النيابي الأخذ بالتوصيات المتواضعة
للجنة وكان يمثل الأعيان فيه ملاك المناطق الزراعية . وافتتح سومرست - محكمة
خاصة في داره لسماع شكاوى الفقراء ، وانضم عدد من النبلاء ، أخذ
يتزايد يوماً بعد يوم ، ويتزعمهم جون دولي ، إيرل أف وارويك ،
إلى حركة تستهدف خلعه :

ولكن الفلاحين كالوا وقتذاك غاضبين بسبب الأخطاء المتراكمة وفشل
القضايا المرفوعة لرد الحيف ، فانفجروا في ثورة امتدت من أقصى إنجلترا
إلى أدناها ، وثار أولاً سومرستشاير ثم ويلتز وجلوسسترشاير ودورست
وهامبشاير وبركس واكسفورد وبكنجهام في الغرب كورنول وديفون ،
وفي الشرق نورفولك وكنت - ونظم روبرت كنت وهو من صغار ملاك الأراضي
في نورويتش ، الثوار وقبض على زمام الحكم البلدى وأقام كومونا للفلاحين
تولى حكم المدينة وما وراءها شهراً ، وضرب كنت نجماً عسكرياً فيه ١٦٠٠٠ رجل ،
وهناك كان يجلس يومياً تحت شجرة سنديان للحكم بين ملاك الأراضي
المذنبين الذين قبض عليهم الفلاحون . ولم يكن متعطشاً للدماء ، ذا الذين أدانهم
وحكم عليهم سجنوا وقدم إليهم الطعام . ولم يكن يقيم زناً كبيراً لحقوق

الملكوت وصكوكها وأمر رجاله بأن ينقبوا في الأراضي الريفية المجاورة وأن يقتحموا المنازل في الضياع ، وبصادروا كل الأسلحة ويسوقوا كل الماشية ، ويستولوا على كل المؤن حيثما وجدت لصالح الكومون • أما الأغنام ، وهى أكبر خصوم للفلاح في الانتفاع بالأرض ، فقد جمع منها ٢٠٠٠٠ رأس ، ووزعت للاستهلاك في كثير من السرف ، (عجول لا تحصى ، ويجمع وإيلات ويط وغزلان وخنازير . ومع ذلك فقد حافظت وسط هذه الوليمة على نظام عجيب ، بل وسمح لوعاظ بدعوة الرجال إلى التخلي عن الثورة . وشعر سومرست بكثير من التعاطف مع الثوار ، ولكنه اتفق الرأي مع وارويك على تشتيتهم ، لئلا يهدم البناء الاقتصادي بأسره في الحياة الإنجليزية . وأنفذ وارويك مرة أخرى لقتالهم ومعه جيش كان قد حشد حديثاً للقتال في فرنسا . وعرض على الثوار منحهم عفواً عاماً ، إذا عادوا إلى بيوتهم وأثرت القبول ، بيد أن بعض المتهورين رأوا بحسم الأمر بالمعركة ، فأذعن كت لهم . وتقررت النتيجة يوم ١٧ أغسطس سنة ١٥٤٩ ، وانتصر تكتيك وارويك ، وقتل ٣٥٠٠ نائر ، ولكن عندما استسلم الباقيون قنع وارويك بشئ تسعة ، وأرسل كت وأحد أشقائه إلى السجن في لندن ووصلت أنباء الهزيمة إلى جماعات الثوار الأخرى فخارت هزيمتهم ، ووضعت جماعة لائر أخرى أسلحتها ، بعد أن وعدت بالحصول على عفو عام . واستخدم سومرست نفوذه لإطلاق سراح معظم الزعماء وبقي أشقاء كت على قيد الحياة إلى حين .

واتهم الحامى بأنه شجع على الثورة بتعاطفه الصريح مع الفقراء ، ووصم بالفشل في الشئون الخارجية لأن فرنسا كانت وقتذاك تحاصر بولونيا . واتهم بحق بالفساد بالفساد بين موظفي الحكومة وتخفيض قيمة العملة ومضاعفة ثروته وبناء بيت سومرست القمخ ، وسط الظروف التي أشرفت فيها الأمة على الإفلاس . وتزعّم وارويك وسوثامبتون حركة لإقصائه عن مقعده •

وكان معظم النبلاء على استعداد للتغاضي عن ثروته ، ولكنهم لن يغفروا له أبدا عطفه على فلاحهم ، فانتهزوا الفرصة للانتقام . وفي ١٢ أكتوبر سنة ١٥٤٩ سيق الدوق أف سومرست باعتباره سجيناً في موكب اخترق شوارع لندن وسجن في البرج .

٢ - حماية وارويك (١٥٤٩ - ٥٣)

كان أعداء سومرست رقيقى الحاشية بمقاييس ذلك العهد . وحرّم من الأملاك التى اكتسبها إبان وصايته على العرش ، وأطلق سراحه يوم ٦ فبراير سنة ١٥٥٠ ، واسترد عضويته فى المجلس الملكى فى مايو : ولكن وارويك كان وقتذاك حامي المملكة .

وكان مكيا فيليا صريحاً ، وعلى الرغم من أنه كان بزغ فى أعماق نفسه إلى الكاثوليكية إلا أنه ملك نهجاً بروتستانتياً ، لأن خصمه سوثامبتون كان الزعيم الذى ارتغاه الكاثوليك لهم ، وكان أغلب النبلاء مرتبطين ماليا بالعقيدة الجديده . وقد تعلم جيدا فن الحرب ولكنه أدرك أنه لن يستطيع أن يحتفظ ببولونيا أمام فرنسا التى تملك ضعف موارد إنجلترا ، معتمدا على حكومة مفلسة وشعب معدم ، وسلم المدينة إلى هنرى الثانى ووقع معاهدة صلح مهينة كان لا بد منها (١٥٥٠) .

وفى ظل سيطرة ملاك الأراضى من النبلاء أو العامة وافق المجلس النيابى (١٥٤٩) على قانون يعاقب بشدة على ثورة الفلاحين . وأيد قانون صريح وجود الأراضى المسورة ، وألغيت الضرائب التى كان سومرست قد فرضها على الأغنام والصوف لكى تفرّ همة الناس فى إقامة الحظائر . ونص القانون على عقوبات صارمة توقع على العمال الذين يتحدثون لرفع أجورهم (٤) ، وأعلن عدم شرعية الاجتماعات التى تعقد لمناقشة تخفيض الإيجارات أو الأسعار ، ومصادرة ممتلكات الأشخاص الذين يحضرونها . وشنق روبرت

كت وأخوه ، واشتد الفقر ، بيد أن دور البر التي اكتسحتها الثورة الدينية لم تنشأ دور بدلا منها ، وأصبح المرض متوطنا ، ولكن المستشفيات كانت مهجورة . وتضور الناس جوعا ، ولكن العملة خفضت قيمتها مرة أخرى وارتفعت الأسعار . ثم إن ملاك الأراضي في إنجلترا الذين كانوا أقوياء في يوم من الأيام أخذوا يهلكون ، وكان أفقر الفقراء يغرقون في بحر الهمجية^(٥) . وكانت القوضى الدينية لا تقل عن القوضى الاقتصادية ، وظلت أغلبية الناس كاثوليكية^(٦) ، بيد أن انتصار وارويك على سوثامبتون تركهم بلا قائد وشعروا بضعف موقف الذين يظهرون الماضي . وأدى انهيار سلطة القساوسة الروحية والأديسة ، وكذلك عدم استقرار الحكومة وفسادها إلى السماح لآبازدياد الفجور فحسب ، ولكن إلى استفحال الهرطقة ، بصورة أفزعت الكنائس والبروتستانت على السواء . ووصف جون كليمنت (١٥٥٦) « الأنواع العجيبة من الطوائف التي احتشدت في كل مكان لا من أنصار البابوية فحسب . . . ولكن من الأريوسيين والمنكرين للتعميد وكل صنوف الهرطقة الآخرين أيضاً . . . بعضهم ينكر أن الروح القدس هو الرب ، والبعض ينكر الخطيئة الأولى ، والبعض الآخر ينكر القدر . . . وعدد لا يحصى من أمثال هؤلاء ، يقصر بنا المقام عن ذكرهم^(٧) . وكتب روجر هتشنسون (حوالي عام ١٥٥٠) عن « الصدوقيين والفاسقين (أحرار الفكر) ، الذين يقولون : « إن الشيطان » ليس إلا . . . غرام دنس بالجلسد . . . وأنه ليس هناك مريض للطمأنينة أو العذاب بعد هذه الحياة الدنيا ، وأن الجحيم ليس إلا ضميراً يائساً يعذب صاحبه ، وأن الجنة ضمير مبهج ساكن مرح^(٨) » .

وتحدث جون هوبر ، أسقف جلوسستر البروتستانتي فقال : « هناك من يقول إن روح الإنسان ليست أفضل من روح حيوان ، وأنها فانية وهالكة ، وهناك أشقياء يتجاسرون في اجتماعاتهم على القول بأن

المسيح ليس هو المخلص لنا ، بل يذهبون إلى أن الطفل المبارك مؤذ ومحتال (٩) .

وأفاد الناس من الحرية التي منحها لهم سومرست فطعن جناح متهور
١ من البروتستانتية في الدين القديم طعنا قاسيا وتهكم طلبة جامعة أكسفورد
بالقداس بمحاكاته في مسرحياتهم الهزلية ، ومزقوا كتب القداس لإربا ،
واختطفوا الحبز المقدس من المذبح ووطأوه بالأقدام . وأطلق وعاظ لندن
على هؤلاء القساوسة اسم : « عفاريت بغى بابل » - أي البابا (١٠) .
والتقى رجال الأعمال في مؤتمرات بكاتدرائية سانت بول ، واجتمع
هناك الشباب من ذوى النخوة وقتلوا وقتلوا . وكانت الحماية الجديدة
وقتذاك بروتستانتية على التحقيق . وعين المصلحون الديليون في أسقفيات
بشرط أن يحولوا جانباً من دار الأسقفية إلى رجال الحاشية الذين كان
لهم الفضل في تعيينهم (١١) ، وقضى المجلس النيابي (١٥٥٠) بإزالة كل
اللوحات والتماثيل من أى كنيسة في إنجلترا ما عدا « الصور التذكارية
للملوك أو النبلاء الذين لم يسلكوا قط في عداد القديسين » وأتلقت كل
كتب الصلاة (١٢) ما عدا كتاب كرامر . وصودرت أو بيعت ووهبت
التياب الكهنوتية والقباءات وكسوة المذبح ، وسرعان ما ازدانت بها بيوت
النبلاء (١٣) . وأصدر المجلس أمراً بمصادرة كل آنية مخصصة للتبرعات
بقيت في الكنائس بعد عام ١٥٥٠ لصالح الخزانة . وانتزع المجلس النيابي
فيما بعد للحكومة العملات التي في صناديق التبرعات للفقراء بالكنائس (١٤) .
ووجدت أموال أخرى للحكومة أو لموظفيها بإلغاء المنح الدراسية للطلبة الفقراء
ومنع الأستاذيات المعانة من الدولة بالجامعات ، والتي أنشأها هنرى
الثامن (١٥) . وأوصى المجلس النيابي لعام ١٥٥٢ بأن يبقى رجال
الإكليروس بلا زواج ولكنه أذن لهم بالزواج إذا ثبت أن العفة
تضنيهم .

وكان الاضطهاد الديني للهراطقة ، الذى قام به الكشالكة منذ عهد بعيد ، قد نهض به وقتذاك البروتستانت فى إنجلترا ، وكذلك فى سويسرة وألمانيا اللوثرية ، وذلك بمطاردة الهراطقة والكشالكة . وأعد كرايمر بياناً بالهرطقات التى يعاقب مرتكبوها بالإعدام إذا لم يرتدوا عنها ، وتضمنت تأكيد وجود المسيح حقاً فى القربان المقدس أو السيادة الكنسية للبابا ، وإنكار الوحي فى العهد القديم ، أو الطبيعتين فى المسيح أو التزكية بالإيمان^(١٦) . وذهبت جوان بوشر الكنتية إلى المحرقة لشكها فى تجسد الأقنوم الثانى (١٥٥٠) . وقالت لريدلى : أسقف لندن البروتستانتي الذى توسل إليها أن تراجع عما تقول : « لقد أحرقتم آن أسكيو منذ عهد غير بعيد من أجل قطعة من الخبز (لإنكارها التجسد) ، ومع ذلك حدث أن آمنتم بالعقيدة التى أحرقتموها من أجلها ، وأنتم سوف تحرقوننى الآن من أجل قطعة من اللحم (تشير إلى العبارة الواردة فى الإنجيل الرابع) . « لقد صنعت الكلمة لحما ، وسوف تؤمنون بهذا أيضاً آخر الأمر^(١٧) » . ولم يحرق فى عهد إدوارد إلا هرطيقان ، ومهما يكن من أمر فإن كثيراً من الكشالكة سجنوا لحضورهم القداس أو لانتقادهم علناً العقيدة المحافظة المقبولة^(١٨) . وأقبل القساوسة الكاثوليك المقتشون بآرائهم من مناصبهم وأرسل بعضهم إلى سجن البرج^(١٩) ، وعرض على جاردنر ، وكان لا يزال هناك ، الحرية إذا وافق على التبشير بالعقيدة التى يقول بها أنصار الإصلاح الدينى . وعندما رفض نقل إلى « مسكن أحقر » فى البرج وحرّم من الورق والقلم والكتب . وفى عام ١٥٥٢ أصدر كرايمر كتابه الثانى عن الصلاة العامة وفيه أنكر وجود المسيح حقاً فى القربان المقدس ، وبند تقديم القربان المقدس بالمسيح المغالى فيه ، وراجع فى ظروف أخرى الكتاب الأول باتجاه بروتستانتي .

ووافق المجلس النيابي وقتذاك على قانون ثان بشأن التجانس ، اقتضى

أن يحضر جميع الأشخاص بالاعظام وألا يحضروا سوى الصلوات الدينية التي تقام طبقاً لما ورد في كتاب الصلاة العامة هذا ، وكل من يخالف هذا القانون ثلاث مرات ، يعاقب بالإعدام . وفي عام ١٥٥٣ أصدر المجلس الملكي اثنين وأربعين « مادة في الدين » وضعها كرائمر وجعلها إلزامية على كل الإنجليز .

وفي الوقت الذي أصبحت فيه الفضيلة والحفاظ على العقيدة بمثابة قانون تميزت حماية وارويك بفسادها في عصر فاسسد ، ولم يمنع هذا إدوارد الشاب المطاوع من تعيين وارويك دوقاً لنورثمبرلاند (٤ أكتوبر سنة ١٥٥١) . وبعد بضعة أيام كفر الدوق عن خطيئته التي ارتكبها بتيامه بعمل من أعمال حسن التصرف — إطلاق سراح سومرست — وذلك باتهام سلفه بالقيام بمحاولة لاستعادة السلطة لنفسه . وقبض على سومرست وحوكم وأدين في الغالب بناء على دليل قدمه سير توماس بالمر ، وزيف أمر صادر من الملك بالدعوة إلى إعدام سومرست ، وفي ٢٢ يناير سنة ١٥٥٢ لقي حتفه بشجاعة وإباء . وعندما واجه نورثمبرلاند الإعدام بدوره ، اعترف أن سومرست قد اتهم زوراً بفضل وسائله ، واعترف بالمر قبل وفاته أن الدليل الذي أقسم على صحته كان من اختراع نورثمبرلاند (٢٠) .

ونادراً ما كانت الإدارة في إنجلترا قد وصلت إلى هذا الحد من الكراهية ، فقد انقلب البروتستانت ضد الحامي الجديد الذي أثروا عليه شكراً منهم لتأييده وذلك بسبب ازدياد جرائمه . وكان الملك إدوارد يقترب من الموت وقد عينت ماري تيودور بمقتضى قانون أصدره المجلس النيابي ولاية للعهد إذا ظل إدوارد بلا ذرية . وإذا قدر لماري أن تصبح ملكة فإنها سوف تنتقم في الحال من هؤلاء الذين حولوا إنجلترا عن العقيدة القديمة . وشعر نورثمبرلاند بأن حياته معرضة للخطر . وكان عزاؤه الوحيد أن وكلاءه قد دربوا إدوارد على طاعته . وأغرى الملك المحتضر بأن يقرر التاج لليدي جين جراي ، ابنة الدوق سفولك وحفيدة شقيقة

هنرى الثامن ، وفضلا عن هذا فإن جين كانت قد تزوجت حديثاً من ابن نورثمبرلاند . ولم يكن إدوارد قد خول مثل أبيه السلطة من المجلس النيابى لتعيين خلفه ، وكانت إنجلترا بأسرها تقريباً ترى أن ارتقاء الأميرة مارى العرش أمر لا مفر منه وعادل ، واحتجت جين بأنها لم ترغب قط فى أن تكون ملكة . وكانت امرأة نالت قسطاً غير عادى من التعليم : وكتبت باليونانية ودرست العبرية وتراسلت مع بولينجر بلغة لانيينية لا تقل جمالا عن لغته . ولم تكن قديسة ، وكان فى وسعها أن تلتقد الكاثوليكية هشة ، وسخرت من التجسيد . ولكن نسب إليها من الآثام أكثر مما أئمت ، وحسبت فى أول الأمر أن خطة جميعها من قبيل الدعابة ، وعندما أصرت حمايتها قاومت جين . وأمرها زوجها فى آخر الأمر أن تقبل العرش فأطاعت « دون أن تختار أن تعصى زوجها » كما قالت ، وأعد نورثمبرلاند وقتذاك العدة للقبض على كبار أنصار مارى وإيداع الأميرة نفسها فى البرج حيث يمكن أن تتعلم التنازل .

وأوشك الملك على نهايته فى أوائل يولية ، وسعل وبصق دماً ، وتورمت ساقاه تورماً مؤلماً ، وتفشى الطفح على جسده ، وسقط شعره ، ثم سقطت أظافره ، ولم يستطع أحد أن يجزم بالمرض الغريب الذى يعانى منه ، وراود الشك الكثيرين أن نورثمبرلاند قد سممه . وأخيراً مات إدوارد بعد أن عانى كثيراً (٦ يوليو سنة ١٥٥٣) ولم يتعد الخامسة عشرة من عمره ، وأصغر كثيراً من أن يشارك فيما ارتكب فى عهده من آثام .

وفى صباح اليوم التالى ركب نورثمبرلاند إلى هنسدون للقبض على الأميرة . بيد أن مارى هربت ، بعد أن حذرت ، إلى أصدقاء كاثوليكين فى سفولك ، وعاد نورثمبرلاند إلى لندن دون أن يحصل على فريسته . وأقنع الخبايا الخاص بالوعود أو التهديدات أو الرشاوى بالانضمام إليه فى المنادة

يجين جراى ملكة ، وأغمى عليها ، وعند ما أفاقت ظلت تحتج على أنها لا تصلح للشرف المحفوف بالمخاطر ، الذى أكرهت عليه . وتوسل إليها أقاربها بحجة أن حياتهم تتوقف على قبولها . وفى التاسع من يوليو أقرت فى نفور أنها ملكة لإنجلترا .

ولكن فى العاشر من يوليو وصلت إلى لندن أنباء تقول إن مارى قد نادت بنفسها ملكة ، وإن النبلاء فى الشمال كانوا يتقاطرون لتأييدها ، وأن قواتهم كانت تزحف على العاصمة . وحشد نورثمبرلاند سريعا ما استطاع جمعه من جنود ، وقادهم لتقرير مصير المعركة . وأبلغه جنوده فى بورى أنهم لن يسيروا خطوة أخرى للقتال ضد عاهلتهم الشرعية . وأرسل نورثمبرلاند أخاه ، مزودا بالذهب والجواهرات والوعد بكماليه وجينس ليرشو هنرى الثانى ملك فرنسا ، للقيام بغزو إنجلترا لتتويجا لجرائمه . وعلم المجلس الخاص بالمهمة ومنعها ، وأعلن ولإيه لمارى . وانطلق الدوق أف سفولك إلى غرفة جين وأبلغها أن حكمها الذى استمر عشرة أيام قد انتهى . فرحبت بالأنباء وسألت براءة هل تستطيع الآن أن تذهب إلى البيت ، ولكن المجلس ، الذى كان قد أقسم على خدمتها أمر بسجنها فى البرج . وسرعان ما سجن هناك أيضاً نورثمبرلاند وأخذ يطلب الصفح عما ارتكب ، وإن أخذ يترقب موته .

وبعث المجلس برسل ينادون بأن مارى تيودور ملكة وتلقت لإنجلترا الأخبار بفرح وحشى . وظلت النواقيس تفرع والمشاغل تتوهج طوال تلك الليلة من ليالى الصيف . وجلب الناس موائد الطعام وأولوا فى الخلاء ورقصوا فى الشوارع .

وبدا أن الأمة آسفة على الإصلاح الدينى ، وأنها تتطلع بشغف إلى ماض كان فى الإمكان وقتذاك أن يعد نموذجا ، طالما أنه لن يعود . والحق أن الإصلاح الدينى لم يظهر حتى الآن إلا بجانبه المرير لإنجلترا : لم يكن تحريرا

من المذهبية ومحامى التفتيش والطغيان ، بل كان تثبيتها لها ، ولم يكن انتشاراً للاستنارة ، بل كان سلباً للجامعات وإغلاقاً لمئات المدارس ، ولم يكن توسعاً في الرقعة ، بل كان تقريباً قضاء على البر ، ورقعة بيضاء للجشع ، ولم يكن تخفيفاً للفقر ، بل كان سحقاً للفقراء بلا رحمة لم تعرفه إنجلترا منذ قرون — ولعلها لم تعرفه قط (٢١). وكان كل تغيير يكاد يلقى ترحيباً ما دام يؤدي إلى تخليصهم من نورثمبرلاند وطغمته .

ثم إن الأميرة ماري المسكينة ، التي ظفرت بنخب إنجلترا في الخفاء بفضل صبرها على الإذلال طوال اثنين وعشرين عاماً — هذه المرأة المذهبة سوف تكون ولا شك ملكة رقيقة .

٣ — الملكة الرقيقة (١٥٥٣ — ٥٤)

لا بد لسكى نفهمها من أن نكون قد عشنا معها شبابها المساوى الذى لم تذق خلاله قط طعماً للسعادة . ولم تكن تتجاوز الثانية من عمرها (١٥١٨) ، عندما شغل أبوها بالخطايا ، وأهمل أمها الحزونة . وكانت في الثامنة عند ما طلب إعلان بطلان زواجه ، وفي الخامسة عشرة عندما افترق والداها ، وذهب كل من الأم والبنت إلى متقى منفصل . ومنعت الابنة من الذهاب إلى أمها حتى وهى تحتضر (٢٢). وأعلن أن ماري ابنة سفاح بعد مولد اليزابث (١٥٣٣) وجردت من لقبها كأميرة . وخشى سفير الإمبراطور أن تسعى آن بولين إلى قتل ابنة غريميتها المنافسة لها على العرش . وعندما انتقلت اليزابث إلى هاتفيلد أجبرت ماري على أن تذهب إلى هناك لخدمتها وأكرهت على أن تعيش في « أسوأ غرفة في البيت » (٢٣) ، وأخذ منها خدمها ، واستبدل بهم آخرون ، يخضعون لمس شلتون أف هاتفيلد التى قالت لها تذكرها بأنها ابنة سفاح : « لو كنت في موضع الملك لطردتك من بيت الملك لعدم طاعتك » . وأخبرتها أن هنرى قد عبر عن عزمه على قطع رأسها (٢٤) .

وكانت ماري مريضة طوال ذلك الشتاء الأول الذي قضته في هاتفيلد (١٥٣٤) ، وتحطمت أعصابها بسبب الإهانة والخوف وكادت تشرف على الموت جسما وروحا على غير كره منها . ثم رُق لها الملك ومنحها بعض محبته إلى حين ، ونعمت بوضع ميسور في باقي أيام حكمه . ولكن طلب منها أن توقع إقراراً بسيادة هنرى الكنسية وبأن « زواج أمها من قبيل سفاح ذوى القربى » وبأن ميلادها غير شرعى (٢٥) وذلك ثمنا لهذه الرقة القاسية .

وتأثر جهازها العصبى على الدوام بهذه الحزن ، و كانت عرضة لأن تشكو من قلبها (٢٦) « وظلت صحتها ضعيفة حتى آخر يوم فى حياتها . وعادتها شجاعته عند ما أعلن المجلس النيابى فى عهد حماية سومرست أنها ولية العهد . ولقد نشأت عقيدتها الكاثوليكية ، فى طفولتها مشبعة بحرارتها الإسبانية ، وقويت بما أثارته حياة أمها ومماتها فى نفسها من ألم ، وكانت عوناً ثميناً لها فى أحزانها ، فرفضت أن تتخلى عنها عند ما حومت على حافة السلطة ، وعند ما أمرها مجلس الملك أن تكف عن سماع القداس فى حجراتها (١٥٤٩) لم تدعن لأمره . وأغضى سومرست عن مقاومتها ، ولكن سومرست سقط ، وصدق أخوها الملك على الأمر ، وأرسل ثلاثة من خدمها إلى سجن البرج بسبب تجاهله (١٥٥١) ، وأخذ منها القس الذى رتل لها القداس ، ووافقت آخر الأمر على أن تكف عن ممارسة الشعيرة المحبوبة . وعندما تحطمت روحها طلبت من سفير الإمبراطور أن يدبر لها الهرب إلى القارة ، ورفض الإمبراطور الحذر أن يجيز الخطوة ، وخاب فألها .

وجاءت لحظة انتصارها أخيراً عندما عجز نورمبرلاند عن أن يجد رجلاً يحارب ضدها ، ولم يطلب الذين أقبلوا مدججين بالسلاح لمناصرة قضيبتها أى أجر ، بل لأنهم أحضروا معهم مؤنهم ، وعرضوا عليها ثرواتهم لتمويل الحملة . وعندما دخلت لندن كملكه (٣ أغسطس سنة ١٥٥٣) هبت تلك المدينة نصف البروتستانتية للترحيب بها بالإجماع . وجاءت الزباث تمشى على

استحياء للملاقاتها عند أبواب المدينة ، وهى تساءل على تتمسك ضدها بالشتام التى تعرضت لها باسم اليزابث . ولكن مارى حينها بقبلة حارة وقبلت جميع السيدات المرافقات لأختها غير الشقيقة . وكانت لإنجلترا سعيدة كما كانت عند ما ارتقى العرض هنرى الثامن وهو شاب وسيم كريم .

كانت مارى وقتذاك فى السابعة والثلاثين من عمرها ، وكان الزمن القاسى قد ترك على وجهها خطوطاً تندر بالدبول . وقبلما مرت بها سنة كاملة دون أن تصاب بمرض خطير . وكانت تشكو من الاستسقاء وسوء الهضم ونوبات صداع تحطم الرأس ، وعولجت مراراً بالحجامة مما تركها عصبية شاحبة ، وأدى تكرار انقطاع الطمث عنها إلى استغراقها أحياناً فى حزن هستيرى مصحوب بخوف من ألا تحمل أبداً (٢٧) . وكان جسدها وقتذاك نحىلاً هزيلًا وجبينها مملئاً بالتجاعيد وشعرها المائل للاحمرار تتخلله شعرات بيضاء وعيناها ضعيفتين جداً إلى حد أنها لم تكن تستطيع القراءة إلا إذا أمسكت بالصحيفة قرب وجهها . وكانت تقاطيعها واضحة ، تكاد تشبه تقاطيع الرجال ، وكان صوتها عميقاً كصوت الرجل ، وقد وهبتها الحياة كل ما فيها من وهن وحرمتها من المفاتن ومن الأنوثة . وكانت لديها بعض المواهب الأنثوية . فكانت تحيك فى جلد وتطرز بمهارة وتعزف على العود ، وأضافت إلى هذه المواهب معرفة باللغات الإسبانية واللاتينية والإيطالية والفرنسية . وكان يمكن أن تكون امرأة صالحة لو لم تلحقها لعنة اليقين اللاهوتى والسلطة الملكية . وكانت أمينة إلى درجة البساطة ، عاجزة فى مجال الدبلوماسية ومتلهفة إلى درجة يرثى لها لأن تحب وتكون محبوبة . وكانت تتعرض لسورات غضب ولها لسان سليط . وكانت عنيدة ولكنها لم تكن متكبرة ، وأدركت قصور قدراتها الذهنية وأصاحت السمع للنصيحة فى تواضع . ولم تكن تلين لها قناة إذا كان الأمريتان بعقيدتها فحسب ، وفى غير هذه الحالة كانت حليلة حنوناً وحررة الفكر مع التعساء ، وتوافة إلى رفع الحيف الذى تسببت فيه

أخطاء القانون ، وكثيراً ما زارت بيوت الفقراء وهي متتكرة وجلست وتحدثت مع ربّات البيوت وسجلت مذكرة بالحاجات والمظالم وقدمت كل ما في وسعها من مساعدة (٢٨) . وأعدت إلى الجامعات الهبات التي اختلسها منها أسلافها .

وظهر أحسن جانب من خلقها في التسامح النسبي في أول عهدها ، فهي لم تطلق سراح جاردنر وبونر وغيرهما ممن سجنوا لرفضهم قبول اعتناق البروتستانتية فحسب ، بل لأنها صفت تقريباً عن كل من حاولوا إبعادها عن العرش ، ومهما يكن من أمر فإنها أجبرت بعض هؤلاء ؛ مثل الدوق أف سفولك ، على دفع غرامات باهظة للخزانة ، ثم خفضت الضرائب تخفيضاً جوهرياً بعد تقديم هذه المساعدة إلى الدخل . ومنحت جوازات أمان لبيت مارتير وغيره من البروتستانت الأجانب لكي يغادروا البلاد . وعقد مجلس الملكة محاكمة عاجلة لنورثمبرلاند وستة آخرين تأمروا على القبض على ماري ، وتوجوا جين جراي ، وحكم على السبعة جميعاً بالموت . وأبدت ماري رغبتها في الصفح عن نورثمبرلاند ، ولكن سيمون رينار سفير الإمبراطور وقتذاك أثنائها عن عزمها ، وقام الثلاثة الذين لم يصفح عنهم جميعاً باعتناق عقيدة الكنيسة الرومانية الكاثوليكية في آخر لحظة . ووصفت جين جراي الحكم بالعدل والاعترافات بالجين (٢٩) .

وكان من رأى ماري أن تطلق سراحها ، ولكنها أذعنت لآراء مستشاريها إلى حد بعيد وأمرت بأن تبقى طليقة من كل قيد في الاعتقال داخل أراضي سجن البرج (٣٠) .

وأصدرت الملكة في ١٣ أغسطس إعلاناً رسمياً بأنها لن تذكر الضمائر أو تلزمها ، بشيء في مسألة المعتقد الديني (٣١) ، وكان هذا أحد الإعلانات الأولى في التسامح الديني تصدره حكومة حديثة . وكانت تأدل في براءة أن

تحول البروتستانت بالحجة فنظمت مناظرة عامة بين علماء اللاهوت المتعارضين في الرأي ، ولكنها تبخرت في جدل مرير عقيم . وبعد ذلك بوقت قصير قذف واعظ الأسقف يونر بخنجر انطلق من جمهور استاء من وعظه الكاثوليكي ، وأنقذه من الموت اثنان من رجال الدين البروتستانت (٣٢) . وراع ماري تسامحها فأمرت (١٨ أغسطس سنة ١٥٥٣) بعدم التصريح بعظات تتعلق بالعقائد إلا في الجامعات ، وذلك إلى أن يتيسر اجتماع المجلس النيابي وينظر في المشكلات التي أثارها النزاع بين العقائد . وأمر كرانمر ، وكان لا يزال رئيساً للأساقفة ، بملازمة قصره في لامبث ، فرد على ذلك بمهاجمة القديس ووصفه بأنه « كافر بغض » ، وحكم عليه هو ولا تيمر بالسجن في البرج (سبتمبر سنة ١٥٥٣) . أما ريدي أسقف لندن الذي كان قد وصف ماري واليزابث معا بأنهما ابنتا سفاح فكان قد ذهب إلى سجن البرج قبل ذلك بشهرين . وعلى الحملة فلان سلوك ماري في هذه الشهور الأولى من حكمها فاق في اللين والتسامح سلوك غيرها من عظماء الحكام في عصرها .

وكانت المشكلات التي واجهتها حرية بأن تقهر امرأة تفوقها كثيراً في الذكاء والفتنة . وصدمت بالارتباك والفساد السائد في الإدارة وأمرت بوقف الفساد ، غير أنه أخفى رأسه ولم ينقطع . وضربت مثالا حسناً بتخفيض نفقات الأسير الملكية ، وتمهدت بتثبيت قيمة العملة ، وتركت انتخابات المجلس النيابي حرة لم تتأثر بأى نفوذ ملكي . وكانت الانتخابات الجديدة « أعدل انتخابات حدثت منذ سنوات (٣٣) » ، ولكن تخفيضها للضرائب ترك دخل الحكومة أقل من مصروفاتها ، واكفى نحصل على الفرق فرضت ضريبة صادر على القماش وضريبة وارد على الألبنة الفرنسية وأدت هذه الإجراءات التي كان ينتظر أن تساعد الفقراء إلى نكسة تجارية . وحاولت أن توقف نمو الرأسمالية بتحديد عدد ما يملكه أى فرد بنول أو اثنين . ونددت بـ « القماشين الأغنياء » بسبب دفعهم أجوراً منخفضة وحظرت دفع

الأجور عيناً^(٣٤) ولكنها لم تجد في حاشيتها رجالاً يملكون القوة والكمال اللازمين لإنجاز إرادتها الطبية ، وتغلبت القوانين الاقتصادية على أهدانها . بل لأنها قوبلت بعقوبات اقتصادية قاسية حتى أمور الدين . ولم تكن هناك أسيرة لها نفوذ في إنجلترا لا تحتفظ بأملك انتزعتها من الكنيسة^(٣٥) ، وعارضت هذه الأسر بالطبع أى عودة للعقيدة الرومانية . وكان البروتستانت أقلية من حيث العدد وأقوياء بفضل ما لديهم من مال ، وكانوا بذلك في موقف يسمح لهم بأن يظهروا في لحظة أساليب الثورة التي تبضع الزناج البروتستانتية على العرش .

وكانت ماري تتلطف على إعادة حق الكاثوليكية في العبادة طبقاً لشعيرتهم ، ومع ذلك فلإن الإمبراطور الذي ظل يحارب البروتستانتية اثنين وثلاثين عاماً حذرهما وطلب منها أن تتحرك ببطء ، وأن تقنع بترديد القداس سرّاً لنفسها وفي محيطها المباشر . ولكن شعورها نحو دينها كان عميقاً ولا تستطيع أن تكون سياسية فيما يتصل به . وتعجب الجيل الذي ينزع إلى الشك الذي نشأ في لندن من كثرة صلواتها وحرارتها ، ولعل السفير الإسباني اعتقد أنها تطالب أمراً إدارياً عند ما سأله أن يركع بجوارها ويطلب الهداية من الله . وشعرت بأن لها رسالة مقدسة تستعيد بها العقيدة التي أصبحت عزيزة عايناً لأنها قاست من أجلها . وبعثت برسول إلى البابا تطلب منه أن يرفع التحريم الذي فرضه على إقامة الصلوات بإنجلترا ، ولكن عندما أبدى الكاردينال بول رغبته في الحضور إلى إنجلترا قاصداً رسولياً ، اتفقت مع شارل على أن الوقت لم يحن بعد للقيام بنقل هذه الحركة الجريئة .

ولم يكن المجلس النيابي الذي اجتمع في ٥ أكتوبر سنة ١٥٥٣ مجدداً بالمرة . فقد وافق على إلغاء كل تشريع يتعلق بالدين ، صدر في عهد إدوارد ، وخفض العقوبات المنصوص عليها في قوانين هنري الثامن وإدوارد السادس إلى ما كانت عليه من قبل . وأبلغ الملكة في تاليف أن « عدم شرعية

النسب المتعلقة بشخصك الأمثل ، قد ألغى وأنها لم تعد ابنة سفاح ، ولكنه
أبى أن ينظر في إعادة أملاك الكنيسة إليها وقاوم أى تلميح إلى أن سيادة البابا
يجب أن يعترف بها ، وترك هذا ماري رئيسة للكنيسة الإنجليزية رغم أنفها .
وبمقتضى هذه السلطة المخولة لها استبدلت بالأساقفة البروتستانت الأساقفة
الكاثوليك الذين كانوا قد أقصوا عن مناصبهم ، وعاد بونر أسقفاً للندن
وجاردنر أسقفاً لوتشستر ومشيترام مقرباً للتاج . وطرد القساوسة المتزوجون
من أبرشياتهم . وسمح بإقامة القداس مرة أخرى ثم شجع ، (ويقول مؤرخ
بروتستانتي) : « إن اللهفة التي أبدتها البلاد الإفادة بوجه عام من الإذن
بإعادة الشعيرة الكاثوليكية تدل بلا شك على أن الشعور العام كان مع الملكية (٣٦)
فيما عدا لندن وبضع مدن كبيرة » . وأعيدت العبادة الكاثوليكية إلى ما كانت
عليه تماماً بمقتضى مرسوم صدر في ٤ مارس سنة ١٥٥٤ . وعدت الهرطقات
الأخرى غير شرعية وحرم كل وعظ بروتستانتي أو نشرة بروتستانتية .

وكان انزعاج الأمة بعودة التذبذب اللاهوتي أقل كثيراً من انزعاجها
بخطط زواج ماري . كانت تخشى الزواج من الناحية الدستورية ، ولكنها
واجهت المحنة أملا في أن تنجب وريثاً يحول دون ارتقاء اليزابث البروتستانتية
العرش : وادعت ماري أنها عذراء ، والراجح أنها كانت كذلك ، ولعلها
لو كانت قد أتمت هوناما لكانت أقل كآبة وتوترا وبقينا . وأوصى مجلسها
باختيار إدوارد كورتناي حفيد إدوارد الرابع ، ولكن طرق عيشه المتبدلة
لم تصادف هوى في نفس ماري ، وعندما رفضته دبر أن يتزوج اليزابث ،
ويخلع ماري ويولي اليزابث على العرش ويحكم إنجلترا عن طريقها —
ولم يحلم قط بضالة فرصته في السيطرة على تلك السيدة المسترجلة .
وعرض شارل الخامس على ماري الزواج من ابنه فيليب الذي كان يوشك
أن يوصى له بكل شيء سوى اللقب الإمبراطوري ، وتعهده

بتقديم الأراضي المنخفضة لأى ولد يكون عمرة لهذا الزواج . وتهللت ماري عندما خطر لها أن زوجها سيكون حاكماً لإسبانيا والفلاندرز وهولندا ونابلي والأمريكتين ، وتدفقت دماؤها نصف الإسبانية ساخنة في عروقها وهى تتوقع إنشاء اتحاد سياسى ودينى بين إنجلترا وإسبانيا . وأشارت فى اواضع إلى أن سنها الأكبر - أكبر من فيليب بعشر سنوات - تقف عائقاً ، وخشيت ألا تكفى مفااتها الذابابة لإرضاء حيويته وشبابه أو خياله ، لأنها لم تكن واثقة أنها سوف تعرف كيف تطارحه الغرام (٣٧) . وكان فيليب من ناحيته يشعر بالنفور فقد أبلغه وكلاؤه الإنجليز أن ماري كانت « قديسة كاملة » وأنها ترتدى ملابس قبيحة (٣٨) ، أفلا يمكن أن يوجد شيء أكثر إغراء بين الأسر المالكة فى أوروبا ؟ وأقنعه شارل بالإشارة إلى أن الزواج سوف يتيح لإسبانيا حليفاً قوياً ضد فرنسا وعوناً ثميناً فى الأراضي المنخفضة التى كانت مرتبطة تجارياً بإنجلترا . ولعل البروتستانتية فى ألمانيا يمكن قمعها بعمل موحد من إسبانيا وفرنسا وإنجلترا باعتبارها دولاً كاثوليكية ؛ ثم إن المصاهرة بين آل هابسبورج وآل تيودور يولف قوة قادرة على منح أوروبا الغربية سلاماً إجبارياً يدوم جيلاً .

وأدرك مجلس الملكة والشعب الإنجليزى قوة هذه الاعتبارات ولكنهم خشوا أن يؤدى الزواج إلى تحويل إنجلترا إلى بلد تابع لإسبانيا ويورط إنجلترا فى الحروب المتكررة مع فرنسا . وواجه شارل الموقف بإجراء مضاد عرض باسم ابنه عقد زواج بمقتضاه لا يحمل فيليب لقب ملك إنجلترا إلا فى حياة ماري ولها أن تحتفظ وحدها بالسلطة الملكية الكاملة على الشؤون الإنجليزية ولها أن تشارك فيليب فى جميع ألقابه ، وإذا مات دون كارلوس (ابن فيليب من زواج سابق) دون أن يعقب ذرية ترث ماري أو ابنتها الإمبراطورية الإسبانية وعلاوة على هذا أضاف الإمبراطور الداهية أن لماري الحق فى أن تتلقى مدى الحياة ٦٠,٠٠٠ جنيه من

الموارد الامبراطورية ، وبدا هذا كله عرضاً سخياً جداً ، وصدق المجلس الإنجليزي على الزواج مع تعديلات يسيرة في النصوص وأخذت ماري ، على الرغم من حياثها المتواضع تتطلع في لهفة إلى المستقبل فكم طال انتظارها لعاشق !

ولكن الشعب الإنجليزي استاء من اختيارها ، فالأقلية البروتستانتية التي كانت تصبر على الاضطهاد ، آملّة في أن تخلف اليزابث قريباً ماري العاقرة الضعيفة خشيت على حياتها إذا وقفت قوة إسبانيا بجانب ماري في إعادة الكاثوليكية بالقوة ، وارتجف النبلاء الذين اغتنوا بضم الأملاك الكنسية عندما خطر لهم أنهم سوف يخرجون ماري بطونهم . بل إن الإنجليزي الكاثوليك اعترضوا على وضع أجنبي قاس على العرش . وهو ولا شك سوف يستخدم إنجلترا لتحقيق أغراضه الأجنبية . وارتفعت أصوات الاحتجاج من كل مكان في البلاد ، وسرى الدعر في مدينة بلايموث ، فطلبت من ملك فرنسا أن يضعها تحت حمايته . ووضع أربعة نبلاء مخططاً لثورة تبدأ في ١٨ مارس سنة ١٥٥٤ ، فكان على الدوق أف سفولك (والد جين جراي الذي صدر العفو عنه) أن يحدث ثورة في وارويكشاير وعلى سير جيمس كروفث أن يتزعم مستأجره الولزيين ، وعلى سير بيتر كارو أن يثير ديفونشاير ، وعلى سير توماس ويات الصغير أن يقود ثورة في كنت . وكان ويات الكبير — الشاعر — قد استولى على مجموعة من أراضي الكنيسة — كره ابنه أن يسلمها ، وأخطأ المتآمرون بأن أسروا بخططهم لكورتناي ، وكانت مهمته تنحصر في ضمان اشتراك اليزابث معهم . وكان الأسقف جاردنر يراقب كورتناي باعتباره خاطباً منبوذاً لماري يتلهف على الانتقام ، فأمر بالقبض عليه ، وأفشى كورتناي أسرار المؤامرة ، بتأثير التعذيب على الأرجح .

وآثر المتآمرون أن يلاقوا حتفهم في المعركة بدلا من المقصلة فحفوا

سريعاً إلى الأسلحة واشتعلت نيران الثورة في أربعة أقطار في الحال (فبراير سنة ١٥٥٤) ، وقاد ويات جيشاً قوامه ٧٠٠٠ رجل وزحف نحو لندن ، وبعث بندا إلى كل المواطنين أن يمنعوا انجلترا من أن تصبح إقطاعية لإسبانيا ، وبدأ الجانب البروتستانتي من أهالي لندن في وضع خطة لفتح الأبواب لويات ، وتردد مجلس الملكة في أن يرتبط بشيء ، ولم يحشد جندياً واحداً للدفاع عنها ، ولم تستطع ماري أن تدرك لماذا ترفض البلاد التي رحبت كثيراً بارتقاءها العرش أن تتمتع بالسعادة وتحقيق أمانها التي حلمت بها طوال سنوات التعاسة العديدة . وإذا لم تمسك بزمام الأمور في يديها بعزم غير عادي فلن حكمها وحياتها سوف ينتهيان وشيكاً . ولكنها ذهبت بنفسها إلى جلد هول وواجهت اجتماعاً ثائراً كان يتباحث إلى أي جانب ينحاز . وقالت للجميع إنها على استعداد تام لأن تتخلى عن فكرة الزواج الإسباني إذا كانت هذه رغبة العموم ، وقالت حقاً « إنني على استعداد لأن أمسك عن الزواج طوال حياتي » ولكنها لن تسمح في الوقت نفسه أن يتحول موضع الخلاف إلى « عبادة إسبانية » لثورة سياسية . وقالت : « إنني لا أستطيع أن أقول كيف تحب الأم طفلها بفطرتها لأنني لم أكن يوماً أمّاً ، ولكن لاشك أنه إذا كانت الملكة يمكن أن تحب رعاياها حباً طبيعياً وحراراً كما تحب الأم طفلها ، فلنني أؤكد أنني باعتباري سيدتكم ومولاتكم ، أحبكم حباً حاراً رقيقاً وأعطف عليكم (٢٩) » . وقويات كلماتها وروحها بتصفيق حار ، وتعهد الجمع بتأييدها . واستطاع وكلاء الحكومة ، في يوم تقريباً ، أن يحشدوا ٢٥٠٠٠ رجل مسلح وقبض على سفولك وفركروفت وكاريو إلى مخبأ . أما ويات فقد قاد ، بعد أن تخلى عنه زملاؤه على هذا النحو ، قوة صغيرة قاتل بها في شوارع لندن ، وشتت طريقته تقريباً إلى قصر الملكة في هويتمول . وتوسل الحراس إلى ماري أن تهرب ، ولكنها رفضت وأخيراً غلب رجال ويات

على أمرهم فاستسلم بعد أن وهن منه الجسد والروح وأُخذ إلى سجن البرج وتلصقت ماري عير الأمان مرة أخرى ولكنها لم تعد قط الملكة الرقيقة .

٤ - « ماري الدموية » : ١٥٥٤ - ٥٨

كثيراً ما أدان مستشاروها سياستها القائمة على الصفح . وقد لامها الإمبراطور وسفيره على السماح بالحياة بل وبالحرية لأشخاص تأمروا ضدها وسوف يكونون أحراراً لتكرار هذا - وسئلت كيف يستطيع فيليب أن يأمن على نفسه في بلد ترك فيه أعداؤه يمرحون بلا عائق ليدبروا مؤامرة لاغتياله ؟ وكان من رأى الأسقف جاردنر أن الرحمة بالآثمة تتطلب إعدام الخونة . وتملك الذعر الملكة فالت إلى العمل بآراء مستشاريها . وأمرت بإعدام الليدي جين جراي التي لم ترغب قط في أن تكون ملكة ، وزوج جين ، الذي أراد أن يكون ملكاً ، وانطلقت جين ، وهي في السابعة عشرة من عمرها ، إلى احتفها وهي تؤمن بأن هذا قدرها ، دون أن تبدي احتجاجاً أو تذرف دموعاً (١٢ فبراير سنة ١٥٥٤) . وقطع رأس والدها سفولك وشنق مائة من صغار الثوار . وأبقى على حياة بعض المتآمرين إلى حين أملأ في أن ينتزع منهم اعترافات مفيدة ، وأنهم وبات في مبدأ الأمر إليزابيث بأنها على علم بالخطة ، ولكن عندما وقف على المنصة (١١ أبريل سنة ١٥٥٤) برأها من كل علم بها . وأطلق سراح كورتنای بعد أن سجن عاماً وأقصى عن البلاد . وأشار شارل على ماري بإعدام كورتنای وإليزابيث باعتبارهما مصدر تهديد دائم لحياتها . وأرسلت ماري إلى إليزابيث بالحضور واحتفظت بها في قصر سانت جيمس شهراً ثم سجنها شهرين في البرج . وحثها رينارد على لتنفيذ حكم الإعدام فيها فوراً ، ولكن ماري اعترضت وقالت إنه لم يثبت اشتراك إليزابيث في الجريمة (٤٠) ، وظلت حياة إليزابيث خلال هذه الشهور المشتومة معلقة في الميزان ، وساعد هذا الرعب على تكوين شخصيتها القائمة على الريبة

واستشعار الخطر ، وكان له صدهاء فيما اتسم به عهدها المتأخر من قسوة عندما ساورها بشأن ماري ستيوارت نفس القلق الذي كان يساور ماري تيودور وقتذاك حول إليزابث . وفي ١٨ مايو نقلت من أصبحت ملكة في الأيام التالية إلى وود ستوك حيث عاشت مطلقة السراح في معتقل تحت الرقابة : وأدى خوف ماري من مؤامرة أخرى تدبر لتولية إليزابث على العرش إلى أن تتعجل ماري الزواج أملاً في أن تحظى بالأمومة .

ولم يكن فيليب متلهفاً إلى هذا الحد . وتزوج ماري يوم ٦ مارس سنة ١٥٥٤ بطريق الوكالة ولكنه لم يصل لإنجلترا قبل يوم ٢٠ يوليو ، ودهش الإنجليز وسرهم أن يجدوه شخصاً يمكن احتماله بدنياً واجتماعياً : وجه غريب مثلث الشكل تقريباً ينحدر من جهة عريضة إلى ذقن مدبب يزينه شعر أصفر ولحية ، ولكنه يمتاز بخلق كريم وبدنية حاضرة ومواهب تصلح لأي شيء ، ولم يبد أي إيماء بأنه هو وحاشيته يعدون الإنجاز برابرة . بل إنه قال كلمة رقيقة في صالح إليزابث ، ولعله كان يتنبأ بأن ماري ربما لا ترزق بذرية وأن إليزابث قد تكون يوماً ملكة ، وذلك يكون شراً أهون من أن ترتقي ماري ملكة الإسكوتلنديين — التي ارتبطت منذ عهد بعيد بفرنسا — عرش إنجلترا . وعلى الرغم من أن ماري كانت أكبر سناً بكثير من فيليب فإنها تطلعت إليه بإعجاب ساذج ، وكانت متعطشة إلى الحب طوال سنوات عديدة ، فابتهجت وقت ذلك لفوزها بأمير ساحر وقوى إلى هذا الحد ، ومنحته نفسها بإخلاص لا شك فيه إلى حد أن الحاشية تساءلت هل أصبحت إنجلترا بالفعل تابعة لإسبانيا ، وكتبت لشارل الخامس في تواضع رسالة تقول فيها إنها : « أسعد مما أستطيع التعبير عنه لأنني في كل يوم أكتشف في زوجي الملك من الفضائل العديدة وصفات الكمال ما يدفعني باستمرار إلى أن أتضرع إلى الله أن يهني العون لأسعده (٤١) » .

وكانت رغبته في أن تلد ابناً لفيليب وولى عهد لإنجلترا ، عارمة استغرقت كل اهتمامها إلى حد أنها سرعان ما تصورت أنها حامل . ولقي انقطاع الطمث عندها وقتذاك ترحيباً ، باعتباره شارة مأكبة ، وألجم الأمل السنة من خطر لهم أن تلك الحالة حدثت لها كثيراً من قبل . وتقبل الناس الاضطرابات الهضمية على أنها أدلة أخرى على الأمومة ، وأبلغ سفير البندقية أن « حلمتي » الملكة قد انتفختا ودر ثدياها لبناً . وابتهجت ماري وقتاً طويلاً عندما راودتها فكرة أنها أيضاً يمكن أن تحمل طفلاً شأنها في هذا شأن أفقر امرأة في مملكتها ، ولا نستطيع أن نتصور مدى تعاستها عندما أقنعها أطباؤها آخر الأمر أن انتفاخ بطنها إنما حدث بسبب الاستسقاء ، وفي غضون ذلك كانت شائعات حملها قد اكتسحت إنجلترا وأقيمت الصلوات ونظمت المواكب من أجل ولادتها السعيدة ، وسرعان ما انتشرت شائعة بأنها أنجبت ولداً . وأغلقت الحوانيت ابتهاجاً واعتبر اليوم عطلة واحتفل الرجال والنساء في الشوارع ، وقرعت نواقيس الكنائس وأعلن أحد رجال الدين أن الطفل « أشقر وجميل » كما يليق بأمير^(٤٢) . وتحطمت ماري من الإحباط والحجل فانزوت شهوراً عن أنظار الجمهور .

وشعرت بالعزاء إلى حد ما بعودة الكاردينال بول إلى إنجلترا . وكان شارل قد أخر بول عن السفر في بروكسل لأنه عارض الزواج الإسباني ، أما وقد تم هذا الزواج فلن اعتراضات الإمبراطور هدأت ، وعبر الكاردينال القناة بصنفته قاصداً رسولياً (٢٠ نوفمبر سنة ١٥٥٤) إلى البلاد التي كان قد تركها منذ اثنين وعشرين عاماً ، وقوبل بترحيب حار من الموظفين ورجال الأكابر وس والشعب أثبت الرضا العام عن تجديد العلاقات مع البابوية . وحيما ماري بعبارة تكاد تكون منتقاة من معجمه : « السلام عليك يا مريم ، الممثلة بالنعمة ، الرب معك . أنت مباركة بين النساء Ave Maria, gratia Plena, Dominus tecum, benedicta tu in mulieribus وكان على ثقة

من أنه قريباً سوف يردف قائلا : « مباركة ثمرة رحمك (٣) » .

وعندما علم المجلس النيابي أن بول جاء معه بموافقة البابا على احتفاظ الحائزين الحاليين بأملالك الكنيسة المصادرة فرح الجميع ، كما يحدث في أى زفاف . وأعرب أعزاء المجلس النيابي وهم راكمون عن ندمهم لما ألحقوه من إساءات بالكنيسة ومنح الأسقف جاردنر التائبين الغفران بعد أن اعترف بتذبذبه . واعترف بسيادة البابا في الشؤون الكنسية وتؤكد حقه في دخول السنة الأولى للأساقفة حديثي التعيين و « الثمرات الأولى » وأعيد إنشاء المحاكم الأسقفية وأعيدت ضرائب العشور الأبرشية لرجال الاكليروس وجددت القوانين القديمة ضد اللولاردية وأعيدت الرقابة على المطبوعات من سلطات الدولة إلى سلطات الكنيسة . وبدأ كل شيء كسابق عهده بعد فتنة دامت عشرين عاماً .

ولبت فيليب مع مارى ثلاثة عشر شهراً يأمل في أن يرزق بطفل ، وحينما لم يظهر أى دليل مؤكد رجاها أن تسمح له بالذهاب إلى بروكسل حيث كان نزول والده عن العرش يقتضى حضوره . ووافقت في حزن وانطلقت معه إلى النقالة المائية التي سوف تقله إلى أدنى نهر النيمس ، وأخذت ترتقب النقالة من نافذة إلى أن اختفت (٢٨ أغسطس سنة ١٥٥٥) . وشعر فيليب نه قد أدى واجبه طوال سنة لقي فيها من أمره عسراً وهو يطارح الغرام امرأة مريضة ، وكافأ نفسه بسيدات بروكسل القويات البنية .

وكان بول وقتذاك أعظم رجل يتمتع بالنفوذ في إنجلترا . وشغل نفسه بإعادة تنظيم الكنيسة الإنجليزية وإصلاحها . وأعاد فتح بعض أديار الرهبان ودير للراهبات بمساعدة مارى . وسعدت مارى عندما رأت بعث العادب الدينية القديمة ، وسرها أن ترى الصليبان والصور المقدسة في الكنائس مرة أخرى ، وأن تشترك في مواكب تتسم بالورع مع القساوسة أو الأطفال أو الطوائف المهنية فتجاس أو تركع لتخضر قداسات تقام للأحياء والإهوات .

دغسات وقبنت يوم خميس العهد عام ١٥٥٦ أقدام لإحدى وأربعين امرأة مسنة وهى تدلف على ركبها من واحدة للأخرى ومنحنن جميعها صدقات^(٤٤) . وما دام الأمل فى الأمومة قد تبدد أصبح الدين سلواها التى تعينها على الاحتمال .

ولكنها لم تستطع أن تبعث الماضى تماماً . فقد حفزت الأفكار الجديدة إلى اضطراب مثير فى عقول أهل المدينة ، وكانت لاتزال هناك اثنتا عشرة طائفة تنشر كتبها وعقائدها فى الخفاء . وتأملت مارى عند ما سمعت عن جماعات تنكر ألوهية المسيح ووجود الروح القدس وانتقال الخطيئة الأولى . وخيل إليها أن هذه الهرطقات تعد جرائم مهلكة بالنسبة لإيمانها الساذج وأنها أسوأ بكثير من خيانة الدولة . هل فى وسع الهرطقة أن يعرفوا كيف يعاملون الروح الهشرية خيراً مما يعرفه كاردينالها المحبوب ؟ وترأى إلى أسماعها أن واعظاً تضرع بصوت عال أمام جمهور أبرشيته أن يهديها الله أو يرفعها من الأرض^(٤٥) . وألقى يوماً كلب ميت ، حلق شعر رأسه جرياً على عادة الرهبان ، وحول عنقه حبل ، من نافذة فى غرفة الملكة^(٤٦) . وفى كنت جدد أنف قسيس^(٤٧) . ورأت مارى أنه من غير المعقول أن يقوم المهاجرون البروتستانت الذين سمحت لهم بالرحيل عن إنجلترا فى سلام ، بإرسال كتيبات يهاجمونها فيها ويصفونها بأنها حقاء رجعية ويتحدثون عن « صلاة لاتيذة مكروهة عند إقامة قداس وثنى^(٤٨) » . وحشت بعض الكتيبات قوادها على أن يهبوا فى ثورة ويخلعوا الملكة^(٤٩) . وعقد اجتماع من ١٧٠٠٠ شخص فى أولدجيت (١٤ مارس سنة ١٥٥٤) ونادى بوضع إليزابث على العرش^(٥٠) . وكانت حوادث التمرد فى إنجلترا من تدبير البروتستانت الإنجليز فى الخارج .

وكالت مارى تنزع بفطرتها وعادتها إلى الرحمة - حتى عام ١٥٥٥ فماذا حولها إلى ملكة تحظى بأكبر قدر من الكراهية بين الملكات

الإنجليزيات ؟ هناك استفزاز الهجمات التي أظهرت عدم الاحترام لشخصها أو عقيدتها أو مشاعرها من ناحية ، وهناك الخوف من أن تكون الهرطقة ستاراً لثورة سياسية من ناحية ثانية ، وهناك الشدائد التي عانتها وخيبة الأمل المتكررة التي كدرت صفو روحها وجعلت حكمها على الأشياء مظلماً من ناحية ثالثة ، وهناك إيمانها الذي لا يتزعزع بصواب آراء مستشاريها الذين تثق بهم أكثر من أى شخص آخر - فيليب وجاردنر وبول - التي تذهب إلى أن الوحدة الدليلية أمر لا غنى عنه للتضامن القومى وبقائه . وسرعان ما أفصح فيليب عن مبادئه فى الأراضى المنخفضة . وكان الأسقف جاردنر قد أقسم بالفعل (ربيع عام ١٥٥٤) أن يحرق الأساقفة البروتستانت الثلاثة - هوبر وريدلى ولايتمر - ما لم يرتدوا عن عقيدتهم (٥١) . وكان الكاردينال بول ، مثل مارى ، ينزع بفطرته إلى الرحمة ولكنه كانت لا تلبس له قناة فى العقيدة ، وقد أحب الكنيسة حباً جماً إلى حد أنه كان يرتجف للتشكك فى عقائدها أو سلطتها . ولم يكن له دور قيادى مباشر أو شخصى فيها قامت به مارى من اضطرهاد ، وأشار بالاعتدال وأطلق مرة سراح عشرين شخصاً كان الأسقف بونر قد حكم عليهم بالموت حرقاً (٥٢) .

ومع ذلك فإنه أصدر تعليماته لرجال الأكليروس بأنه إذا فشلت كل طرق الإقناع سلمياً فإن كبار المراطقة يجب أن تنزع منهم الحياة ويستأصلوا مثل الأطراف الفاسدة من الجسد (٥٣) . وأعربت مارى عن رأيها فى تردد . « نعتقد أن إثارة عقاب المراطقة يجب أن يتم بغبر اندفاع ولا نتخلى فى الوقت نفسه عن إقامة العدالة لهؤلاء الذين يسعون إلى خداع البسطاء (٥٤) » . وكانت مسئوليتها فى بادئ الأمر مقصورة على الإذن ولكنها كانت حقيقة .

وعندما تبين لها (١٥١٨) أن الحرب مع فرنسا قد عادت عليها وعلى

إنجلترا بالوبال عزت القشل إلى غضب الله عليها لترفعها بالهرطقة وتشددت قطعاً بعد ذلك في الاضطهاد .

وافتح جاردنر عهد الإرهاب بأن استدعى إلى محكمته الأسقفية سنة من رجال الإكليروس (٢٢ يناير سنة ١٥٥٥) كانوا قد رفضوا قبول العقيدة التي توطدت من جديد(*) :

وارتد واحد منهم وأحرق أربعة منهم جون هوبر وأسقف جلوسستر وورسستر الذي أقيـل (٤ - ٨ فبراير سنة ١٥٥٥) . ويبدو أن جاردنر أصيب بانفكاس في الشعور بعد تنفيذ هذه الأحكام بالإعدام فلم يشترك بعد ذلك في الاضطهاد ، وانهارت صحته ومات في نوفمبر من هذا العام . واضطلع الأسقف بونر بالمذبحة . ونصح فيليب ، وكان لا يزال بإنجلترا ، بالاعتدال وعندما أذان بونر ستة ، وحكم عليهم بالحرق اعترض سفير الإمبراطور رينار على « هذا التهور البربري » (٥٧) وندد كاهن الاعتراف الخاص لفيليب ، وهو أخ أسباني من الرهبان ، وهو يعظ أمام الحاشية ،

(*) إن المصدر الأساسي لما قامت به ماري من اضطهاد هو كتاب جون فوكس وعنوانه : « في أمور الكنيسة وفي التعليق على مآثرها *Rerum in ecclesia gestarum Commentarii* » (١٥٥٩) الذي ترجم إلى الإنجليزية بعنوان : « أفعال وآثار » (١٥٦٣) ويعرف بغير كلفة باسم « كتاب الشهداء » وأصبح الوصف الواضح لمحاكمات البروتستانت ووفياتهم من المقتنيات الحبيبة عند الأسرة بعد الكتاب المقدس عند المتطهرين (البيوريتان) ، وعلى الرغم من أن القساوسة من الآباء اليسوعيين نشروا (١٥٠٣) خمسة مجلدات تهجم صحة ما ورد فيه فقد كان له أثر قوي في تكوين مزاج إنجلترا في عهد أليف كرومويل . وقد انتقده الكثيرون من رجال الكنيسة البروتستانت لما فيه من المبالغة والخص في النقل والتحاميل وعدم العناية بالتفاصيل (٥٥) . ويقارن مؤرخ كاثوليكي بينه وبين سير القديسين في القرون الوسطى في مدى ما يمكن الوثوق به مما ورد فيه ، ويحتم كلامه بقوله إنه على الرغم مما يختلف الكثير من التفاصيل من شكوك « فليس هناك من يشك في أن هذه الأحداث وقعت بالفعل » (٥٦) .

بالأحكام باعتبارها مخالفة لروح المعتدلة والمتسامحة التي حث عليها المسيح^(٨٥) مراراً وتكراراً . وأوقف بونر الأحكام لمدة خمسة أسابيع ، ثم أمر بتنفيذها ، وأعتقد أنه كان رقيقاً متساهلاً ، والحق أن مجالس المائكة أنه يوماً لأنه لا يظهر حماسة كافية في مطاردة الهرطقة^(٨٦) وعرض على كل هرطيق منحه عفواً كاملاً إذا ارتد عما يقول ، وكثيراً ما أضاف وعداً بتقديم مساعدة مالية أو عمل صريح^(٨٧) ، ولكن عندما كانت هذه الإغراءات تفشل كان يميز الحكم بشراسة ، وكانت توضع عادة حقيقة ممتلئة بالبارود بين ساقى المحكوم عليه حتى تؤدي ألسنة اللهب إلى موت سريع ، ولكن الخشب احترق ببطء في حالة هوبر ، ونخاب أثر البارود فلم ينفجر . وقامى الأسقف السابق آلاماً استمرت ساعة تقريباً .

- وكان معظم الشهداء عمالاً بسطاء تعلموا تلاوة الكتاب المقدس وشجعوا على العمل بالتفسير البروتستانتي له لإبان الحكم السابق . ولعل المضطهدين رأوا أن من العدل استدعاء رجال الدين الذين بذلوا الجهد لتحقيق مبادئ العقيدة البروتستانتية ، ليشهدوا لها بالاستشهاد ، وفي سبتمبر سنة ١٥٥٥ حضر كرانمر وعمره ستة وستون عاماً ، وريدلى وعمره خمسة وستون عاماً ، ولاتيمر ، البالغ من العمر ثمانين عاماً ، من سجن البرج ليقفوا للمحاكمة في أكسفورد . وكان لاتيمر قد لطخ صفحة حياته البليغة بالموافقة على إحراق المنكرين للتعهد والفرنسيسكان العنيدين في عهد هنرى الثامن . وكان ريدلى قد أيد بنشاط اغتصاب جين جراى للعرش ، ووصف مارى بأنها ابنة سفاح وساعد في خلع بونروجاردنر من كرسيهما الأسقفين .

وكان كرانمر الرأس المفكر للإصلاح الدينى الإنجليزى ، فقد أحل زواج هنرى وكاترين ، وزوج هنرى من آن بولين ، واستبدل بالقداس كتاب الصلاة العامة واضطهد فريث ولامبرت وغيرهما من الكاثوليك ،

ووقع وصية لإدوارد بالتاج لجين جراى ، وندد بالقداس باعتباره كفرة ، وكان هؤلاء الرجال وقتذاك فى البرج منذ عامين يتوقعون الموت كل يوم .

وحكم كرانمر فى أكسفورد فى اليوم السابع من سبتمبر . وقام قضاته بكل جهد ممكن للحصول منه على إنكار لما ذهب إليه . فتمسك بموقفه بحزم وحكم عليه بأنه مذنب ، ولكن لما كان رئيساً للأساقفة فإن الحكم عليه ترك للبابا وأعيد إلى سجن البرج . وفى ٣٠ سبتمبر حكم ريدلى وتشبث بموقفه وفى اليوم نفسه اقتيد لانيمر أمام المحكمة الكنسية ، وكان وقتذاك رجلاً لا يبالي بالحياة ، يرتدى ثوباً قديماً مهلهلاً ورأسه الأبيض تكسوه قلنسوة فوق طاقية نوم فوق منديل وتعدى نظاراته من عنقه وربطت بزئارة نسخة من العهد الجديد . وفى اليوم الأول من أكتوبر حكم عليهم بالإدانة وأحرقوا فى اليوم السادس من أكتوبر . وركعوا أمام المحرقة وصدوا معاً . وربطوا بالأغلال إلى عمود حديدى وعلقت حول عنق كل رجل حقيبة مملئة بالهارود وأشعلت حرم الخطب . وقال لانيمر : « تهلل ولا تهتئس يا سيد ريدلى وتصرف كرجل ، فإننا فى هذا اليوم سوف نشعل شمعة بفضل الله فى إنجلترا ، وأنا على يقين أنها لن تطفأ أبداً (٦١) » .

وفى الرابع من ديسمبر أيد البابا الحكم على كرانمر . واستسلم رئيس الأساقفة البروتستانتي الأول فى كنتربرى لخوف يغتفر له ، ولم يكن فى وسع رجل استطاع أن يكتب بالإنجليزية قوية الدلالة كتاباً مثل كتاب الصلاة العامة مواجهة هذه الحن دون أن يتعرض لآلام غير عادية فى الجسد والعقل

ولعل كرانمر تأثر بنسباء بول الحار فقرّر قوله إنه : « تخلى عن كل طرق الهرطقة وأخطاء لوثر وزوينجلى وكرها وأبغضها » : وأقر بإيمانه بالشعائر المقدسة السبع واعترف بالتجسيد والمطهر وكل تعاليم الكنيسة الرومانية .

وكان إنكاره هذا قبيحاً بأن يستبدل به الحكم بسجنه جريماً على ما حدث في جميع السوابق ، ولكن ماري (طبقاً لما قاله فوكس) رفضت إنكاره لمعتقده على أساس أنه يفتنر إلى الإخلاص وأمرت بإعدام كرايمر (٦٢)

وفي كنيسة سانت ماري بأكسفورد ثلاثي صبيحة يوم لإعدامه (٣١ مارس سنة ١٥٥٦) إنكاره السابع والأخير . ثم أضاف لدهشة جميع الحاضرين .

وأجىء الآن إلى الأمر العظيم الذى يؤرق ضميرى أكثر من أى شيء آخر فعلته أو قلته طوال حياتى وذلك هو تدبيج رسالة في الخارج تخالف الحقيقة . وأنا الآن أتبرأ منها وأرفضها إنها كتبت خوفاً من الموت وذلك شأن جميع البيانات والأوراق التى كتبتها أو وقعت عليها بيدي منذ تجریدی من منصبى . . . وما دامت يدي قد أثمت ، بكتابة ما يخالف صدق مشاعري فإن يدي سوف تعاقب على ذلك لأنها سوف تحرق أولاً . . . أما بالنسبة للبائبا فإنى أرفض اعتباره عدواً للمسيح وخارجاً على المسيحية (٦٣) .

وعندما اقتربت السنة الثمان من جسده وهو على الخرقه مد يده فيها واحتفظ بها هناك ، كما يقول فوكس : « ثابتة لا تتحرك ... حتى يستطيع كل الناس أن يروا يده تحترق قبل أن تمس النار جسده . وأخذ يردد كثيراً كلمات ستيفن « رباه ! تقبل روحي » في عظمة اللهب الذى سلم الروح القدس (٦٤) .

وكانت وفاته دليلاً على بلوغ الاضطهاد ذروته . ومات نحو ٣٠٠ شخص في أثناءه منهم ٢٧٣ في السنوات الأربع الأخيرة من ذلك العهد . وكما مضت المحرقة فدمماً أصبح من الواضح أنها كانت خطأ . واستمدت البروتستانتية للقوة من شهدائها كما فعلت المسيحية في بواكير عهدها وانزعج كثير

من الكاثوليكية في عقيدتهم وشعروا بالخزي من ملكتهم بسبب ما كابده الضحايا من آلام وما أظهروه من جلد . وعلى الرغم من أن الأسقف بونر لم ينعم بالعمل فقد أطلق عليه اسم « بونر الدموي » لأن أسقفيته شهدت معظم ما نفذ من أحكام الإعدام ووصفته امرأة بأنه « الذباح المعروف وعبد المحزنة العامة لكل الأساقفة في إنجلترا » (٦٥) ، ووجد المئات من الإنجليز البروتستانت ملجأ في فرنسا الكاثوليكية وسعوا هناك إلى وضع نهاية للعهد الحزين .

وبينما كان هنري الثاني يطارد البروتستانت الفرنسيين فإنه شجع على تدبير المؤامرات الإنجليزية ضد ماري الكاثوليكية التي أدى زواجها بملك إسبانيا إلى ترك فرنسا محاطة بقوى معادية . واكتشف العملاء البريطانيون في أبريل عام ١٥٥٦ مؤامرة يتزعمها هنري ددلي لخلع ماري وتولية إليزابث على العرش . وتم القبض على عدة أشخاص منهم اثنان من أفراد بيت إليزابث ، وأقبح اعتراف اسم إليزابث نفسها والملك الفرنسي . وقعت الحركة ولكنها تركت ماري في خوف دائم من الاغتيال .

وواجهت جماعة من الهاربين محناً كشفت عن مزاج العصر الذي تتسلط العقيدة عليه ، فقد جاء إلى لندن عام ١٥٤٨ جان لاسكي ، وهو كالفيني بولندي وأنشأ هناك أول كنيسة مشيخية في إنجلترا . وبعد ارتقاء ماري العرش بشهر ترك لاسكي وجانب من جمهور المصلين معه لندن في سفينتين دنمركيتين . وفي كوبنهاجن منعوا من الدخول ما لم يوقعوا على الاعتراف الرسمي اللوثرى الخاص بالعقيدة . فأبوا باعتبارهم كالفينيين متمسكين بعقيدتهم . ولم يسمح لهم بالنزول ، فسافروا بجرأ إلى سمار وليبسك وهامبورج ، وفي كل حالة كانوا يواجهون بالمثل بنفسه ويردون بالرفض (٦٦) . ولم يذرف اللوثريون في ألمانيا أية دموع على ضحايا ماري بل نددوا بهم باعتبارهم هراطقة مكروهين و « شهداء للشيطان » بسبب إنكارهم وجود المسيح حقاً في القربان (٦٧) المقدس . وأدان كالفن تعصب اللوثرين الذي لا يعرف الرحمة ، وفي ذلك العام

(١٥٥٣) أحرق سرفيتوس في المحزنة . وبعد أن ظل الهاريون تتقاذفهم أمواج بحر الشمال معظم أيام الشتاء سمح لهم بالدخول أخيراً ووجدوا معاملة إنسانية في إمدن .

وسارت ماري إلى نهايتها المحتومة بقدر كئيب . وكان زوجها النقي في حرب غير منطقية وقتذاك مع البابوية وكذلك مع فرنسا ، وجاء إلى إنجلترا (٢٠ مارس سنة ١٥٥٧) وحث الملكة على أن تشترك إنجلترا في الحرب باعتبارها حليفة . ولكي يخفف من كراهية الإنجليز لمهمته ، أقنع ماري بالاعتدال في الاضطهاد^(٦٨) ، ولكنه لم يستطع أن يكسب بسهولة تأييد الجمهور بل كان الأمر على العكس ، فبعد شهر من وصوله أشعل توماس ستافورد ، ابن أخى الكاردينال بول ، ثورة لتحرير إنجلترا من ماري وفيليب على الهواء ، ولكنه هزم وشنق (٢٨ مايو سنة ١٥٥٧) ولقد أزعج البابا كأس الملكة تعاسة برفضه الاعتراف ببول قاصداً رسولياً وانهم بالهزيمة . وكانت ماري في لفة لإرضاء فيليب ومقتنعة أن هنرى الثانى قد أيد ستافورد في مؤامراته ، فأعلنت الحرب على فرنسا في ٧ يونية . وبعد أن حقق فيليب غرضه غادر إنجلترا في يوليو . وراود الشك ماري في أنها لن تراه أبداً مرة أخرى . وقالت : « سوف أعيش ما بقى من أيامى دون رفيق من الرجال^(٦٩) » . وفقدت إنجلترا في هذه الحرب التى لم ترغب فيها كاليه (٦ يناير سنة ١٥٥٨) التى كانت قد احتفظت بها ٢١١ عاماً وآلاف الإنجليز من الرجال والنساء الذين عاشوا هناك وفروا الآن إلى بريطانيا ، لاجئين معدمين ، وأذاعوا الاتهام المير المنسوب إلى حكومة ماري بأنها أهملت إهمالاً لإجراميا في الدفاع عن آخر ممتلكات إنجلترا في الفارة . وعقد فيليب صلحاً موافقاً له دون أن يطلب استعادة كاليه . وكانت ثمة عبارة قديمة تتردد هى أن ذلك الميناء الثمين كان « ألمع جوهرة في التاج الإنجليزي » . وأضافت ماري عبارة أخرى إلى الحكاية « عند ما أموت وتفتحون صدرى فسوف

نجدون كاليه في قلبي (٧٠) ، . وفي أوائل عام ١٥٥٨ اعتقدت الملكة مرة أخرى أنها حامل . وكتبت وصيتها إذ كانت تتوقع أن تكون ولادتها خطيرة وبعثت برسالة إلى فيليب تتوسل إليه فيها أن يحضر الحادث السعيد . فبعث إليها بتهانيه ولكن لم تكن هناك ضرورة لحضوره ، فقد كانت ماري على خطأ . وكانت وقتذاك امرأة مهجورة من الجميع ، ولعلها كانت مغبولة إلى حد ما . كانت تجلس على الأرض الساعات الطوال وركبتها مرفوعة إلى ذقنها ، وكانت تتجول في قاعات القصر مثل شبح ، وكتبت رسائل لطختها بدموعها للملك الذي توقع وفاتها ، فأمر عملاءه في إنجلترا أن يستميلوا قلب الزباث للزواج من أمير إسباني أو من فيليب نفسه .

وفي أيام الصيف الأخير من حياة ماري انتشر وباء حمى البرداء في إنجلترا وأصيب به الملكة في سبتمبر عام ١٥٥٨ وتحالف مع الاستسقاء و « زيادة الصفراء السوداء » فأضعفها إلى حد أن رغبتها في الحياة تلاشت . وفي ٦ نوفمبر بعثت بمجوهر التاج إلى الزباث . وكان هذا عملاً كريماً أذعن فيه حبها للكنيسة لرغبتها في منح إنجلترا وراثته منظمة للعرش . وتعرضت للغيوبة فترات طويلة واستيقظت من إحدى هذه الغيوبات لترى كيف رأت حليماً سعيداً عن أطفال ياعبون ويغنون أمامها (٧١) . وفي ١٧ نوفمبر سمعت القداس مبكراً وهتفت بالعبارات التي يرددونها المصاؤون عادة وراء القس بحرارة . وماتت قبل الفجر .

وفي اليوم نفسه مات الكاردينال بول ، الذي منى بهزيمة منكرة مثل ما يمكنه . ولا بد لنا عند تقديره أن نسجل الحقيقة المرة وهي أنه كان قد أدان ثلاثة رجال وامرأتين وحكم عليهم بالموت حرقاً بتهمة الهرطقة في مستهل القرن السادس عشر . ومع أن كل المؤامرات ما عدا المنكرين لتعميد في تلك الفترة ، كانت في الحقيقة وقتها في المراحل الأولى من التجهيز ، ولذا لم

يحدث في أى مكان في العالم المسيحى المعاصر — حتى في إسبانيا — أن أحرق هذا العدد للكبير من الرجال والنساء بسبب آرائهم كما حدث في عهد تولى ريجينالد بول رئاسة الكنيسة الإنجليزىة .

وفى وسعنا أن نقول كلمة رفيقة عن ماري . فقد أدّى الحزن والمرض وكثير مما تعرضت له من أخطاء إلى انحراف عقلها . ولم تتحول من الحلم إلى القسوة إلا بعد مؤامرات كانت تستهدف حرمانها من التاج الذى تضعه على رأسها وأصاحت السمع فى ثقة زائدة لرجال الدين الذين سعوا إلى الانتقام بعد أن تعرضوا هم أنفسهم للاضطهاد . وكانت تعتقد حتى آخر لحظة فى حياتها أنها بالقتل إنما تؤدى فرائضها نحو العقيدة التى أحببتها كمجال حيوى لبقائها . وهى لا تستحق اسم « ماري الدموية » ما لم تسحب تلك الصفة على عصرها بأسره ، فهو يهون بلا رحمة من شأن شخصية فيها الكثير من الصفات ، التى تستحق الحب :

وإن امتيازها العجيب إنما هو استمرارها فى العمل الذى بدأه والدما لإبعاد إنجلترا عن روما . وأظهرت لإنجلترا ، ولما نزل كاثوليكية ، أسوأ جانب للكنيسة التى خدمتها ، ولما ماتت كانت إنجلترا مهياة أكثر من ذى قبل لاعتماد العقيدة الجديدة التى جاهدت للقضاء عليها .

الفصل السابع والعشرون

من روبرت بروس إلى جون نو كس

١٣٠١ - ١٥٦١

١ - الإسكوتلنديون الذين لا يقهرون

إن الجنوب الحار اللطيف يولد الحضارة والشمال البارد القاسى يتغلب مراراً على الجنوب المتهاون الكسول ويستوعب الحضارة ويحورها ، وإن بلاد أقصى الشمال - سكوتلنده والنرويج والسويد وفنلنده - لتكافح العناصر التى تكاد تشبه الظروف القطبية الشمالية لتقوم بشيء من الترحيب بالحضارة وتسهّم فيها وهى تواجه ألف عقبة .

ولقد شجعت الهضاب المجذبة الخالية من الطرق على قيام الإقطاع ولم تشجع على الزراعة ، بينما رحبت الأراضى المنخفضة الخضراء الخصيبة بغزوة بعد غزوة قام بها الإنجليز الذين لم يستطيعوا أن يدركوا لماذا لا تستقبل سكوتلنده تدفعهم عليها هم وملوكهم . وكان الإسكوتلنديون قديماً من الكلتيين واختلطوا فى القرون الوسطى بالأيرلنديين والنرويجيين والإنجليز والساكسون والنورمانديين ، وما أن حل عام ١٥٠٠ حتى كانوا قد أصبحوا شعباً ضيق الأفق فى المشاعر والأفكار - ومثلهم فى ذلك مثل شبه جزيرتهم ، عميق الغور فى الخرافة والأساطير مثل الضباب المنتشر عنده معتزلاً بنفسه مثل قننه البحرية ، فظلاً مثل أرضه ، متهوراً مثل سبوله الجارفة ، وهو شرس بورقيق ، قاس وشجاع فى آن واحد ، ولا يقهر أبداً . ويبدو أن الفقر ضارب

يجنونه في ظروفه الجغرافية والأخلاق في فقره ، وهكذا نشأ الشح من
التربة الحائقة ، وكان الفلاحون يزرعون تحت وطأة الكدح والنصب ، فلم
يكن لديهم متسع من الوقت لكتابة الرسائل ، أما النبلاء الذين أبقوهم في
العبودية فقد فاحروا بالأمية ، إذ وجدوا ألا فائدة من تعلم حروف
الأبجدية في ثاراتهم أو حروبهم ، وقسمت الجبال والعشائر السكان المشتتين إلى
طوائف متناظرة متهورة لا يعفون عن أعدائهم في الحرب ولا يعطون أماناً في
السلم . ولما كان النبلاء يملكون نفرياً كل أسباب الساطة العسكرية في فرقهم
الخاصة فلمهم سيطروا على المجلس النيابي وعلى الملوك . وكان لدى آل
دوجلاس وحدهم ١٠٠٠ ره تابع ودخولهم تضارع دخل التاج .
وقبل عام ١٥٠٠ كانت الصناعة بدائية ومزلية والتجارة مضطربة ،
والمدن قليلة وصغيرة . وكان تعداد سكان سكوثلندة كلها وقتذاك
٦٠٠٠٠٠ نسمة نصف عدد سكان جلاسجو اليوم . وكانت جلاسجو بلدة
صغيرة تعمل بالصيد وكانت برت هي العاصمة حتى عام ١٥٤٢ ، وكان
بأذنبه ١٦٠٠٠ نسمة .

وعبرت روح الاستقلال الفردية والمحلية والقومية عن نفسها في الأنظمة
القروية والبلدية التي تتمتع بالحكم المحلي داخل إطار الإقطاع والملكية ، وسمح
لأوساط الناس - المواطنين المحررين من سكان المدن - بأن يكون لهم
ممثلون في المجلس النيابي أو مجلس المقاطعات ، ولم يكن يحق لهم أن يجلسوا
بين زملائهم من أعضاء العموم كما في إنجلترا ، ولكن بين ملاك الأراضي
من الإقطاعيين ، وكانت أصواتهم تضيع في الأغلبية التي للنبلاء . ولما
كان الملوك لا يستطيعون أن يوطدوا سلطانهم ضد النبلاء بالتحالف مع
التجار والأغنياء والمدن الآهلة بالسكان ، كما هو الحال في فرنسا ، فلمهم
سعوا إلى الحصول على التأييد من ثروة الكنيسة ونفوذها .
أما النبلاء فكانوا على طرفي نقيض مع الملوك وتعلموا أن يكرهوا
الكنيسة ويحبوا أملاكها وانضموا في إطلاق الصرخة العامة التي تنادى

بأن الثروة للقومية إنما تصب في روما : وكان النبلاء في اسكوتلندة — وليس الملوك والتجار كما في إنجلترا — هم الذين نهضوا بالإصلاح الديني ، أى تحرير العلمانيين من سلطة الكهنسيين^(١) .

وحققت الكنيسة الإسكوتلندية عن طريق تسلطها على تقوى الناس لنفسها ثراء وسط فقر مدقع وآمال معلقة على العالم الآخر . وقام مبعوث بابوى حوالى نهاية القرن الخامس عشر بإبلاغ البابا أن دخل للكنيسة في إسكوتلندة يعادل كل الدخول الأخرى مجتمة^(٢) . وكان الوعاظ وأوساط الناس يكادون يحتكرون معرفة القراء والكتابة . وكان رجال الإكليروس الإسكوتلنديون في القرن السادس عشر مشهورين بالانضاع في العلم ، وكانت الكنيسة بالطبع هى التى أسست جامعة سانت أندروز وأبردين وحافظت عليهما . وكان الأساقفة ورؤساء الأديار بعد عام ١٤٨٧ ينصبون — وفي الواقع يعينون — بمعرفة الملوك الذين جمعوا من هذه المناصب مكافآت على خدمات سياسية أو رواتب لأبنائهم غير الشرعيين . ووهب جيمس الخامس ثلاثة من أبنائه من السفاج دخولا كنسية من كلسو وهاروز وهوليرودوسانت أندروز . وكانت الميول الدينيوية لهؤلاء المعينين من الأسرة الملكية مسبوقة إلى حد ما عن فساد رجال الإكليروس في القرن السادس عشر .

ولكن الانحلال العام للأخلاق والنظام الذى اتسمت به الكنيسة أواخر العصور الوسطى ، كان واضحا في اسكوتلندة قبل تعيين الملوك للأساقفة بعهد طويل . وكتب هيلير بلوك الكاثوليكي المتزمت يقول : « إن فساد الكنيسة الذى استغل شره في كل مكان في سائر أرجاء أوروبا في القرن الخامس عشر ، قد وصل في إسكوتلندة إلى درجة لم نعرف في أى مكان آخر^(٣) » . ومن هنا نشأ إلى حد ما عدم المبالاة الذى نظر به عامة الناس ، على ما عرفوا به من محافظة على العتيقة ، إلى إحلال رجال الدين البروتستانت محل رجال الدين الكاثوليك . وشكا الملك جيمس الأول عام

١٤٢٥ من فجور الرهبان وكسلبهم ، وفي عام ١٤٥٥ اضطرت قسيس في لينلنجهو قبل أن يتسلم وظيفته أن يعطى عهداً بأنه لن يرهن أملاك كنيسة ولن يحتفظ بـ « حظية دائمة »^(٤) . وكان للكاردينال بيتون ثمانية أبناء من السفاج ، وضاجع ماريون أوجيلنى ليدلا قبل أن يمضى ليلقى خالقه^(٥) ، وحصل جون رئيس أساقفة هاميلتون من جلسات مختلفة عقدها المجلس النيابى الإسكوتلندى على خطابات بشرعية ذريته المتزايدة : ولم يبخل شعراء ما قبل الإصلاح الدينى فى إسكوتلندة بكلمات فى هجاء رجال الأكليروس بل إن رجال الأكليروس أنفسهم ، فى المجمع المقدس الكاثوليكي الإقليمي لعام ١٥٤٩ عزوا انحطاط الكنيسة فى إسكوتلندة إلى « الفساد فى الأخلاق والفسق الدنس فى حياة رجال الكنيسة من جميع الدرجات تقريباً »^(٦) ، ومهما يكن من شيء فلا بد من أن نضيف أن أخلاق رجال الأكليروس كانت مجرد انعكاس لأخلاق العلمانيين — وفوق كل شيء النبلاء والملوك .

٢ — وقائع ملكية ١٣١٤ — ١٥٥٤

إن الحقيقة الأساسية فى تاريخ الدولة الإسكوتلندية هى الخوف من إنجلترا ، والحق أن الملوك الإنجليز حاولوا مراراً أن يلاحقوا إسكوتلندة بالتاج الإنجليزى من أجل سلامة إنجلترا من هجوم يباغتها من الخلف : وقبلت إسكوتلندة التحالف مع فرنسا عدو إنجلترا اللدود لكى تحمى نفسها . ولذلك تبرز هذه الوقائع .

لقد ظفر الإسكوتلنديون بحريتهم من إنجلترا بانوكبرن (١٣١٤) بالأقواس والسهام والقووس المستخدمة فى القتال : ولما كان روبرت هروس قد قادهم هناك إلى النصر ، فقد ظل يحكمهم حتى وفاته متأثراً بداء الجذام (١٣٢٩) . وتوج ابنه دافيد الثانى ، شأنه فى هذا شأن الملوك الإسكوتلنديين منذ أمد بعيد ، على « حجر القدر » المقدس فى دير سكون .

ولما بدأ إدوارد الثالث ملك إنجلترا حرب المائة سنة مع فرنسا ، رأى أنه من الحزم أن يضمن حدوده الشمالية ، فهزم الإسكوتلنديين في هاليدون هل ، وأقام إدوارد باليو العوبة له على عرش إسكوتلندة سنة ١٣٣٣ ، ولم يسترد دافيد الثاني التاج إلا بعد أن دفع للإنجليز فدية قدرها ١٠٠.٠٠٠ مارك (٦٠٠.٠٠٠ رطل) ، ونظراً لأنه لم يترك وريثاً مباشراً عند وفاته (١٣٧١) انتقلت المملكة إلى ابن أخيه روبرت ستيوارت الذي بدأت به أسرة ستيوارت المششومة .

وسرعان ما استؤنفت حرب نصفي إنجلترا ضد الكل . وأرسل الفرنسيون جيشاً إلى إسكوتلندة ، وعاث الإسكوتلنديون والفرنسيون فساداً في بلاد إنجلترا الواقعة على الحدود ، واستولوا على دراهم وأعدوا كل سكانها — رجالاً ونساء وأطفالاً وراهبات ورهباناً وقساوسة . وقام الإنجليز بالحركة التالية في لعبة الشطرنج الملكي هذه فغزوا إسكوتلندة ، وأحرقوا برث ودندى ودمرو دير ماروز (١٣٨٥) ، وسار روبرت الثالث في الطريق نفسه ، ولكن عندما أسر الإنجليز ابنه جيمس (١٤٠٦) مات حزناً . واحتفظت إنجلترا بالملك الصبي في سجن لطيف إلى أن وقع الإسكوتلنديون « صلحاً دائماً » (١٤٢٣) وتخلوا عن كل تعاون بعد ذلك مع فرنسا .

وقد تعلم جيمس في الأسر ، قدراً لا بأس به ، وحصل على عروس إنجليزية ، وألف في مدح هذه « الحماية البيضاء » بلسان الإسكوتلنديين « كتاب الملك » وهو قصيدة مجازية يستكثر على ملك أن ينظم مثلها . والحق أن جيمس كان مبرزاً في عشرات الأمور . فقد كان واحداً من أحسن المصارعين والعدائين والفرسان ورماة السهام وقاذفي الحراب والصناع المهرة والموسيقين في إسكوتلندة ، وكان حاكماً مقتدراً كريماً . وفرض عقوبات على التجارة التي تفتقر إلى الأمانة والزراعة المهملة ، وبني المستشفيات وألزم الخانات بالإغلاق في الساعة التاسعة ، وحول طاقات الشباب من كرة القدم

إلى التدريبات العسكرية ، وطلب إصلاح النظام الكنسى وتقويم حياة الرهبان فى الأديار . وعندما بدأ حكمه النشيط (١٤٢٤) تعهد بالقضاء على الفوضى والجريمة فى إسكوتلندة ، ووضع حد الحروب الخاصة بين النبلاء واستبدادهم الإقطاعى « إذا لم يهينى الله سوى حياة كلب فأنى سوف أجعل المفتاح يجرس القلعة والسرخس يرعى البقر » ، أى يقضى على السطو على البيوت والماشية — فى كل أنحاء إسكوتلندة (٧) . وسرق لص من أهل الجبال بقرتين من امرأة فأقسمت ألا تلبس أحذية أبداً حتى تسير إلى الملك لتتدد يضعف القانون فقال اللص « أنت تكذبين وسوف أعمل على أن تحتذى » وسمم حدودى حصان فى قدميه العاريتين . ومع ذلك وجدت طريقها إلى الملك وأمر بمطاردة اللص وطوف به حراً برث ومعه لوحة من الخيش صورت عليها جريمته وحرص على أن يشق الوحش بلا إمهال . وفى غضون ذلك اشتجر النزاع فى وقته بينه وبين بارونات يضعون العراقيل فى طريقه فأتى بقليل منهم إلى منصة الإعدام وصاحروا الزيادة فى الأراضى المستأجرة وفرض المكوس على اللوردات وأوساط الناس على السواء وأعطى للحكومة الأموال التى احتاجت إليها لكي تستبدل ببطاقة عديدين طاغية واحداً .

ودعا أصحاب الأرض — ملاك الضياع الأقل مساحة — إلى المجلس النبائى وجعلهم هم والطبقة الوسطى بديلاً للنبلاء ورجال الإكليروس . وفى عام ١٤٣٧ قتلته عصابة من النبلاء

واستمر أبناء النبلاء الذين كان قد أسقطهم فى الحياة أو انتزع منهم الأملاك فى مقاومة جيمس الثانى فى الكفاح ضد الملكية التى تنزع إلى المركزية . وبينما كان الملك الجديد لا يزال بعد صبيهاً فى السابعة من عمره دعا وزراؤه إيرل اف دو جلاس الصغير وشقيقاً أصغر لينزلاً ضيفين على الملك فحضرا وقدا لمحاكمة هزلية وقطع رأساها (١٤٤٠) ودعا جيمس الثانى نفسه بعد اثنى عشر عاماً وليام ، إيرل اف دو جلاس ، لبلاطه فى ستيرلنج ومنحه عهد الأمان

وأنزله في ضيافته الملكية وقتله بتهمة تبادل رسائل فيها تأمر على خيانة الدولة مع إنجلترا ، واستولى على كل القلاع الإنجليزية الحصينة في إسكوتلندة إلا قلعة واحدة ، ومزق إرباً إثر انفجار عارض من مدفعه : وكفر جيمس الثالث عن فظاظة أبيه فبعد مواجهات وحشية أسره النبلاء وقتل لتوه (١٤٨٨) ، وتزوج جيمس الرابع من مرجريت تيودور شقيقه هنرى الثامن ، وبفضل هذا الزواج طالبت ماري ملكة الإسكوتلنديين بعرش إنجلترا .

ومع ذلك فلن هنرى الثامن عندما انضم إلى إسبانيا والنمسا والبندقية والبابوية في المهجوم على فرنسا (١٥١١) شعر جيمس بأنه ملزم بمساعدة حليفة إسكوتلندة القديمة المعرضة للخطر ، على هذا النحو بغزو إنجلترا ، وحارب بشجاعة جنونية في فلودن فيلد ، بينها استدار الكثيرون من رجاله وفروا ليلوون على شيء ، ومات في تلك الكارثة (١٥١٣) .

وكان جيمس الخامس وقتذاك لا يبلغ من العمر إلا عاماً واحداً ، واستتبع هذا كفاح متشابك من أجل الوصاية على العرش . وفاز بالجائزة دافيد بيتون — وهو أحد رجال الكنيسة المعروفين بالمقدرة والشجاعة وتقدير الفساء ، ونصب كبيراً لأساقفة سانت أندروز ، ثم كاردينالاً ، ودرب الملك الصغير على الولاء الحار للكنيسة . وتزوج جيمس عام ١٥٣٨ من ماري أسير اللورين ، شقيقة فرانسيس ، الدوق دى جيز زعيم الحزب الكاثوليكي في فرنسا المنقسمة على أساس مذهبي ، وتطلع النبلاء الإسكوتلنديون ، ومناهضتهم لرجال الاكليروس تتزايد يوماً بعد يوم ، باهتمام إلى الانفصام القائم بين إنجلترا والبابوية ، وحسدوا اللوردات الإنجليز الذين انتزعوا أو تلقوا أملاك الكنيسة وأخذوا « أجورا » من هنرى الثامن لمعارضة تحالف ملكهم مع فرنسا . وعند ما شن جيمس الخامس الحرب على إنجلترا رفض النبلاء أن يؤيدوه . وهزم في سولوای موس (١٥٤٢) ففر يجرر أذنيال الخزي إلى

فولكلاند ، ومات هناك في ١٤ ديسمبر ، وأنجبت زوجته في الثامن من ديسمبر ماري ، التي أصبحت ملكة للإسكوتلنديين وعمرها ستة أيام .

وأبرز بيتون وصية من الملك الراحل عينه فيها وصياً على الملكة الرضيعة ، وتشكك النبلاء في صحة الوثيقة وسجنوا الكاردينال واختاروا جيمس ، إيرل اف أران وصياً على العرش ، بيد أن أران أطنق سراح بيتون وعينه كبيراً للوزراء . وعندما جدد بيتون الحلف مع فرنسا عقد هنري الثامن النية على شن حرب لا هوادة ، فيها ، وبعث لجيشه في الشمال أوامر بإحراق كل شيء في طريقه وتدميره ، و « أن يعمل النار والسيوف في كل رجل وامرأة وطفل دون استثناء أينما يجد مقاومة » وبخاصة « ألا يبقوا على حياة مخاوق » في بلدة سانت أندروز^(٨) مقر بيتون . وبذل الجيش جهده ، وأحال كل دير ومزرعة وقلعة ومحلة إلى خراب شامل^(٩) . و تعرضت إدنبره يومين للسلب والحرق ، ونهبت قرى الفلاحين في دائرة قطرها سبعة أميال ودكت ذكاً ، وسبق إلى إنجائترا (١٥٤٤) ١٠٠٠ رأس من الماشية ذوات القرون و ١٢٠٠٠ رأس من الأغنام و ١٣٠٠ جواد . وعرض سير جيمس كير كالداي ونورمان لزلّى وغيرهما من السادة الإسكوتلنديين أن يساعدوا الإنجليز على « حرق أما كن يملكها الحزب المتطرف في الكنيسة ، وأن يقبضوا ويسجنوا كبار خصوم الحلف الإنجليزي ، وأن يعتقلوا ويقتلوا الكاردينال نفسه^(١٠) » . ورحب هنري بالعرض ووعد بتقديم ألف جنيه لإنجليز لمواجهة النفقات . وفشلت الخطة إلى حين ، ولكنها نفذت في اليوم التاسع والعشرين من مايو سنة ١٥٤٦ ، واقتحم اثنان من آل كير كالداي واثنان من آل لزلّى وعصابة عديدة من النبلاء والقنلة قصر الكاردينال عنوة وقتلوه « في حالة تلهس » تقريباً لأنه ، « كما يقول نوكس » كان مشغولاً بحساباته مع السيدة أوجيلني في تلك الليلة^(١١) . وأردف نوكس قائلاً : « والآن بما أن الطقس حار فقد رثى أن من الأفضل لمنعه من أن يتعفن أن يعطوه جرعة كبيرة كافية من الملح ،

وقبلاء من الرصاص ... انتظاراً لما سوف يعده له إخوانه الأساقفة من طقوس الفن . ونحن إنما نسجل هذه الأمور بابتهاج (١٢) . وانسحب القتلة إلى قلعة سالت أندروز على الساحل وانتظروا وصول العون من إنجلترا بطريق البحر .

وعاد آران إلى الاضطلاع بعبء الحكم . ولكي يضمن مساعدة الفرنسيين وعد بأن يزوج الملكة الطفلة ماري ستيوارت لولى عهد فرنسا ، ولكي يحال بينها وبين الوقوع في أيدي الإنجليز ، أرسلت سرّاً إلى فرنسا (١٣ أغسطس سنة ١٥٤٨) . وقضى ارتقاء ماري تيودور العرش في إنجلترا على خطر قيام الإنجليز بغزوات أخرى إلى حين . وكانت الكاثوليكية وقتذاك تسيطر على جانبي الحدود . وغلب النفوذ الفرنسي على آران فحمله على أن يتنازل عن وصاية العرش (١٥٥٤) إلى ماري أميرة اللورين ، أم الملكة الغائبة . وكانت امرأة على حظ من الذكاء والجلد والشجاعة ، لم تدعن إلا لروح العصر الغلبة ووهبت ثقافة النهضة الفرنسية ، فقابلت العقائد الدينية المناظرة التي كانت تضطرم بالغضب حولها بابتسامة تنم على التسامح . وأمرت بإطلاق سراح العديد من البروتستانت المسجونين ، وصمحت للهراطقة بحرية كبيرة في الوعظ والعبادة ، إلى حد أن الكثير من البروتستانت الإنجليز الذين فروا من ماري تيودور وجدوا ملجأ ، وسمح لهم بتكوين جماعات دينية برئاسة ماري أميرة اللورين . كانت أعظم حاکمة رقية العاطفة متمدينة عرفتها اسكتلندة قروناً طوالاً .

٣ - جون نو كس : ١٥٠٥ - ٥٩

كانت الدعاية للإصلاح الديني قد مضى عليها مائة عام في إسكتلندة . وفي عام ١٤٣٣ اتهم بول كراور بإدخال عقيدتي ويكيليف وهس ، وقضت الكنيسة بإدانته وأحرقتة الدولة . وفي عام ١٤٩٤ استبدعى

ثلاثون « لولاردا من كيل » للمشول أمام أسقف جلاسجو بتهمة رفض الاعتقاد في المخلفات والصور الدينية والاعتراف السرى أمام قسيس ، ورسمات القساوسة وسلاطنتهم والتجسد ، والمطهر ، وشكوك الغفران والقداسات من أجل الموتى ورهبانية رجال الدين والسلطة البابوية (١٣) ، وبذلك نجد أنفسنا أمام تلمخيص يكاد يكون كاملاً لمبادئ الإصلاح الدينى قبل نشر رسائل لوثر بثلاثة وعشرين عاماً . ومن الواضح أن المتهمين تراجعوا عما قالوا به .

وسرعان ما دخلت رسائل لوثر إلى إسكوتلندة بعد عام ١٥٢٣ ، وانتشرت ترجمة للعهد الجديد باللغة الإسكوتلندية من إعداد ويكليفي في مخطوطة ، وارتفع نداء يطالب بمسيحية تعتمد على الكتاب المقدس وحده دون سواه .

وذهب باتريك هاميلتون إلى باريس ولوفان ، ودرس تعاليم إرازموس والفلسفة اليونانية ومضى إلى فنتنبرج وعاد إلى إسكوتلندة مشيعاً بالعقائد الجديدة ونادى بالتركيز بالإيمان ودعاه جيمس (عم دافيد) وبيتون ، ثم رئيس أساقفة سانت أندروز للحضور ، وإيضاح ما يعنيه بأقواله ، فجاء وتمسك بآرائه وأحرق (١٥٢٨) . وفي عام ١٥٣٤ أحرق اثنان آخران من « العلماء » كما كان المصلحون الدينيون الإسكوتلنديون الأوائل يسمون أنفسهم . وشنق أربعة رجال وأغرقت امرأة عام ١٥٤٤ ، وطبقاً لما يرويهِ نوكس الذى لا يعتمد على روايته دائماً ، ذهبت إلى حتفها وعلى صدرها طفل رضيع (١٤) .

وكانت عمليات القتل العمد هذه موزعة على عصور ومواضع مختلفة ، إلى حد جعلها لا تثير رد فعل عام قوى . بيد أن شتى جورج ويشارت مس شغاف قلوب الكثيرين ، وكان أول حادث له أثره فى الإصلاح الدينى الاسكوتلندى . وقد ترجم ريشارت حوالى عام ١٥٤٣ الاعتراف السويسرى البروتستانتي الأول ، ومن سوء الحظ أن هذا الإعلان البروتستانتي أمر السلطات

للعلمانية بمعاينة المراقبة (١٥) : أو أوضحت الاتجاهات البروتستانتية السويسرية منذ ذاك - وكانت في مبدأ الأمر زوينجالية تنقسم بالرحمة ثم أصبحت كالفينية صارمة - اللوثرية يوماً بعد يوم في الحركة الإسكوتلندية . وقدم وبشارت عظاته في مونترودندى ولازم بشجاعة مرضى وباء منتشر ، وفسر العقيدة الجديدة في إدنبرة في وقت كان فيه دافيد بيتون يعقد مجتمعا لإكليروسياً من رجال الدين الإسكوتلنديين هناك ، فأمر الكاردينال بالقبض عليه بتهمة الهرطقة ، وحكم عليه بالإدانة وقتل خنقاً وأحرق (١٥٤٦) .

وكان من بين من تحاوروا عن مذاهبهم على يديه ، شخصية من أقوى الشخصيات في التاريخ وأعظمها نفوذاً . وقد ولد جون نوكس بين عامي ١٥٠٥ و ١٥١٥ قرب هندنجتون . ونذره والداه الفلاحان ليكون قسيساً ، ودرس في جلاسجو ورسم قساً (حوالي عام ١٥٣٢) ، وأصبح معروفاً بتضلعه في القانون المدني والقانون الكنسي على السواء . ولا نتحدث سيرته الذاتية ، « تاريخ إصلاح الدين داخل مملكة إسكوتلندا » بشيء عن شبابه ولكنها تقدمه فجأة (١٥٤٦) بوصفه مريداً متحمساً لجورج وبشارت وحارساً شجاعاً له ، « يحمل سيفاً له مقبضان . ويأخذ نوكس يتجول من مخبأ إلى آخر هذه القبض على وبشارت ، ثم انضم في عيد الفصح عام ١٥٤٧ قلعة سانت أندروز إلى العصابة التي قتلت الكاردينال بيتون .

واستشعر الرجال المطاردون الحاجة إلى الدين فطلبوا من نوكس ان يكون واعظاً لهم . فاحتج بأنه لا يصاح ، ثم وافق وسرعان ما اتفقوا على أنهم يسمعون قط مثل هذا الوعظ المتهب من قبل . وأطاق على الكنيسة الرومانية اسم : « هيكल الشيطان » وجعلها مرادفة لروحش الخيف الذى ورد وصفه في سفر الرؤيا . وتبنى العقيدة اللوثرية التي تذهب إلى « أن الإنسان يظفر بالخلاص » ، بأن يؤمن فحسب بأن دم يسوع المسيح يكفر عن خطايانا جميعا (١٦) . وفي يوليو أبحر أسطول فرنسي وقذف القلعة بالقنابل . وقاوم

المحاصرون أربعة أسابيع ، وأخيراً غلبوا على أمرهم ، وظل نوكس والآخرون يعملون عبيداً في السفن تسعة عشر شهراً . ليس لدينا إلا تفاصيل قليلة عن معاملتهم باستثناء ما ذكر من أنهم كانوا يدفعون لسباع القداس (ويقول لنا نوكس) إنه رفض بشدة ، ولعل هذه الأيام المريرة ، وأثر سوط الملاحظ على الأجسام ساهم في اشتداد نزوع نوكس إلى الكراهية وجنوح لسانه وقلمه إلى العنف في العبارة .

وعندما أطلق سراح الأسرى (فبراير سنة ١٥٤٩) عمل نوكس قساً بروتستانتيًا في إنجلترا براتب تقاضاه من حكومة سومرست : وكان يقوم بعظاته يومياً طوال الأسبوع « إذا سمحت له بذلك الخيفة الخبيثة » . ونحن أبناء اليوم الذين لا ننعيم كثيراً بالعظاات ليس في مقدورنا إلا أن نتصور بصعوبة مدى إحساس الناس في القرن السادس عشر بالتعطش إليها . وقد ترك قساوسة الأبرشيات الوعظ للأساقفة الذين تركوه بدورهم للإخوان الرهبان وكانوا يقومون به بين آن وآخر . وأصبح الوعظ في البروتستانتية بمثابة صحيفة يومية للأخبار والرأى ، وكانوا يروون على المصلين أحداث الأسبوع أو أحداث اليوم ، وكان الدين وقتذاك متمزجاً بالحياة إلى الحد الذي جعل كل حدث تقريباً يمس العقيدة أو القائلين عليها ونددوا بنقائص رجال الأبرشية وأخطائهم ونهبوا الحكومة إلى واجباتها وأخطائها . وفي عام ١٥٥١ كان نوكس يعظ أمام إدوارد السادس ونورمبرلاند فتساءل كيف تأتي في الغالب الأعم لأتني الأمراء أن يتخذوا مستشاريهم من أفسق الناس . وحاول الدوق أن يسكته بمنحه منصب أسقفية ولكنه فشل .

وكانت ماري التيودورية أشد خطورة عليه ، ففر نوكس إلى ديب وجينيف (١٥٥٤) بعد شىء من التباطؤ الذي أملاه الحرص ، وزكاه كالفن لدى جماعة تتحدث بالإنجليزية في فرانكفورت ، ولكن مبادئه وملاحه كانت جد قاسية بالنسبة لمستمعيه ، فطلب منه أن يرحل . وعاد إلى جينيف (١٥٥٥) ، ونحن نستطيع

أن نحكم على قوة شخصية كالفن من التأثير الذى سيطر به وقتذاك على شخصية إيجابية وقوية تمثال شخصيته . ووصف نوكس ، مدينة جيليف فى عهد كالفن بأنها : « أكمل مدرسة للمسيح ظهرت على وجه الأرض منذ أيام الحوارين (١٧) » . واتفقت الكالفينية مع مزاجه لأن تلك العقيدة كانت واثقة من نفسها ، وعلى ثقة من أنها تتلقى الوحي من الرب ، وواثقة من أن الله قد فرض عليها أن تلزم الفرد بانتهاج سلوك محدد واعتناق عقيدة معينة ، وواثقة من حقها فى توجيه الدولة ، ولقد تغافل هذا كاهن فى أعماق روح نوكس ، ثم فى التاريخ الإسكوتلندى عن طريقه . وتوقع فى فزع حكم مارى ستيوارت الكاثوليكية لإسكوتلندة ، فسأل كالفن وبولينجر هل يحق لشعب أن يرفض إطاعة « حاكم يرغم الناس على عبادة الأوثان ويلغى الدين الصحيح » فلم يجبرا جواباً ، ولكن جون نوكس كان يعرف ما يدور فى خلده .

وفى خريف عام ١٥٥٥ ، وكان وقتذاك فى الخمسين من عمره على الأرجح أظهر الجانب الرقيق من شخصية جافة بالعودة إلى مارى تيودور ملكة إنجلترا والذهاب إلى برويك والزواج من مرجريت بويز لأنه أحب أمهاتهن وكان لمسز بويز خمسة أولاد وعشر بنات وزوج كاثوليكية ، وكان لوعظ نوكس الفضل فى اكتسابها لصف البروتستانتية ، وأسرت له بمناعبها المنزلية ووجد متعة فى أن يشير عليها بما يجب ، وعزاء فى صداقتها ، ومن الواضح أن العلاقة بينهما ظلت روحية إلى النهاية .

وعندما تزوج نوكس من مرجريت تركت مسز بويز زوجها وذهبت لتعيش مع ابنتها وكاهن الاعتراف الخاص بها . وماتت الزوجة بعد خمس سنوات من عقد الزواج . وتزوج نوكس للمرة الثانية ، ولكن مسز بويز بقيت معه . ومن النادر أن توجد فى التاريخ حمة محبة ومحبة بهذا القدر . وذهب الثلاثى الغريب إلى إسكوتلندة ، حيث كانت مارى أميرة اللورين

لا تزال ترى التسامح مفيداً في كسب تأييد الحزب البروتستانتي من النبلاء ،
وأثنى على الوصية على العرش باعتبارها « أميرة جديرة بالاحترام » . وهبت
حكمة وكياسة تفردت بهما (١٨) . « ونظم اجتماعات بروتستانتية للمصلين في
لندن وغيرها من الأماكن وكان له الفضل في أن يتحول على يديه إلى
المذهب البروتستانتي أشخاص من ذوى النفوذ ، مثل وليام ميتلاند ، سيد
ليشنجتون ، وجيمس ستيوارت الشقيق غير الشرعى لمارى ستيوارت الذى
قدر له أن يكون وصياً على العرش باسم ليرل اف مارى أو موراي . ولم
ترض محكمة كنسية عن هذا التطور ، فاستدعت نوكس ليقدم حساباً عن أعماله
وآثر أن يسلك سبيل التروى فتسلل من إسكوتلندة مع زوجته وأمها ، (يوليو
سنة ١٥٥٦) . ولم تستطع المحكمة الكنسية أن تحرق في غيابه سوى تمثال
له ، وأضنى عاينه هذا التعجيم لاستشهاده بدون ألم نبلا في عيون البروتستانت
الإسكوتلنديين ، ومنذ تلك اللحظة جعلوه زعيماً للإصلاح الدينى
الإسكوتلندى ، حينما حل .

واقعد طور وهو في جينيف ، باعتباره راعياً لأبرشية إنجليزية ، البرنامج
الكالفينى الكامل فيما يتصل بإشراف رجل الدين على أخلاق رعايا أبرشيته
وسلوكلهم ، ودعا في الوقت نفسه مسز آن لوك ، التى تحولت عن عقيدتها
على يديه في لندن ، إلى أن تترك زوجها وتأتى مع ابنتها لتعيش بالقرب منه
في جينيف ، وكتب لها رسائل لا تقاوم :

يا أعز أخت ، لو استطعت أن أعبر لك عما أكابده من اشتياق وضى
لحضورك فسوف أبدو وقد تجاوزت الحد . نعم إنى لأبكى وأبتهج عندما
أذكرك ، ولكن ذلك سوف يزول بما أجده من عزاء في حضورك ، الذى
أؤكد لك أنه جد عزيز لى إلى حد أنه لو لم يكن عبء هذه الجماعة
الصغيرة ، المجتمعة هنا باسم المسيح ، قد عاقنى ، لحضرت إليك قبل رسالتى . .
ولو لم يمنعك بعلك (زوجك) إلى حد ما . . . لوددت من أعماق قلبى ،

نعم ، وماكنت لأستطيع أن أتوقف عن أن أتمنى رضى الله بهدايتك إلى هذا المكان (١٩) .

وتركت مسز لوك لندن ضاربة عرض الحائط بمعارضة بعلمها ، ووصلت إلى جينيف (١٥٥٧) مع ابن ، وابنة وخادمة . وماتت الابنة بعد ذلك ببضعة أيام ، ولكن مسز لوك ظلت قرب نوكس وعاونت مسز بويز التي تقدمت بها السن ، ولم تعد وقتذاك مصدرراً للراحة كما كانت من قبل ، فى تلبية حاجات الواعظ . وايس لدينا دلائل على وجود علاقات جنسية ، ولا نسمع أى شكوى من مسز نوكس ، بل إننا لا نكاد نسمع عنها على الإطلاق . إن هادم البيوت القديم سوف يتخذ لنفسه أمماً ، وكانت له طريقة باسم المسيح . بل كانت له طريقته فى كل شىء تقريباً . وكان مثل كثير من العظماء ، صغير الجسم ، بيد أن كتمه العريضتين كانتا تنهان على القوة ، ومحياه الصارم يدل على اليقين والتطاع إلى السلطة . شعر أسود وجهة ضيقة وحاجبان كثيفان وعينان نفاذتان وأنف ينم على التطفل وخدان أسيلان وفم واسع وشففتان غليظتان ولحية طويلة ، وأصابع مستطيلة ، ونحن نجد فى هذا تجسيدا للإخلاص والرغبة فى السلطة ، وهو رجل يتميز بنشاط مبعثه التعصب . وكان يحب الوعظ مرتين أو ثلاثاً كل أسبوع لمدة ساعتين أو ثلاثاً فى كل مرة ، وكان علاوة على هذا يدبر الشئون العامة ويوجه حياة الأفراد ، فلا عجب « ألا أجد فى الأربع والعشرين ساعة أربع ساعات أخاؤها من العمل للراحة الطبيعية (٢٠) » . ويلطف من شجاعته ، حياء يعتوره إلى حين ، وكانت عنده بديهة تنبهه إلى الفرار من الموت وشيك الوقوع . واتهم بتحريض البروتستانت على القيام بثورة مخفوفة بالمخاطر فى إنجلترا أو إسكوتلندة فى الوقت الذى بقى فيه فى جينيف أو ديب ، ومع ذلك فإنه واجه عشرات الأخطار وندد بفساد نورمبرلاند فى وجهه وجاهر فيما بعد بالدمقراطية فى وجه ملكة . ولم يكن فى الإمكان شراؤه بالمال . وظن أو ادعى أن صوته هو صوت الله .

وصدق كثيرون ادعاءه وحيوه باعتباره رسولا من قبل الله ، ولذلك فإنه عندما خطب قال سفير إنجلترا : « لأنه ينفخ فينا من الحياة أكثر مما يفعل ١٠٠ بوق تضج في أذاننا (٢١) » .

وكانت العقيدة الكاثوليكية مصداقاً من مصادر قوته . لقد قسم الله كل الناس إلى الصفوة والملعونين ، وكان نوكس وأنصاره من الصفوة ، ومن ثم كتب لهم النصر من الله ، وكان خصمهم أشقياء ، وسوف تكون جهنم مثواهم عاجلاً أو آجلاً . وكتب يقول : « إننا مقتنعون بأن كل ما يفعله خصومنا عمل شيطاني (٢٢) » . وهؤلاء الخصوم الملعونون من الله لا يستحقون أى حب مسيحي لأنهم أبناء الشيطان لا الرب ، وهم لا يطوون آجوانهم على أى خير ، ويحسن استئصال شأنهم تماماً من الأرض . ونعم بلك والكرامية الكاملة التي يثيرها الروح القدس في قلوب صفوة الرب ضد أولئك الذين يزدرون تماثيله المقدسة (٢٣) » وفي الصراع مع الأشقياء كانت جميع الوسائل مباحة — الكذب والغدر (٢٤) وتناقضات السياسة (٢٥) المرنة . فالغاية تبرر الوسيلة .

ومع ذلك فإن فلسفة نوكس الأخلاقية في ظاهر أمرها كانت تتعارض تماماً مع فلسفة مكيا فيلي . فهو لم يسلم بأن يتحرر الساسة من القانون الأخلاقي المطلوب من المواطنين ، وطالب بأن يطيع الحكام والمحكومون على السواء تعاليم الكتاب المقدس . غير أن الكتاب المقدس كان يعنى بالنسبة إليه في الغالب العهد القديم ، وكان أنبياء يهود المتوعدون أصلح لغايته من الرجل الذي استشهد على الصليب . فقد كان في وسعه أن يستميل الأمة إلى إرادته أو يحرقها بنبوءات ملتهمة . وادعى أنه يملك قوة تنبئية ، وتنبأ حقاً بوفاة ماري تيودور المبكرة وسقوط ماري ستيوارت — أو لعل هذه الأمانى تحققت لحسن الحظ ؟ — وكان صائب الرأي لا يخطئ الحكم على أخلاق الرجال الآخرين

وأحياناً على أخلاقه . إذا اعترف^(٢٦) في سماحة « إننى بفطرتى جلف غليظ » .
وعزا فراره من إسكوتلندة إلى الضعف البشرى والخبث^(٢٧) .

وكان وراء زيجرته دعاية جافة ، وكان فى وسعه أن يكون رقيقاً بقدر
ما كان عنيفاً . وأكب بإخلاص كامل على عمله وهو لإنشاء سلطة يتمتع بها
نظام كهنوتى مطهر وعالم يشرف على الجنس البشرى ويبدأ بالإسكوتلنديين .
وكان من رأيه أن النظام الكهنوتى الفاضل إنما يستلهم الله ، وعلى هذا فإنه
فى مجتمع حساس على هذا النحو سيكون الله والمسيح هما الملك . وكان يؤمن
بالحكم بأمر الله ولكنه عمل للديمقراطية أكثر مما فعل أى رجل آخر فى عصره .

ولم تكن رسائله مجرد تمارين أدبية بل كانت وكأنها هزيم رعد سياسى
وكانت تضارع رسائل لوثر فى قوة الهجاء . وكانت الكنيسة الرومانية عنده ،
كما هو الحال عند لوثر ، « بغيا . . . دنستها تماماً كل ضروب الفجور
الروحى^(٢٨) » . وكان الكاثوليكية « بابويين أضرم من الوباء » و « تجار قداس^١ »
وكان قساوسهم « ذئاباً مفترسة » . ولم يكن هناك رجل يزه فصاحة فى ذلك
العصر الفصيح . وعندما تزوجت ماري تيودور من فيليب الثانى انفجرت نوكتس
غاضباً فى رسالة بعنوان : « تحذير مخلص إلى معلمى حقيقة الرب فى
إنجلترا » (١٥٥٤) .

ألم تثبت ماري أنها خائنة صراح لتاج إنجلترا الإمبراطورى باستقدامها
أجنبياً ، وتنصيب ملك إسباني متعجرف ليلحق الخزي والعار والدمار
بالنبلاء وذويهم ، وليسلبهم ألقاب شرفهم وأراضيهم ومقتنياتهم ومناصبهم
الكبيرة ومراتبهم الرفيعة ، حتى يلحق البوار التام بخزائن المملكة وأسباب
تجارتها وبحريتها وحصونها ، وحتى يحط من شأن ملك الأراضى ، ويجعل
عامة الناس يرسفون فيها فى قيود العبودية ، ويطيح بالمسيحية وديانة الرب
الصحيحة ، وحتى يقبوض آخر الأمر دعائم الأملاك العامة ورفاهية
إنجلترا بأسرها إن الله برحمته السابعة ، يبعث بنحاس أو لبنا

أوبهوه ، عسى أن يهدئ دم عبدة الأوثان المقيت غضب الرب ولا يهلك
الجميع بأسره (٣١) !

ولكنه كتب بين آن وآخر ، وإن كان هذا نادرا ، فقرات تفيض رقة
وجمالا ، وجديرة بهانت بول الذى ألهمهم ، مثل « رسالة إلى إخوانه في
إسكوتلندة » لن ألقا إلى أى تهديد ، لأنى كبير الأمل فى أنكم سوف
تمشون مثل أبناء الضوء ، وسط هذا الجليل الخبيث ، وأنكم سوف
تكونون مثل النجوم فى الليل ، التى لا تتغير مع ذلك فى الظلام ، ومثل
قحة وسط صدفة ، ومن عداد الرجال المتهلين العقلاء ، وتملأون
مصاييحكم بالزيت من جديد كل يوم ، كأولئك الذين ينتظرون فى صبر
الظهور المجيد ليسوع الرب ومجيئه ، وهو الذى تحكم روحه القديرة
وتعلمكم وتنبير قلوبكم وعقولكم فى كل ما يوجه إليكم من هجوم الآن
والى الأبد (٣٣) .

وهناك رسالة متميزة أكثر من غيرها هى أول « نفخة فى لابلوق ضد
كثيية النساء المروعة » التى ديجت فى ديب عام ١٥٥٨ ضد ما خيل لنوكس
أنه وباء الحاكات من النساء فى أوروبا — مارى تيودور ومارى أميرة اللورييه
ومارى ستيوارت وكأثرين دى مديتشى . وفى وصعنا أن نذكر مدى هلع
منه لطبق مارى تيودور لمبادئه ، ولكن حتى إذا لم تضطهد مارى أعداءها
فلأن نوكس بعدها وحشا ووصمة سياسة تلتك القاعدة الطبيعية التى تقول
إن الرجال يجب أن يحكموا للدول . وبدأ يقول « لا عجب أن نجد بين
كثير من العقول الخصبية التى أنجبتها جزيرة بريطانيا العظمى كثيرا من
الوعاظ الوريين والمتحمسين بقدر ما إطعمت أحيانا ، ولا يوجد بين
الكثيرين من علماء اللاهوت والرجال ذوى الرأى الرصين الذين نفهم
ليزابيل (مارى تيودور) ، رجل مقدام شجاع ومخلص للرب . . .
يجروا على تنبيه سكان تلك الجزيرة إلى مدى ما وصلت إليه من بغض

أمام الله ، إمبراطورية أو ملك امرأة ، بل خاتنة وابنة صفاح ، وماذا في وسع شعب أو أمة تركت مجردة من رأس شرعى أن تفعل بسلطة الرب في انتخاب وتعيين حكام وقضاة للعموم . . . إلنا لسمع عن سفك دم إخواننا أتباع يسوع المسيح بأشد قسوة والإمبراطورية المتوحشة لامرأة قاسية ، نعلم أنها ، حدها سبب كل هذا الشقاء : . . . إن الارتقاء بامرأة لكى تنهض بحكم أو سيادة أو سلطان أو إمبراطورية تفوق أى مملكة أو أمة أو مدينة أمر يخالف الطبيعة ويعد إهانة للرب ، ومناقضاً لإرادته التى جلاها وشريعته المسلم بها ، وأخيراً فإنه تقويض لدعائم نظام وطيد ، ولكل إنصاف وعدل ، من ذا الذى يستطيع أن ينكر أن تعيين الأعمى لقيادة المبصرين وتوجيههم إنما يتناقض مع الطبيعة ؟ ومن ذا الذى يقول إن الضعفاء والمرضى والعاجزين يطعمون الأقوياء جميعاً ؟ وأخيراً من يقول إن الحمقى والمجانين والخبوليين يحكمون العقلاء ويقدمون المشورة لأصحاب العقول الرصينة ؟ وهكذا كل النساء إذا قورن بالرجال في احتمال السلطة ... فالمرأة في أكمل صورة خلقت لتخدم الرجل وتطيعه لا لتحكمه وتأمره (٢٢) .

واستشهد نوكس بوثيقة لا جدال فيها من للكتاب المقدس لكى يثبت هذا ، ولكنه عندما تغلغل في أعماق التاريخ ، وبحث عن أمثلة لدول هدمتها نساء حكمتها ، اختلط عليه الأمر تماماً ، لأنه وجد أن التاريخ سجل أنهن أفضل بكثير من الملوك . ومع ذلك فإنه ختم رسالته بلمعة الواثق من حكمه :

إن إيزابل اللعينة ملكة إنجلترا هى وجيل البابويين المقيت المؤذى كالوباء لا يألون جهداً في الزهو والتفاخر بأنهم لم ينتصروا على ويات فحسب ، بل انتصروا أيضاً على كل من دبر شيئاً ضدهم . . . وأنا لا أخشى أن أقول إن يوم الانتقام ، الذى سوف يقبض فيه على ذلك المسخ

الفضيل جيزيل ملكة إنجلترا *** قد تحدد في مجلس الحى الباقى *** وليعلم
هذا الناس جميعاً لأن البوق قد نفخ فيه (٣٤) .

وأخذ نوكس مخطوطة كتابه « نفخة » إلى جينيف وطبعها سرا ولم
يضع عليه اسمه ، وأرسل نسخاً منه إلى إنجلترا ، فحرمت مارى تداول الكتاب
باعتباره تحريضاً على الثورة ، وجعلت حيازته جريمة يعاقب عليها بالإعدام .
وعاود نوكس الهجوم فى رسالة بعنوان : « نداء إلى إسكوتلندة
وطبقات سكانها (يوليو سنة ١٥٥٨) » .

لا أحد ممن يحرضون الناس على عبادة الأوثان (*) ينبغي أن يعنى من
عقوبة الإعدام . . . ويجب تطبيق الحكم نفسه فى مكان يؤمن بيسوع المسيح
وإنجيله . . . اللذين اعترف بهما الحكام والناس فى خشوع ، ووعدوا
بالدفاع عنهما ، كما حدث فى عهد الملك إدوارد فى الأيام الأخيرة
بانجلترا . وفى مثل هذا المكان أقول إن عقوبة الإعدام ليست مشروعة على
منى يعمل على تقويض دعائم الدين فحسب ، بل إن الحكام والناس
ملتزمون بأن ينتهجوا هذا السبيل ، إلا إذا أرادوا أن يثيروا غضب الله عليهم . . .
وأنا لا أخشى أن أؤكد أن واجب النبلاء والقضاة والحكام والشعب فى إنجلترا
كان لا يقتضى منهم أن يقاوموا مارى ، تلك الإيزابل ، ويعارضوها
فحسب . . . بل عليهم أن يقتصروا منها بإعدامها (٣٥) .

وحدث نوكس شعب إسكوتلندة على تطبيق هذا الرأى الخاص بالثورة
الشرعية على مارى أميرة اللورين ، وشكا من أن الوصية على للعرش
قد أحاطت نفسها بحاشية فرنسية وجنود فراسيين ليأكلوا مدخرات
الإسكوتلنديين : بينما يؤتى بالأغراب لسحقنا نحن وخيرنا العام وفريقنا ،

(*) كتب نوكس عام ١٥٦٠ : « إننا نقصد بعبادة الأوثان القداس والتوسل
بالتدبيرين وعبادة الصور واستيفاءها والاحتفاظ بها وكل عبادة للرب لا يحويها كتابه
المقدس (٣٥) » .

وبينا يحافظ على عبادة الأوثان ويستخف بالدين الصحيح ليسوع المسيح ،
وبينا ذوو الكروش وللطهارة الدمويون الأساقفة يبقون ، ويضطهد رسل
المسيح الصادقون ، وأخيراً بينما تحتقر الفضيلة وتمجد الرذيلة . فأى
رجل ورع يمكن أن يساء إليه لأننا سوف ننشد تقويم هذه الأعمال
للفاضحة (نعم ، حتى لو اقتضى الأمر الالتجاء إلى قوة السلاح ، إذا
رأينا أنه لن يتيسر لنا بخلاف ذلك) ؟ . . . إن العقوبة على ارتكاب
جرائم مثل عبادة الأوثان والكفر وغيرهما ، التي تمس الله سبحانه وتعالى ،
لا يختص بها الملوك وكبار الحكام فحسب ، بل تخص بها أيضاً الهيئة
الكاملة لذلك الشعب ، وتخص كل عضو في الهيئة ، طبقاً لما يتيحه الله
من إمكان وفرصة للانتقام من الضرر الذى لحق بمجده (٣٧) :

وهنا نجد مزيجاً غريباً من الثورة والرجعية في بيانات نوكس . وكان
لا بد أن يتفق معه في تبرير قتل الطغاة من آن لآخر كثير من المفكرين ومنهم
هوجينوت فرنسيون مثل هوثمان ويسوعيون مثل ماريانا . ومع ذلك فإن
اقتناعه ، بأن هؤلاء الذين كانوا واثقين من لاهوتهم يجب أن يسحقوا
- وإذا اقتضى الأمر يقتلوا - خصوصهم ، رجع فيه إلى أكثر ممارسات
محكمة التفتيش شؤماً . واعتبر نوكس أن الأصحاح الثالث عشر من سفر
التثنية لا يزال سارى المفعول وفسره حرفياً ، فكل هرطيق يجب أن يعدم ،
والمدن التي تغلب عليها الهرطقة يجب أن يقتصر منها بالسيف وتدمر تماماً ،
ويقتضى على ما فيها من ماشية ، وكل بيت فيها يجب أن يحرق حتى يهلك
ويعترف نوكس أن هذه الأوامر الحالية من الرحمة أفرغته في بعض الأحيان :
قد يبدو هذا الحكم حتى للرجل المادى صارماً وقاسياً ، أجل ، وقد يبدو وكأنه
صدر عن غضب لا عن تعقل وأى مدينة . . . لا يوجد فيها أبرياء
مثل الرضع والأطفال وبعض السذج والجهال لا يقتربون الكفر أو يستسلمون
له ؟ ومع ذلك فإننا لا نجد استثناء بل إن الجميع مكتوب عليهم الموت
القاسى . بيد أنه في مثل هذه الأحوال أرادت مشيئة الله أن تنحني جميع
المخلوقات وتمطى وجوهها ، وتكف عن التفكير المنطقي ، إذا كان هناك أمر
منه تعالى بتنفيذ إرادته (٣٨) .

وعليها ألا نحاكم نوكس بمقاييسنا الراهنة عن التسامح ، فقد أعرب بإصرار شديد عن الروح العامة لعصره تقريباً .

وكانت السنوات التي قضاها في جينيف ، حيث كان سرفينوس قد أحرق لتوه ، قد أكدت نزعته نحو الالتزام بالحرفية الصارمة واليقين الذي يصل إلى درجة اللغور . ولو أنه قرأ ما احتج به كاستليو لتبرير التسامح لطابت نفسه على الأرجح برد بيز عليه : ومع ذلك فإن رجلاً مغموراً ممن ينكرون وجوب التعميد كتب في تلك السنوات نفسها نقداً للكالفينية بعنوان : « مهمل بالضرورة » وأرسله البروتستانت الإسكوتلنديون إلى نوكس ليرد عليه رداً مضحماً ، وكأنما كان صوت العقل يهمس لحظة وسط حرب العقائد . وتساءل المؤلف كيف جاز للكالفينيين بعد أن عرفوا مفهوم المسيح عن أجسب ، أن يؤمنوا بأن الله قد خلق بشراً كتب عليهم ، وشاء لهم اللعنة الأبدية : وقال المنكر لوجوب التعميد أن الله قد وهب الناس ميلاً طبيعياً لأن يجروا ذريتهم ، فإذا كان الله قد خلق الإنسان على صورته ، فكيف يكون الله أقسى من الإنسان ؟ واستطرد المؤلف قائلاً إن الكالفينيين قد أتوا من الشر أكثر مما أتى به الملحدون « لأن الذين يؤمنون بأن الله ليس جائراً وقاسياً وظالماً أقل قذفاً في حق الله ممن يقولون بأنه كذلك » ورد نوكس « أن هناك أسراراً تخفى على العقل البشري ، ولسوف تحطم كبرياء أولئك الذين لا يقنعون بإرادة الله التي تتجلى ، ويسرهم أن يصعدوا ويخلقوا فوق السماوات ليتساءلوا عن إرادة الله الخفية » . وكتب يقول في موضع آخر « والطبيعة والعقل إنما يضلان الناس عن الله الحق : وأى وقاحة أن يفضل المرء الطبيعة الفاسدة والعقل الأعمى على كتب الله المقدسة (٣٩) ؟ » .

ولم يقتنع نوكس بقوة الاستدلال واعتقد في قرارة نفسه أنه مخلص لروح المسيح ، فأرسل عام ١٥٥٩ ، عند ما كانت تحكم إنجلترا ملكة بروتستانتية ، إلى شعبها رسالة بعنوان : « عظة موجزة » ينصحه فيها بأن يكفر عما قامت

به مارى من اضطهاد يجعل العقيدة الكالفينية ونظامها الأخلاقى لإجباريين فى سائر البلاد ؛ ورفضت إنجلترا العمل بالنصيحة . وعاد نوكس فى ذلك العام إلى إسكوتلندة ليشرف على إيديولوجية ثورتها .

٤ — جماعة أتباع يسوع المسيح : ١٥٥٧ — ٦٠

لقد امتزجت دعواته الإسكوتلنديين إلى الإطاحة بنير الخضوع لروما بتعاليم المصلحين الدينيين الآخرين وتدفق البروتستانت من إنجلترا وتسلل الأنجيل والنشرات من إنجلترا والقارة الأوروبية ، وتعطش النبلاء الإسكوتلنديين للأرض ولإبعادهم الموغر للصدور على يد الفرنسيين الذين يضعون المساحيق على وجوههم من رجال الحاشية ، فعملت على رفع درجة حرارة الثورة إلى نقطة الانفجار . واحتمل سكان إدنبره ، الكاثوليك المتمسكون بعقيدتهم عام ١٥٤٣ بطريق مباشر وبإستياء شديد تدفق الغاليين المتغطرسين أثناء وصاية مارى أميرة اللورين على العرش . وحدث كل شىء يحيل حياة الدخلاء بؤساً وشقاء . واشتد الإحساس بالذات فى كلا الجانبين ، ولما كان رجال الاكليروس قد أيدوا الفرنسيين فلن روح القومية رددت نغمات عالية مفاهيمة للكاثوليكية وسارت مواكب دينية — حملت فيها تماثيل للعذراء والقديسين عبدت فيما يبدو ، وعرضت مخلفات وقبلى باحترام — فأثارت المزيد من السخرية والشك .

وفى سبتمبر عام ١٥٥٧ استولت جماعة من المتشككين المتحمسين على تمثال لسانت جيلس فى « الكنيسة الأم » التى تحمل هذا الاسم فى إدنبرة وغمروها فى بركة ، وأحرقوها فيما بعد حتى تحولت إلى رماد . ويروى نوكس أن هجمات مماثلة استهدفت تحطيم الأصنام حدثت فى كل أرجاء البلاد ؛

وفى الثالث من ديسمبر عام ١٥٥٧ اجتمعت فى إدنبرة (التى كانت قد أصبحت عاصمة للبلاد هام ١٥٤٢ « عصبة مشتركة » من النبلاء المناهضين

لرجال الدين أرجيل وجلنكرون ومورتون ولورن وإرسكين - ووقعوا
« أول ميثاق إسكوتلندي » وأطلقوا على أنفسهم اسم : « لوردات جماعة
المصلين ليسوع المسيح » لتعارض « جماعة المصلين للشيطان » - أى الكنيسة ،
وتعهدوا بالمحافظة على « كلمة الله المباركة أكثر من أى شيء » ، ودعوا إلى
« إصلاح فى الدين والحكومة » ، وطلبوا من الوصية على العرش الحرية ،
التي تبيح لنا أن نمارس أمور الدين والضمير كما ينبغي استجابة لأمر الله :
وصمموا على إنشاء كنائس تأخذ بأسباب الإصلاح الدينى فى سائر إسكوتلندة ،
وأعلنوا أن كتاب الصلاة العامة الذى كتب للإنجليترا فى عهد إدوارد السادس
يجب أن تعمل به كل جماعات المصلين ، واحتج الأساقفة البروتستانت على
هذا الانشقاق الجرىء وحشوا رئيس الأساقفة هاميلتون على قعره . فأمر فى
شئ من التبرم (٢٨ أبريل سنة ١٥٥٨) - بإحراق والتر ميلن - وهو
قسيس عجوز كان قد تجرد من ملابس الكهنوت وتزوج واعتاد أن يهشر
بعقيدة الآخذين بالإصلاح الدينى بين الفقراء ، وكان الناس يكونون احتراماً
عظيماً للرجل العجوز فأعربوا عن فزعهم لهذا الإحراق الأخير لبروتستانتى
إسكوتلندي بتهمة الهرطقة ، وقاموا ببناء هرمى الشكل من الأحجار فوق
الموضع الذى مات فيه : وعندما استدعى واعظ آخر للمحاكمة امتشق المدافعون
عنه السلاح ، واقتحموا طريقهم إلى حضرة الوصية ، وأندروها أنهم لن
يسمحوا بمزيد من الاضطهاد من أجل العقيدة الدهلية ، وأنذر لوردات جماعة
المصلين الوصية (نوفمبر سنة ١٥٥٨) أنها ما لم تمنح الناس حرية العبادة فإنهم
لن يكونوا مسئولين « إذا حدث أن قومت المظالم بالعنف » (٤٠) ، وأرسلوا فى
ذلك الشهر رسالة إلى نوكس بأنهم سوف يحمونه إذا عاد .

وتمهل فى العودة ولكنه وصل إلى إدنبره فى اليوم الثانى من مايو سنة
١٥٥٩ . وقدم يوم ٣ مايو فى برث العظة التى أطلقت الثورة من عقاها ،
ويقول لنا إنها كانت عظة « عنيفة ضد عبادة الأوثان » وقد فسرنا « ما فى

القداس من عبادة للأوثان وما فيه من أمور بغیضة ، وه الوصية التي أمر بها الله بتدمير الأنصاب لهذا السبب (٤١) ، « وخرج الجمع الأثيم » كما يصفه عن الطاعة ، وعندما حاول قس في كنيسة مجاورة أن يقيم قداساً صاح أحد الشبان : « إن هذا لا يطاق لأنه في الوقت الذي لعن فيه الرب عبادة الأوثان صراحة في كتابه ، فإننا نقف لنراها تعبد على الرغم من ذلك » وجاء في رواية لنوكس أن القسيس وجه للصبي ضربة شديدة ، فتناول في غمرة غضبه حجراً وقذف به للقسيس وأصاب قدمي الأقداس ، وحطم أحد التماثيل ، وما لبث أن قذف الجمع كله المحتشد حوله الأحجار وأعملوا أيديهم في قدس الأقداس المزعوم وفي سائر آثار عبادة الأوثان (٤٢) . وتدفق الجمهور إلى ثلاثة أديار ونهبوها وحطموا التماثيل ، ولكنهم ممحوا للإخوة الرهبان أن يأخذوا معهم ما تستطيع أكتافهم أن تتحمله : وما هي إلا يومان أو ثلاثة حتى كانت هذه المواضع الثلاثة الكبيرة . . . قد دمرت ولم يبق منها قائماً سوى الجدران (٤٣) » .

وكانت الوصية على العرش بين نارين ، ونصحها أخوها كاردينال اللورين أن تسير على نهج ماري تيودور ، وأن تقضى على كبار البروتستانت ، وكان الثوار المنتصرون في برث وحولها في غضون ذلك يهددون بقتل أي قسيس يجرؤ على إقامة القداس (٤٤) . وفي ٢٢ مايو أرسل لها لوردات جماعة المصلين ، وكان يظاهروهم وقتذاك أتباعهم المسلحون ، إنذاراً نهائياً مشفوماً :

« إلى عظمة الوصية على المملوكة ، بعد تقديم كل فروض الاحترام والخضوع ، بما أننا حتى الآن قد خدمنا السلطة في إسكوتلندا ، هي وعظمتكم ، بالخطورة بأرواحنا وبقلوب راضية . . . فإننا الآن والأسى يملأ جوانحننا مكرهون ، تحت طأة استبداد ظالم يدبر لنا ، أن نعان لعظمتكم أنه ما لم تنوقف هذه القسوة بفضل حكمتكم ، فإننا سوف نكون مضطرين إلى امتشاق الحسام للدفاع العادل في وجه كل من يطاردوننا في سبيل الدين . . . إن بئرمة القتل القاسية الظالمة التي بلغت أقصى درجات الاستبداد والموجهة إلى المدن

والجماهير ، كانت ولا تزال السبب الوحيد نقردنا على خضوعنا التقليدى ،
الذى نعد بإخلاص أمام الله أن نقدمه لمولاتنا (مارى ملكة الإسكوتلنديين)
ولزوجها ولعظمتكم ، بشرط أن تنعم ضمائرنا بالطمأنينة والحرية اللتين
اشترأهما لنا بدمه يسوع المسيح . . . رهايا عظمتكم الخاضعون لكم فى جميع
الأمور التى لا تغضب الرب - جماعة المصلين المخلصين ليسوع المسيح فى
اسكتلندة (٤٥) » ٢

وفى الوقت نفسه بعثت جماعة المصلين نداء إلى النبلاء بتأييد الثورة
وخطاباً مفتوحاً حذروا فيه « جيل المناهضين للمسيح والأساقفة المؤذنين
كالوباء ورهبانهم . . : إذا مضيتم فى قسوتكم الحاقدة فإنكم سوف تعاملون ،
أينما يقبض عليكم كقتلة وأعداء للرب صراحة . وإن يبرم معكم عقد صالح قط
إلا إذا انقطعت عن عبادتكم الصريحة للأوثان واضطهادكم القاسى للأبناء
للرب (٤٦) » .

ودخلت الوصية مارى مدينة برث بقدر ما استطاعت أن تحشد من كتاب
الهند ، ولكن أنصار جماعة المصلين تجمعوا صفاً مسلحاً ، وأدركت مارى
أنها لن تستطيع أن تتغلب عليهم ، ف وقعت معهم هدنة (٢٩ مايو سنة ١٥٥٩) ،
وانسحب نوكس إلى سانت أندروز ، ولم يعبأ بناوهى كبير الأساقفة ، فوعظ
فى كنيسة الأبرشية ضد عبادة الأوثان (١١ - ١٤ يونيه) . وتأثر مستمعوه
بحرارة عباراته فأزالوا كل أثر ينم عن عبادة الأوثان « عن كنائس المدينة
وأحرقوا هذه التماثيل أمام عيني رجال الدين الكاثوليك (٤٧) . وهرب كبير
الأساقفة إلى برث ، ولكن قوات جماعة المصلين ادعت أن مارى قد خرقت
نصوص الهدنة باستخدام الأموال الفرنسية فى دفع رواتب جنودها
الإسكوتلنديين ، وهاجمت القلعة ، واستولت عليها (٢٥ يونيه) . وفى الثامن
والعشرين نهبت دير سكوت وأحرقته .

وإذا جاز لنا أن نصدق أحياناً ما يقوله نوكس المعروف برحابة خياله
فإن « ربة بيت فقيرة طاعنة فى السن قالت وهى ترى ألسنة اللهب المتصاعدة :

« الآن أرى وأدرك أن أحكام الرب عادلة . فإن هذا المكان بقدر ما تسعفى
الذاكرة لم يكن إلا وكرراً للقوادين . إنه لأمر لا يصدق ... كم من
زوجة زنى بها ، وكم من عذراء افنض بكارتها الوحوش الدنسة ،
التي كانت تحتضن هنا الوكرى ، وبخاصة ذلك الرجل الخبيث . .
الأسقف (١٨) » .

وكانت ماري أميرة اللورين وقتذاك مصابة بمرض خطير ، تنزع
وفاتها في أية لحظة ، فهربت إلى ليث وحاولت أن تؤخر تقدم البروتستانت
المنتصرين بالمفاوضات إلى أن يصل إليها العون من فرنسا . ولكن جماعة
المصلين تفوقت عليها في المباراة ، وذلك بالفوز بتأييد إليزابيث ملكة إنجلترا .
وكتب نوكس إلى الملكة خطاباً يؤكد لها فيه أنه لم يتعرض لها في رسالته
« نفخة البوق » ضد الملكات . ونصح وليام سيسل الوزير الأول ملكته
إليزابيث بأن تساعد الثورة الإسكوتلندية كإجراء يحقق اعتماد إسكوتلندة على
إنجلترا سياسياً . وأدركت أن هذا إجراء وقائي مشروع ضد ماري
ستيوارت ، التي كانت قد طالبت ، عندما أصبحت ملكة فرنسا (١٥٥٩)
بعرش إنجلترا أيضاً ، على أساس أن إليزابيث ابنة سفاح مغتصبة للعرش .
وسرعان ما أغلق أسطول إنجلترا في مضيق فورث الطريق أمام نزول أي
مساعدة فرنسية للوصية على العرش إلى البر ، وانضم جيش إنجلترا
إلى قوات جماعة المصلين في مهاجمة ليث . وانسحبت ماري أميرة اللورين
إلى قلعة إدنبره ، وماتت (١٠ يونيو سنة ١٥٦٠) بعد أن قبلت حاشيتها
واحداً واحداً . لقد كانت امرأة طيبة قدر عليها أن تقوم بالدور الخطأ
في مأساة لا فكاك منها .

واستسلم آخر المدافعين عنها ، بعد أن سدت في وجوههم السبل
زراً ، كوا على الموت جوعاً . وفي السادس من يوليو سنة ١٥٦٠ وقع
ممثلو جماعة المصلين وماري ستيوارت وفرنسا وإنجلترا معاهدة إدنبره التي

قدر لموادها أن تكون من صميم أسباب الصراع الأخير بين ماري وإليزابث . . .
وكان على كل الجنود الأجانب ما عدا ١٢٠ فرنسياً مغادرة إسكوتلندة ، وكفت
ماري استيوارت وفرانسيس الثاني عن مطالبتهما بالتاج الإنجيزي ، واعترف
بماري ملكة على إسكوتلندة ، ولكن حظار عليها أن تشن حرباً أو تعقد صلحاً
بدون موافقة أمراء الإقطاع ، وكان على هؤلاء أن يختاروا خمسة رجال
أو اثني عشر رجلاً للتعين في مجلسها الخاص ، ولا يجوز أن يشغل أجنبي
أو رجل من رجال الإكليروس منصباً رفيعاً ، ولا بد من إعلان عفو عام ،
مع استثناءات يعينها أمراء الإقطاع . كانت معاهدة صلح مهينة للملكة الغائبة ،
وانتصاراً مبيئاً للجماعة المصلين لم تكد تسفك فيه دماء . .

وقبل المجلس الثبائي ، الذي اجتمع في أول أغسطس سنة ١٥٦٠
اعترافاً بالعقيدة أعده نوكس ومعاونوه وخفف من غلواء بعض نصوصه
ميتلاند لينشجتون ولم يصوت ضده إلا ثمانية أعضاء . ولما كان لا يزال
العقيدة الرسمية لكنيسة إسكوتلندة المشيخية نرى لازماً علينا أن نسجل
بعض موادها الأساسية تذكيراً بها :

- ١ - نعتز ونقر بوجود إله واحد أحد . . . في ثالث :
- ٢ - نعتز ونقر أن إلهنا هذا قد خلق بشراً نذكر أنه أبونا
الأول آدم - خلق منه الله امرأة على صورته . . . حتى لا نلاحظ أي
نقص في طبيعة الإنسان الكاملة ، ومن هذا الشرف والكمال سقط
الرجل والمرأة معاً .

فالمرأة خدعتها الحية والرجل أصغى لصوت المرأة ،

- ٣ - وبهذه الزلة ، التي يطلق عليها عادة اسم الخطيئة الأولى دنست
صورة الرب تماماً في الإنسان ، وأصبح هو وذريته من الطبيعة أعداء
للرب ، عبيداً للشيطان وخدماءاً للخطيئة ، وما دام ذلك الموت كانت له ،
وسوف تكون له دائماً ، قوة وسلطان ، على كل من لم يولد أو ولد

أو سوف يولد من أعلى ، وهذا الميلاد من جديد يتم على يد الروح القدس ، وهو يعمل في أفئدة أصفياء الرب فتمتلئ إيماناً لا يتزعزع بوعده الرب . وبهذا الإيمان يدركون يسوع المسيح .

٨ — وذلك الرب والأب البتة نفسه . . . برحمته وحدها اختارنا في يسوع المسيح ... قبل خلق العالم

١٦ — إننا نؤمن بإخلاص شديد ، بأنه كانت منذ البداية ، ولا تزال ، وسوف تكون إلى نهاية العالم ، كنيسة أى صحة وجماعة من الناس اختارهم الله ، لكي يعبدوه بحق ، ويحتضنوه بالإيمان الصحيح بيسوع المسيح ... وخارج هذه الكنيسة لا توجد حياة ولا نعيم أبدى ، ومن ثم فإننا نمت بشفة كفر من يؤكدون أن الناس يعيشون ، وهم يراعون الإنصاف والعدل سوف يظفرون بالخلاص أيا كان الدين الذى يعتقدونه .

٢١ — نحن لا نقر إلا اثنتين من المقدسات : التعميد والعشاء الربانى . . . لأننا نمصور تحول الخبز إلى جسد الرب الطبيعى . . . ولكننا نؤمن بأن صنيع الروح القدس إنما يعنى أن المؤمنين بالاستخدام الصحيح لمائدة الرب يأكلون جسد السيد يسوع ويشربون دمه .

٢٤ — نعتز ونقر بأن الإمبراطوريات والممالك والمستعمرات والمدن أقيمت بفضل الله ... فى الغالب وبصفة رئيسية للملوك والأمراء والحكام ، وذلك من أجل الحفاظ على كل ما يتصل بالدين وتطهيره ، ولهذا فإنهم لا يعينون من أجل السياسة المدنية وحدها ، ولكن من أجل المحافظة على الدين الصحيح ومنع عبادة الأوثان والخرافة أيا كانت أيضاً (١٩) .

وترتب على هذا الاعتراف أن المجلس النيابى الإسكوتلندى الآخذ بأسباب الإصلاح الدينى رفض التسليم بالسلطة القضائية للبابا ، وجعل القعيدة والشعيرة اللتين تبناهما الإصلاح الدينى إجباريين ، ومنع إقامة القداس وإلا تعرض من يطيعه للعقوبة البدنية ومصادرة أمواله عند ارتكاب أول جريمة ، والنقى

عند ارتكابه لها للمرة الثانية ، والإعدام إذا ارتكبها مرة ثالثة ، ولكن لما كان للتبلاء الذين يتحكمون في المجلس النيابي يريدون الأرض أكثر مما يريدون سفك الدماء ، وبما أنهم لم يتبعوا اللاهوت الكالفيني حرفياً فإن مطاردة هؤلاء الإسكوتلنديين الذين ظلوا كشالكه ، بقي معتدلاً نسبياً ، ولم يصل قط إلى توقيع عقوبة بدلية . وبعد أن سمح للتبلاء برفض الاعتراف بالمطهر باعتباره أسطورة ، ادعوا أنهم غبنوا في جانب من ذمتهم المالية بالهبات التي قدمها أجدادهم من الأرض أو المال لدفع أتعاب لقساوسة يرتلون قداسات من أجل الموتى ، الذين قدر عليهم طبقاً لللاهوت الجديد ، الخلاص أو اللعنة قبل خلق العالم ، ولهذا فإنه يمكن التعبير في بهجة عن نزع ملكية الكنيسة بأنه استمرار للأموال المختلصة ، وأغلقت معظم الأديار الإسكوتلندية ، واستولى التبلاء على ثروتها ولم تدبر الحكومة في مبدأ الأمر أي مورد للقساوسة الكالفينيين ، وكان هؤلاء قد استخدموا كمعاونين أيدولوجيين في الثورة ، ولكن التبلاء كانوا قد فقدوا وقتذاك الاهتمام باللاهوت ، وكان نوكس ورفقاؤه من الوعاظ الذين خاطروا وضحووا بالكثير من أجل النظام الجديد قد توقعوا ، أن تستخدم أملاك الكنيسة في مساندة الكنيسة الإسكوتلندية ورجال الأكليروس بها . واثمسا من المجلس النيابي لإقرار هذا التدبير فلم يتلقوا جواباً ، ولكن خصص لهم في آخر الأمر سدس الأسلاب . ووجد أن هذا يقصر عن تحقيق مطالبهم فانقلبوا ضد الأرستقراطية النعمة وبدأ الحلف التاريخي بين أتباع الكنيسة المشيخية الإسكوتلندية والديمقراطية .

وتفردت حركة الإصلاح الديني الإسكوتلندي بين حركات الإصلاح الديني جميعاً بأنه لم يسفك فيها إلا أقل قدر من الدماء ، وكانت مع ذلك أبقاها ، وقاسى الكشالكه في صمت ، وهرب أساقفتهم وقبل معظم قساوسة الأبرشيات التغيير باعتباره ليس أسوأ من ظلم الأساقفة وزياراتهم التفتيشية .

وفقدت المناطق الريفية مفارق طرقها الجانبية ، وهجرت مزاراتها القديمة ، التي كان الحجاج يشدون إليها الرحال ، ولم يعد القديسون يهيمون للناس عطلات يرتاحون فيها . وليس من شك في أن نفوساً كثيرة قد حزنت على الماضي وبالغت في مثاليته . وليس من شك أيضاً في أن كثيرين أخذوا يترقبون ، والأمل براودهم ، مجيء ملكتهم الشابة من فرنسا ، ولقد ضاع الكثير مما كان يشيع المرح والجمال في الحياة . والكثير مما كان وحشياً وقاسياً وخداعاً ، ولسوف تحدث أمور كثيرة جافية كئيبة ، ومع ذلك لم يكن هناك بد من التغيير .

ونخست وطأة تبادل التهم وهياً الناس أنفسهم ، لتقبل النظام الجديد ، وأصبح التقاء مواقف ما يشبه العقيدة بالصفوف المشايعة للملكية ، والتي يقترب بعضها من بعض ، يعد نعمة كبرى ، لأنه سيضع حداً للحروب المريرة بين الإسكوتلنديين والإنجليز ، وسرعان ما تمنح الأمة الأضعف البلد الأقوى ملكاً ، وبريطانيا ستصبح مملكة واحدة .

الفصل الثامن والعشرون

هجرات الإصلاح الدينى

١٥١٧ - ٦٠

١ - المشهد الإسكنديناوى

(١٤٧٠ - ١٥٢٣)

ما إن حل عام ١٥٠٠ حتى كانت تقوى الناس قد جعلت الكنيسة تسيطر على اقتصاد اسكنديناوة . وكانت الكنيسة تملك نصف الأرض فى الدغرك ، وكان يفلحها مستأجرون فى منزلة تقرب من الرق^(١) . وكانت كوبنهاجن نفسها إقطاعية للكنيسة ، ورجال الإكليروس والنبلاء يتمتعون بالإعفاء من ضرائب الأرض . أما النبلاء فلأنهم اشتركوا فى الحرب على نفقتهم الخاصة ، وأما رجال الاكليروس فلأنهم نظموا العبادة والأخلاق والتعليم والبر .

وكانت الجامعات فى كوبنهاجن وأبسالا بالطبع فى أيدي رجال الكنيسة ، وكانت الكنيسة تتقاضى سنوياً عشر كل فاتح أو دخل يُحصَل خارج مجال للكنيسة ، وتقاضت رسماً صغيراً على كل بناء يقام وكل طفل يولد وكل اثنين يتزوجان وكل جثة تدفن ، وطالبت بالتبرع بيوم عمل فى السنة من كل فلاح . ولم يكن فى وسع أحد أن يرث عقاراً ، دون أن يقدم عنه حصة للكنيسة ، باعتبارها محكمة إشهاد للتثبيت من صحة الوصايا^(٢) . وكان يدافع عن هذه الضرائب بأنها تمول الخدمة الكهنوتية فى الكنيسة ، ولكن الشكاوى ارتفعت بأن الكثير من متحصلات المعاملات التجارية ذهبت لكى يعيش الأساقفة فى أبهة ملكية . وأزعج تجار الدنمرك السيادة الهنزية فى بحرى الشمال والبلطيقى ، فتميزوا غيظاً من المنافسة الإضافية للنبلاء ورجال الإكليروس، الذين كانوا يصدرون فائض لإنتاج ضياعهم فى سفنهم الخاصة غالباً . وفى

اسكنديناوة كما في غيرها من البلاد ، تطلع النبلاء في شوق إلى أراضي الكنيسة ، ولقد حدث هناك ، كما حدث في كل موضع آخر صراع بين القومية ، وبين الكنيسة التي تسمو على كل قومية ، وأيدت الكنيسة في كل البلاد للثلاث اتحاد كالمار الاسكنديناوى ، الذى كان كريستيان الأول ملك الدنمرك قد جرده (١٤٥٧) ، ولكن حزباً قومياً يتألف من سكان المدن والفلاحين رفض الاعتراف بالاتحاد ، باعتباره في الحقيقة سيادة دنمركية ، ونادوا بهنن ستور الأصغر نائب ملك يحكم أمة مستقلة (١٥١٢) • ودافع رئيس الأساقفة جوستاف ترول من أبسالو — وكانت وقتذاك عاصمة للسويد — عن الاتحاد ، فأقاله هنن ستور الصغير وأمر البابا ليو العاشر بإعادته إلى وظيفته فرفض ستور ، وحرم ليو تقديم الخدمات الدينية في السويد وفوض كريستيان الثانى ملك الدنمرك في غزو السويد ومعاقبة نائب الملك ، وفشلت أول محاولة لكريستيان ، واضطر إلى توقيع هدنة ، ولكنه حمل معه عند العودة إلى كوبنهاجن عدة رهائن كضمان لالتزام السويديين بنصوص الهدنة ، وكان جوستاف فازا أحد هذه الرهائن ، وظفر كريستيان في حملة ثالثة بنصر حاسم ، ومات ستور متأثراً بالخروج ، التي أصيب بها في المعركة . وأعدت أرملته على عجل جيشاً احتفظ باستكمالهم لمدة خمسة شهور أمام حصار دنمركى ، وأخيراً سلمت مقابل وعد قدمه قائد كريستيان بالحصول على عفو عام • وفى ٤ نوفمبر توج كريستيان ملكاً على السويد على يد ترول الظافر الذى أعيد إلى وظيفته •

وفى السابع من نوفمبر استدعى كبار السويديين الذين أيدوا ستور للمثول أمام الملك في قلعة استوكهلم . واتهمهم ممثل لترول بارتكاب جرائم عظيمة بخلعهم كبير الأساقفة وتدمير قلعته ، وطالب الملك بالانتقام منهم لهذه الأخطاء ، وعلى الرغم من العفو العام الذى صدر فقد حكم على سبعين من كبار السويديين بالإعدام . وقطعت رؤوسهم فى الثامن من نوفمبر فى الميدان

الكبير ، وقبض على آخرين عديدين في التاسع من نوفمبر وأعدموا ، وأضيف إلى من قتلوا في هذه المذبحة بعض المشاهدين الذين أعربوا عن تعاطفهم مع المحكوم عليهم ، وصودرت أملاك الموقى لصالح الملك ، وصرخ كل السويديين من الرعب ، وقال الناس إن اتحاد كالمار أغرق في « حمام الدم باستوكهلم » وانحطت مكانة الكنيسة كثيراً في نظر الجماهير لأنها بدأت المذبحة ، وقد رأى كريستيان أن يجعل حكمه آمناً بالقضاء على عقول الحزب القوي . والحق أنه مهد طريق العرش للرهيبة الشاب الذي قدر له أن يحرر السويد ،

واسمه جوستافوس أركسون ، ولكن ذريته أطلقوا عليه اسم فازا ، وهو مشتق من كلمة vasa السويدية و fascis للاتينية ومعناها محزمة من العصي ظهرت في شعار أسرته . وعندما بلغ الثالثة عشرة من عمره أرسل ليدرس في أيسالا ، وعندما بلغ العشرين من عمره استدعى لبلاط ستور الصغير الذي تزوج أختاً غير شقيقة لجوستافوس من أمه ، وهناك تلقى مزيداً من التعليم على يد رئيس الوزراء ، الأسقف هينج جاد ، وفي عام ١٥١٩ فر من المراقبة في الدنمرك واتخذ طريقه إلى لوبك ، وأقنع أعضاء مجلس الشيوخ فيها (وكانوا في عداوة دائم للدنمرك) ، أن يقرضوه مالا ويعيروه سفينة ، وعاد إلى شواطئ بلاده (٣١ مايو سنة ١٥٢٠) ، وأخذ يضرب على غير هدى وهو متنكر أربعة شهور أو كان يختبئ في قرى مغمورة . وفي نوفمبر وصلت الأنباء إليه بأن ما يقرب من مائة من الوطنيين المخلصين ، ومنهم أبوه ، قتلوا في استوكهلم ، فامتطى صهوة أسرع جواد استطاع العثور عليه ، وركب شمالاً إلى موطنه مقاطعة داليكارليا ، وصمم على أن ينظم هناك من ملاك الأراضي الجسورين طلائع جيش يمكن أن يحرر السويديين من الدنمركيين .

وكانت حياته وقتذاك ملحمة جذبة بأن يتغنى بها هومبروس . فقد مضى

يسير في طرقات ثلجية ، والتمس الراحة في بيت زميل سابق له في المدرسة ؛
وقدم له هذا الصديق واجبات الضيافة ثم انطلق ليخطر الشرطة الموالية
للدنمركيين أن الرهينة الهاربة يمكن القبض عليها وقتذاك ؛ غير أن الزوجة
أنذرت جوستافوس ليلوذ بالفرار . وبعد أن قطع راكباً عشرين ميلاً وجد
ملجأ لدى قسيس أخفاه أسبوعاً . وسافر بعد ذلك ثلاثين ميلاً وحاول أن
يحرص مدينة راتفيك على الثورة بيد أن أهلها لم يكونوا قد سمعوا بعد بقصة
حام الدم ولم يصدقوها . فركب فازا وسار في مروج متجمدة خسة وعشرين
ميلاً شمالاً إلى مورا ، وتوسل مرة أخرى للفلاحين أن يقوموا بثورة ، بيد أنهم
أصغوا إليه متشككين في تبلد . ووجد نفسه منبذاً وتملكه اليأس لحظة ،
فاستدار بفرسه نحو الغرب ، وتخلّى عن البحث عن ملجأ في النرويج ؛ وقبل أن
يصل إلى الحدود أدركه رسول من مورا ، ورجاه أن يعود ، وتعهد له بأنه
سوف يجد وقتذاك أذنأ صاغية بروح تفيض حماسة مثل روحه . فقد سمع
الفلاحون أخيراً بألباء الرعب في استوكهلم ، وعلاوة على هذا انتشرت شائعة
بأن الملك كان يفكر في القيام برحلة يخترق فيها السويد ، وأنه أمر بإقامة
المشائق في كل مدينة كبرى . وتقرر فرض مكوس جديدة على شعب كان
يكافح من أجل الحياة أمام جشع السادة واستبداد المبادئ الأساسية . وعندما
خاطب جوستافوس المواطنين في مورا مرة أخرى أعطوه حرساً مكوناً من
سبعة عشر من سكان المناطق الجبلية ، وأقسموا أن يساحوا أنفسهم ، وينظّموا
صفوفهم ، ويسيروا وراءه حيثما يقودهم لمقاتلة الدنمركيين

ولم يعرفوا وقتها سوى الأقواس والسهام وبغوس الحرب ، وعلمهم
فازا كيف يصنعون الرماح والحراب يرءوس من الحديد ؛ ودربهم بكل حمية
يطويها بين جوانحه شاب يحفزه حب الوطن والساطة ، وبهذه الحماسة استولوا
على فستيريس ثم أبسالاً ، وفر كبير الأساقفة تروول مرة أخرى ، وكسب
الجيش النامي في صبر وتصميم مقاطعة لآخرى من الحاميات الدنمركية

ولم يستطع كريستيان الثانى الحضور ليتولى بنفسه قيادة قواته . لأنه واجه في بلده ذاتها حرباً أهلية إلا أن أسطوله أغار مراراً على الشواطئ السويدية ، وبعث جوستافوس برسلى إلى لوبك لكى يطلبوا سفناً حربية . وجهازت المدينة التجارية عشرة سفن صرفت نشاط الأسطول الدنمركى ، وذلك مقابل وعد بالحصول على مبلغ كبير . وفى السابع من يونيه سنة ١٥٢٣ نادى الثوار المنتصرون ، فى ركسراد جديدة بقائدهم ملكاً باسم جوستافوس الأول ، وفى العشرين من يونيه استسلمت ستوكهلم واتخذ فازا منها بعد ذلك عاصمة له . وفى غضون ذلك كان كريستيان الثانى قد خلع عن عرشه فى الدنمرك ، وتولى خلفه فريدريك الأول عن كل المطالب الدنمركية فى السيادة على السويد ، وانتهى اتحاد كالمار (١٣٩٧ - ١٥٢٣) وبدأت أسرة فازا .

٢ - الإصلاح الدينى السويدى

كان جوستافوس لا يزال شاباً فى السابعة والعشرين من عمره . ولم يكن فارغ الطول ، كما نعهد فى الرجال من أهل الشمال ، ولكنه كان يتمتع بقوة بدنية مثل أى قرصان أسكنديناوى ، وكان وجهه المستدير متورداً بمحمرة الصحة ، ولحيته الصفراء الطويلة تضيء عليه وقار الملك أكثر من دلالتها على سنه ، وكانت أخلاقه رائعة بالنسبة إلى ملك ، بل إن الكنيسة التى قدر له أن يلبدها بعد ذلك بوقت قصير لم تستطع أن تجادل فى تقواه . ووقف نفسه على القيام بأعباء الحكم بنشاط لا يعرف الأناة ، جعله ينزلق أحياناً إلى التوسل بالعنف أو الاستبداد ، بيد أن ظروف السويد عند ارتقائه العرش كانت تبرر أو تكاد طبعه وحكمه المطلق . وقد ترك آلاف الفلاحين ، فى غمرة فوضى الحرب ، حقولهم دون أن يزرعوها ، وهجر عمال التعدين مناجمهم ، ودمر الصراع المدن ، وخفضت قيمة العملة وأفلست الخزانة العامة ، وأزهقت أرواح أصحاب

العقول المدبرة في البلاد في « حمام الدم » ، واعتبر البارونات الإقطاعيون الباقون على قيد الحياة جوستافوس حديث النعمة ، ونظروا باحتقار إلى ادعائه الحق في الحكم ، ودبرت المؤامرات لخلعه ففضى عليها بيد من حديد ، وكانت فنلنده ، التي كانت جزءاً من السويد ، لا تزال في أيدي الدنمركيين ، وكان سورن نوربى أمير البحر الدنمركى يحتفظ بجزيرة جوتلاند الاستراتيجية ، وضجت لويلك مطالبة بسداد قروضها .

وكانت أول حاجة ملحة استشعرتها الحكومة مال يدفع للقوات المسلحة التي تحميها ، ثم للموظفين الذين يقومون على شئونها ، أو وعد بدفع هذا المال ، ولكن الضرائب في السويد أيام فازا كانت تكاد تكلف في جبايتها أكثر من المتحصل منها لأن الذين كان في وسعهم وحدهم أن يدفعوها كانوا أقوياء جداً إلى الحد الذى يقاومون فيه جبايتها . وخضع جوستافوس لما اقتضته الحاجة الملحة من تخفيض قيمة العملة مرة أخرى ، بيد أن العملات الرديئة سرعان ما هبطت إلى قيمتها الفعلية ، وكانت إيرادات الدولة أسوأ مما كانت عليه من قبل ، ولم تكن في السويد إلا جماعة واحدة غنية - هى طبقة رجال الإكليروس ، فتحول جوستافوس إليهم ، وطلب منهم المساعدة ، واعتقد أن من العدل أن تخفف ثروة الكنيسة وطأة الفقر الذى يزرع تخته الشعب والحكومة ، وكتب عام ١٥٢٣ رسالة إلى الأسقف هانز براسك من لندكوبنج ، يطلب فيها هبة قدرها ٥٠٠٠٠ جيلدر للدولة . فاحتج الأسقف ثم أذعن . وأرسل فازا طلباً عاجلاً إلى كنائس السويد وأديارها بضرورة تسليم كل الأموال والمعادن الثمينة ، التي ليست ضرورية لمواصلة خدماتها ، إلى الحكومة بصفة قرض ، ونشر قاعة بالمبالغ التي يتوقع الحصول عليها من كل مصدر ، ولم تكن الاستجابة إليه كما توقع ، وبدأ يتساءل : ما إذا كانت الحكمة تقتضى منه أن يفعل كما كان يفعل الأمراء اللوثريون في ألمانيا - فيصادر ثروة الكنيسة تلبية لحاجته

الدولة : ولم ينس أن أغلب كبار رجال الإكليروس قد عارضوا الثورة ،
وأنهم عضدوا حكم كريستيان الثانى فى السويد :

وفى عام ١٥١٩ عاد أولوس بترى ، وهو ابن صاحب مصنع
حديد سويدي بعد أن قضى بضع سنوات فى الدراسة بفيكتبرج ، وسمح
لنفسه ببعض الهرطقات ، وهو شماس فى المدرسة الكاتدرائية فى سترانجنارس
وقال إن المطهر أسطورة ، وإن الصلوات يجب أن يخاطب بها الله وحده
وإن الاعتراف يوجه إليه تعالى وحده ، وإن الدعوة إلى ما ورد فى
الإنجيل خير من شعيرة القديس . وبدأ الناس يتداولون رسائل لوثر
فى السويد . فألح براسك على فازا أن يمنع بيعها ، فأجاب الملك بأن
تعاليم لوثر عرضت على قضاة عدول فلم يجدوا فيها زيفاً (٣) . ولعله رأى أن
من حسن السياسة الاحتفاظ على سبيل الاحتياط بهرطيق يساوم للكنيسة عليه .
وأصحت الأمور أشد إثارة عندما رفض البابا أدريان السادس أن
بصادق على تعيين قاصده الرسولى جوهانس ماجنوس رئيساً لأساقفة أوسلا ،
واقترح إعادة جوستاف ترول عدو الثورة . فأرسل فازا إلى مجلس شورى
الفايتيكان رسالة كانت حرة وقتذاك (١٥٢٣) بأن تفزع هنرى الثامن وتسعده
فيما بعد :

إذا كان عند أيدينا المقدس أى اهتمام بسلام بلدنا فإنه يسرنا أن نراه بصادق
على اختيار قاصده الرسولى ... وسوف نستجيب لرغبات البابا فيما يختص
بإصلاح الكنيسة والدين . ولكن إذا أيد قداسته أنصار كبير الأساقفة ترول
الموصومين بالحرمة ، مخالفًا بذلك كرامتنا وسلامة رعايانا ، فإننا سوف
نسمح لقاصده الرسولى بالعودة إلى روما ، وسوف ندبر أمور الكنيسة فى
هذه البلاد بمقتضى السلطة المخولة لنا باعتبارنا ملكاً .

وأدت وفاة أدريان وانصراف كليمنت السابع بمجوده لمقاومة لوثر
وشارل الخامس وفرانسيس الأول ، إلى ترك فازا حرراً فى المضى قدماً بالإصلاح

الدينى السويدى ، فعين أولاولوس بترى فى كنيسة سانت نيكولاس فى استكهلم ، وعين لورانتيوس شتيق أولاس أستاذاً لللاهوت فى جامعة أوسلا ، ورفع مصلحاً دينياً ثالثاً وهو لورانتيوس أندريا إلى رتبة رئيس شمامسة للكاتدرائية ، ودافع أولاولوس بترى عن اللوثرية فى مناظرة دارت بينه وبين بيترجال (٢٧ ديسمبر سنة ١٥٢٤) فى مقر الأسقفية بالكاتدرائية ، برئاسة الملك وقضى فازا بفوز أولاولوس ، ولم ينزعج عندما اتخذ أولاس زوجة له (١٥٢٥) ، قبل زواج لوثر بأربعة شهور ، ومهما يكن من أمر فإن الأسقف براسك فزع بسبب هذه المخالفة لرهبانية رجال الأكليروس ، وطلب من الملك أن يقضى على بترى بالحرمان . فأجاب جوستافوس بأن أولاولوس يجب أن يعاقب إذا كان قد ارتكب خطأ ، ولكن « يخيل لى أن من العجب أن يعاقب المرء بسبب الزواج (وهو شعيرة لا يحرمها الله) ، ولا يقع المرء تحت طائلة الحرمان بسبب الفسوق وغيره من الآثام(١) » وبدلاً من أن يحكم على بترى بأنه خالف القانون انتدبه هو وشقيقه لترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة السويدية . وساعدت النسخة المترجمة إلى اللغة الداريجة ، كما حدث فى كثير من البلاد الأخرى ، على تكوين اللغة القومية وتحرير الدين القومى .

وعد جوستافوس ، مثل معظم الحكام ، أى إجراء يقوم به لتدعيم مركز بلاده أو عرشه مسابراً للأخلاق . وحرص على ترقية الأساقفة الذين يذعنون لخططه إلى مرتبة المطرانيات السويدية ووجد أسباباً لا يستطيع دفعها لنزع ملكية أراضي الأديار ، ولما كان قد تقاسم الأسلاب مع النبلاء فإنه فسر ذلك بأنه إنما كان يعيد إلى العلمانيين ما أغرى أجدادهم على أن يهبوه للكنيسة، وشكاً البابا كليمنت السابع من أن القساوسة السويديين كانوا يتزوجون ، ويقدمون القرى بالخبز والنيذ ، ويهملون شعيرة المسح الأخير ويغيرون شعيرة القداس وبعث بنداء للملك بأن يظل مخلصاً للكنيسة ولكن جوستافوس كان قد قطع شوطاً بعيداً فلم يستطع أن يتراجع ، وكانت

العقيدة المحافظة حرية بأن تخرب خزائنه . ونادى فى مجلس فستيريس (١٥٢٧) بالإصلاح الدينى علنا .

كان اجتماعا تاريخياً فى تكوينه ونتائجه معا . فقد اجتمع أربعة أساقفة وأربعة من كبار القساوسة وخمسة عشر عضوا من الـ **Riksråd** و١٢٩ نبيلًا واثنتان وثلاثون من أوساط الناس وأربعة عشر نائباً لعمال المناجم و١٠٤ ممثلاً للفلاحين ، وكان هذا مجلساً وطنياً يمثل أعرض قاعدة بين المجالس فى القرن السادس عشر . وطرح كبير وزراء الملك اقتراحاً ثورياً أمام المجلس ، فقال إن الدولة قد افتقرت إلى المال إلى حد عجزها عن القيام بتبعاتها لخير الشعب ، وأن الكنيسة كانت غنية جداً إلى الحد الذى يسمح لها بأن تحول جانباً كبيراً من ثروتها إلى الحكومة ، ويبقى لها مع ذلك ما يكفى لأن تقوم بجميع التزاماتها . وحارب الأسقف براسك لآخر لحظة من أجل مثله العليا وأملكه العقارية ، فأعلن أن البابا قد أمر رجال الأكابروس بالدفاع عن أملاكهم . وصوت المجلس فى صف القائلين بإطاعة البابا . ورأى جوستافوس أن يقامر على كل شىء برمية واحدة ، فأعلن أنه إذا كان هذا حكم المجلس والأمة فإنه سيستقيل ويرحل عن السويد ، وظل المجلس فى نقاش مستمر طوال ثلاثة أيام . ووقف الأوساط ورجال الفلاحين إلى جانب الملك ، وكان لدى النبلاء سبب وجيه للتحرك فى الاتجاه نفسه ، واقتنع المجلس آخر الأمر بأن فازا أعظم قيمة للسويد من أى بابا ، فوافق على رغبات الملك . وتحولت الأديار فى فترة العطلة أو فى ختام مجاس فستيريس إلى إقطاعات للملك ، وإن سمح للرهبان بالإفادة منها ، وتقرر إعادة كل الأملاك التى منحها النبلاء للكنيسة منذ عام ١٤٥٤ إلى ورثة الواهبين ، وأن يسلم الأساقفة قصورهم إلى التاج ، وحرّم على الأساقفة أن يسعوا إلى الحصول على تأييد البابا لتعيينهم ، وتقرر أن يسلم رجال الإكابروس إلى الدولة كل دخل ليست شعائرتهم للدينية فى حاجة إليه ، ووضع حد للاعتراف السرى ، وتقرر أن تعتمد العظات كلها على الكتاب المقدس وحده . وكان الإصلاح الدينى فى السويد ، بصورة قاطعة أكثر منه فى أى مكان آخر ، تأمياً للدين وانتصاراً للدولة على الكنيسة .

وعاش فازا بعد هذه الأزمة ثلاثا وثلاثين عاماً ، وظل حتى النهاية حاكماً مطلقاً . . . قوياً ولكنه يعمل لخير شعبه ، وكان مقتنعاً بأن السلطة المركزية وحدها هي التي تستطيع أن تعيد النظام والرخاء إلى السويد ، وأنه في مهمة معقدة كهذه لا يستطيع أن يتوقف عند كل خطوة ليستشير مجلساً متروياً ، وبفضل تشجيعه وتنظيمه صبت مناجم الشمال حديدتها في أدوات الحرب السويدية ، واتسعت رقعة الصناعة ، وأبرمت معاهدات تجارية مع إنجلترا وفرنسا والدنمرك وروسيا أوجدت أسواقاً للسلع السويدية ، وجلبت إلى السويد منتجات من اثني عشرة بلداً ، وأضفت تهذيباً جديداً وثقة على حضارة كانت قبله معتقلة في سداجة ريفية وأمية ، وازدهرت السويد بوقتذاك كما لم تزدهر من قبل .

واشتبك جوستافوس في عدة حروب ، وقع أربع ثورات وعقد قرانه على ثلاث زوجات على التعاقب ، وأنجب له الأولى ولداً أصبح فيما بعد أريك الرابع عشر ، وأنجب له الثانية خمسة أولاد وخمس بنات أما الثالثة التي كانت في السادسة عشرة من عمرها عند ما تزوجها وهو في السادسة والخمسين فقد عمرت بعده ستين عاماً ، وأغرى الرجسراد Rigssaad بأن يقبل أبناءه وورثة العرش وأن يجعل وراثة العرش مقصورة على الذكور كقاعدة تتبع في الملكية السويدية .

وصفحت السويد عن حكمه المطلق لأنها أدركت أن النظام أصل الحرية وليس ثمرة لها . وعندما مات (٢٩ سبتمبر سنة ١٥٦٠ ، بعد حكم دام سبعة وثلاثين عاماً دفن في كاتدرائية أيسالا في احتفال صدر عنه بالحب وتميز بالسرف وهو لم يمنح شعبه الحرية الشخصية التي كانوا يستحقونها بصفة خاصة فيها يبدو ، ولكنه منحهم حرية جماعية من السيطرة الأجنبية في الدين أو الحكم ، وقد هيأ الظروف التي استطاعت أمته في ظلها أن تصل إلى درجة

النضج في مجالات الاقتصاد والأدب والفن . كان الأب الحقيقي للسويد الحديثة .

٣ - الإصلاح الديني الدنمركي

كان كريستيان الثاني ملك الدنمرك (حكم ١٥١٣ - ٢٣) شخصية لامعة مثل جوستافوس فازا الذي هزمه في السويد . وقد أكرهه البارونات على التوقيع على شروط استسلام مهينة ثمناً لانتخابه ، فأحاط نفسه بمستشارين من الطبقة المتوسطة وتجاهل الريجسراد Rigsraad (مجلس الثواب) الدنمركي ، المكون من الأعيان من ذوى النسب ، وعين أم عشيقته الهولندية الجميلة كبيرة لمستشاريه ولا بد أن هذا المجلس الخاص كان يتمتع بشيء من المقدرة والروح ، لأن سياسة كريستيان الوطنية كانت بناءة بقدر ما كانت مغامراته الأجنبية فاشلة لا طائل تحتها ، وعمل جاهداً في تدبير الملك ، وأصلح حكم المدن ، وراجع القوانين ، وقضى على القرصنة ، ومهد الطرق ، وشرع في إقامة نظام يريدى عام ، وألغى أسوأ آفات الرق ، وأبطل عقوبة الإعدام على ممارسة السحر ، ونظم الإعانة للمحتاجين ، وفتح المدارس للفقراء ، وجعل التعليم إجبارياً ، وطور جامعة كوبنهاجن ، فأصبحت مكاناً يشع بالضياء وملاذاً للعلم . وتعرض لعداء لوبك بتقييد سلطة الهانز Hanse ، وشجع التجارة الدنمركية وأسبغ عليها حمايته ، ووضع حداً لإعادة الهمجية التي تحولت للقرويين المقيمين بجوار البحر الحق في نهب كل السفن التي تتحطم على شواطئهم .

وأرسل ليو العاشر عام ١٥١٧ جيوفاني أركمبولدو إلى الدنمرك ليعرض صكوك غفران ، فتدد بول هاجزن ، وهو راهب كرملي بما بدا له بيعاً لصكوك الغفران هذه ، وهو بذلك سبق رسائل لوثر (ه) . واشتجر النزاع بين القاصد الرسولى وبين الملك حول تقسيم هذه المبالغ المتحصلة من البيع . وهرب أركمبولدو إلى لوبك بجانب منها ، وصادر كريستيان الباقي ، وعندما

وجد كريستيان أسباباً وجيهة لاعتناق البروتستانتية دفعاً للمظالم الحقيقية التي ارتكبتها الكنيسة وثروتها القائمة ، عين هلعزن في منصب بجامعة كوبنهاجن ، حيث تزعم إرازموس الدنمرك الفصيح هذا ، إلى حين ، حركة للإصلاح الدينى . وعند ما تحول هلعزن إلى رجل يأخذ بأسباب الحيلة أرسل كريستيان إلى فردريك الحكيم الأمير المختار لسكسونيا ، كى يبعث إليه بلوثر نفسه ، أو يبعث إليه على الأقل بعالم فى اللاهوت من مدرسة لوثر . وجاء كاراشادت ، ولكنه لم يملك طويلا . وأصدر كريستيان قانوناً بالإصلاح الدينى : لا يجوز رسامة أحد دون أن يكون قد درس دراسة كافية ليفسر الإنجيل باللغة الدنمركية ، ولا يستطيع رجال الإكليروس قانوناً أن يملكوا عقاراً ، أو يتسلموا تركات ما لم يتزوجوا ، وأمر الأساقفة بأن يتخففوا من الترف الذى يعيشون فيه ، وفقدت المحاكم الكنيسة الاختصاص القضائى ، عند ما يتعلق الأمر بنظر قضية خاصة بالملكية ، وخولت محكمة عليا ، عينها الملك ، السلطة النهائية فى الشؤون الكنسية والمدنية على السواء : ومهما يكن من أمر فإنه عند ما وضع مجلس دايت ورمس لوثر تحت نير الحرمان الإمبراطورى ، أوقف كريستيان إصلاحاته وأشار هلعزن بعقد صلح مع الكنيسة .

وبينما كانت هذه السياسة الوطنية التى انتهجها كريستيان تثير شعبه ، فقد أزمه الموقف بفشله فى الشؤون الخارجية . وأدت قسوته فى السويد إلى أن ينقلب عليه كثير من الدنمركيين . وأعلنت لوبك الحرب عليه بسبب هجماته على السفن الهانزية ، وتجاهل النبلاء ورجال الإكليروس ، الذين نفرتهم منه الضرائب المرتفعة والتشريع المعادى ، دعواته لعقد مجلس وطنى ، ونادوا بعمه الدوق فريدريك أف شلسفيج — هولشتين ، ملكاً جديداً للدنمرك ، وفر كريستيان إلى الفلاندرز مع الملكة زوجته ، شقيقة شارل الخامس البروتستانتية ، وعقد صلحاً مع الكنيسة ، مؤملاً أن يجد مملكة لقداس :

وقبض عليه وهو يقوم بمحاولة ، لا طائل تحتها ، لاستعادة عرشه ، وعاش سبعة وعشرين عاماً في سجون سوندربورج ، لا رفيق له إلا قزم نرويجي أحمق . وقادته سبل المجد إلى رمسه ، يحلله الخزي والعار رويداً (١٥٥٩) .

ولم يجد فردريك الأول ما كان ينشده من سعادة في ظل تاجه المهدد ، فقد رضى به النبلاء ورجال الأكليروس بشروط كثيرة ، أحدها أنه لن يسمح أبداً لمطابق بالوعظ . الدنمرك ، وبينما كان هلمجن يواصل نقده لنقائص الكنيسة ، حول وقتذاك معظم مناظراته ، التي تشتمل حماساً ، ضد البروتستانت ، وألح على أن إصلاحاً دينياً ، يتم بالتدريج ، خير من ثورة يسودها الشعب . ولكنه لم يستطع أن يقف في وجه التيار ، فقد كان الدوق كريستيان ، ابن فردريك ، لوثيرياً قبل ذلك ، وتزوجت ابنة الملك ، بموافقته ، ألبرخت البراندنبورجى الرئيس اللوثرى السابق للفرسان النيوتون ، وفى عام ١٥٢٦ مال فردريك مع الريح ، وعين هانز تاووزن قساً خاصاً له ، وكان قد درس على يد لوثر . فترك تاووزن ديره ، وتزوج ودافع علناً عن آراء لوثر ، ووجد فردريك أن من المناسب أن يأمر بأن تدفع له لا للبابا ، رسوم التصديق على تعيين الأساقفة . وتشجع الوعاظ اللوثرىون وتضاعف عددهم ، وطلب الأساقفة نفهم ، فرد عليهم فردريك بأنه لا ولاية له على أرواح الناس ، وأنه قرر أن يترك العقيدة حرة — وهو إجراء غير مأوف للغاية . وظهرت عام ١٥٢٤ ترجمة للعهد الجديد باللغة الدنمركية ، ونشر كريستيان بدرسن عام ١٥٢٩ نسخة أفضل من الأولى ، دفعت الحركة البروتستانتية دفعة كبيرة . وكان الناس يتلهفون على وضع حد لضرائب العصور التي تدفع لرجال الأكليروس ، فقبلوا اللاهوت الجديد ، وما أن حل عام ١٥٣٠ حتى كان اللوثرىون يسيطرون على كوبنهاجن وفيبورج . وفى ذلك العام عقدت مناظرة فى المجلس بكوبنهاجن ، بين زعماء الكاثوليك والبروتستانت ، وقضى الملك والشعب بفوز البروتستانت ، وظل الاعتراف

بالعقيدة الذى قدمه هناك هانز تاووزن مدى عقد من الزمان ، المذهب الرسمى للوثريين الدنمركيين ٥

وكانت وفاة فردريك (١٥٣٣) مقدمة للفصل الأخير من الإصلاح الدينى الدنمركى . فقد انضم كبار التجار فى الدنمرك إلى أعدائهم القداى فى لوبك ، وقاموا بمحاولة لإعادة كريستيان إلى العرش ، وقاد الكونت كريستوفر اولدنبرج قوات لوبك وأطلق اسمه على هذه الحرب فسميت باسم « حرب الكونت ، وسقطت كوبنهاجن فى يده ، وأخذت لوبك تحلم بحكم الدنمرك بأسرها . بيد أن أوساط الناس والفلاحين نظموا صفوفهم تحت علم كريستيان ابن فردريك ، وتغلب جيشهم على أولدنبرج ، واستولى على كوبنهاجن بعد حصار ضربه حولها دام عاماً (يوليو سنة ١٥٣٦) . وقبض على جميع الأساقفة ، ولم يطلق سراحهم ، إلا بعد أن وعدوا بالبقاء إلى جانب النظام البروتستانى وانهقد المجلس الوطنى فى أكتوبر سنة ١٥٣٦ ، وأنشأ رسمياً كنيسة الدولة اللوثرية ، ورئيسها الأعلى كريستيان الثالث . وصودرت جميع أملاك الأسقفيات والأدبار لصالح الملك ، وفقد الأساقفة كل صوت لهم فى احكم . وقبلت النرويج وأيسلندة كريستيان الثالث وتشريعه ، وكتب النصير التام للوثرية فى اسكنديناوة (١٥٥٤) .

٤ — للبروتستانتية فى شرق أوروبا

نعمت بولندة بعصرها الذهبى فى عهد سجسموند الأول (١٥٠٦ — ٤٨) وابنه سجسموند الثانى (١٥٤٨ — ٧٢) . وكانا رجلين على حظ من الثقافة والذكاء ، وراعيين متذوقين للأدب والفن ، وكلاهما منح للفكر الدينى والعبادة حرية ، وعلى الرغم من أنها لم تكن كاملة ، فإنها جعلت معظم أمم أوروبا تبدو قروسطية إذا قورنت ببولندة . وتزوج سجسموند الأول بونا سفورزا المرححة الموهوبة (١٥١٨) ، وهى ابنة الدوق جياىماليازو أمير

ميلان ، وأحضرت معها إلى كراكو بطانة من رجال الحاشية والعلماء ، وبدلاً من أن يتبرم بهم الملك ، رحب بهم باعتبارهم جسراً يصل بينه وبين النهضة ، وتملكت الأرستقراطية نزعة إلى الترفُّت بارتداء الثياب المنمقة واقتناء الرياش الثمينة ، وأصبحت اللغة أكثر صقلاً ، والأخلاق أكثر تهذيباً ، وازدهرت الآداب والفنون ، وكتب إرازموس (عام ١٥٢٣) : « إلى أهلى هذه الأمة . . . التى بلغت فيها العلوم وفقه القانون والأخلاق والدين وكل ما يفصلنا عن الحمجية درجة من الازدهار تستطيع بها أن تنافس أرفع الأمم شأنًا وأعظمها مجدًا » . وسيطرت بونا على زوجها بجمالها ورشاقتها ودهائها ، فأصبحت ملكة فعلاً ، وملكة فى الزى على السواء . وكان ابنها سيجسموند الثانى عالماً بالإنسانيات ولغويًا وخطيباً وميلاً إلى التزيى بزي النساء (٧) . وأضررت الحروب هذه اليهود اللامعة لأن بولنده كانت مشتبكة مع السويد والدنمرك وروسيا فى نزاع على السيطرة على بحر البلطيق وموانيه ، وفقدت بولنده بروسيا ، بيد أنها ضمت مازوفيا وتشمل وارسو (١٥٢٩) وليفونيا وتضم ريجا (١٥٦١) . وكانت بولنده فى هذا العصر دولة أوروبية كبرى .

وفى غضون ذلك تسلل الإصلاح الدينى من ألمانيا وسويسرة . وقد عودت حرية العبادة ، التى ضمنها التاج البولندى لرعاياه من الروم الكاثوليك ، الأمة على التسامح الدينى ، وجعلت ثورة الهسبين والأتراكويين فى بوهيميا المجاورة . والتى دامت قرناً من الزمان ، بولنده لا تعباً إلى حد ما بالسلطة البابوية البعيدة . وكان الأساقفة ، الذين يعينهم الملوك ، رجالاً مثقفين محبين لوطنهم ، من أنصار الإصلاح الكنسى ، مع الاعتصام بحقيقة إرازمية ، ويؤبدون الحركة الإنسانية تأييداً عظيماً ، ومهما يكن من أمر فإن هذا لم يخفف من شدة الحسد الذى تطلع به النبلاء ، وسكان المدن ، إلى أملاكهم ومواردهم ، وازدادت الشكاوى من استنزاف الثورة

القومية إلى روما ، ومن صكوك الغفران التي تكلف مشترىها غالباً بصورة غير معقولة ، ومن اتجار رجال الدين بالمقدسات والرتب والوظائف الدينية ، ومن ارتفاع نفقات التقاضى أمام المحاكم الأسقفية . واستاء صغار النبلاء الزلاخته Szlachka بصفة خاصة من إعفاء رجال الأكليروس من الضرائب ومن جباية رجال الأكليروس لضرائب العشور من النبلاء أنفسهم . ولعل بعض البارونات من ذوى النفوذ قد استمعوا فى تعاطف إلى نقد لوثر للكنيسة ، لأسباب اقتصادية ، وكان لما يتمتع به اللوردات الإقطاعيون من شبه سيادة الفصل فى إسباغ الحياة على الحركات البروتستانتية المحلية ، كما كان لاستقلال الأمراء الألمان الفصل فى إمكان نشوب الثورة وحماية لوثر . ودافع راهب دانزج على رسائل لوثر ودعا إلى القيام بإصلاحات كنسية ، وتزوج وارثة (١٥١٨) ؛ وانتهج واعظ آخر نهج لوثر فعلا إلى حد أن عدة جماعات للمصلين أزال كل الصور الدينية من كنائسها (١٥٢٢) وأحل مجلس المدينة الرهبان والراهبات من أقسامهم وأغلق الأديار (١٥٢٢) ، وما أن حل عام ١٥٤٠ حتى كانت كل منابر الوعظ فى دانزج فى أيدي البروتستانت . وعندما قدم بعض رجال الإكليروس فى براونزبرج البولندية البروسية الصغيرة اللوثرية وشكا كبراء القساوسة فى الكاتدرائية إلى أسقفهم ، رد بأن « لوثر بنى آراءه على الكتاب المقدس وكل من يشعر بأن فى مقدوره أن يندحضا فليضطلع بالعبء (١٥١٠) (٨) . وأقنع سيجسموند الأول بفرض رقابة على المطبوعات ، ومنع دخول كتابات لوثر ، غير أن كاتم سره وكاهن الاعتراف الفرنسيسكانى الخاص ببونا اعتنقا العقيدة المحرمة سرأ وكسبتهما إلى صفها ، وأهدى كالفن ، عام ١٥٣٩ كتابه « تعليق على القداس » لولى العهد .

وعندما أصبح الأمير ملكاً باسم سيجسموند الثانى انتشرت اللوثرية والكالفينية على السواء بسرعة . وترجم الكتاب المقدس إلى اللغة البولندية ، وبدأت اللغة الدارجة تحل محل اللغة اللاتينية فى الشعائر الدينية . وأعلن

القساوسة المبرزون مثل جان لاسكى نحوطم إلى البروتستانتية ؛ وفي عام ١٥٤٨ انتقل الإخوة البوهيميون من بلادهم إلى بولنده ، وسرعان ما كانت هناك ثلاثون جمعية سرية من طائفتهم في البلاد . وقام رجال الأكليروس الكاثوليك بمحاولة لاتهم بعض أفراد صغار النبلاء Szlachta بالهرطقة ومصادرة أملاكهم ، فأدت إلى قيام كثير من صغار النبلاء بالثورة ضد الكنيسة (١٥٥٢) وصوت المجلس النيابى الوطنى لعام ١٥٥٥ ، وأقر الحرية الدينية لكل العقائد التى تعتمد على « كلمة الله الخالصة » ، وأسبغ صفة الشرعية على زواج رجال الأكليروس ، ومناولة القربان المقدس بالخبز والنبيذ ، وكان الإصلاح الدينى فى بولنده فى أوج ازدهاره .

وتعقد الموقف فى بولنده بتطور أقوى حركة للقائلين بوحدة الكنيسة ، إبان القرن السادس عشر فى أوروبا ؛ وفى أوائل عام ١٥٤٦ نوقشت محاولات سرفيتوس المنكرة للقول بالتثليث ، وذلك فى هذا الشرق الأقصى من العالم المسيحى اللاتينى ، وزار لايلىوس سوكينوس بولنده عام ١٥٥١ وترك خناثر من الأفكار المتطرفة ، وواصل جيورجيو بلاندرانا الحملة ، وفى عام ١٥٦١ أصدرت الجماعة الجديدة اعترافاً بالعقيدة . وواصل أعضاؤها الخلط الذى اتسم به لاهوت سرفيتوس ، فقصرُوا الألوهية الكاملة على الرب الأب ، ولكنهم جاهرُوا بالإيمان بالمولد الخارق للمسيح ووحية الإلهى ومعجزاته وبعثه وصعوده . ورفضُوا التسليم بفكرتى الخطيئة الأولى وتفكير المسيح عن خطايا البشر ، وسلمُوا بالتعميد والقربان المقدس كرمزين فحسب ، ولقنُوا الناس أن الخلاص يتوقف فوق كل شئ على العمل الواعى بتعاليم المسيح ؛ وعندما أدان الحُجج المقدس الكالفينى فى كراكو (١٥٦٣) هذه العقائد ، أنشأ القائلون بوحدة الكنيسة لهم كنيسة منفصلة . ولم تبلغ الطائفة أوج ازدهارها إلا على يد فاوستوس

سوكينوس ابن أخى لايلىوس ، الذى وصل إلى بولنـدة عام ١٥٧٩ .

وحاربت الكنيسة الكاثوليكية هذه التطورات بالاضطهاد والكتابات والدبلوماسية ، وفى عام ١٥٣٩ أرسل أسقف كراكو إلى المحرقة امرأة فى الثمانين من عمرها بتهمة أنها رفضت عبادة القربان المقدس^(٩) . وتصدى ستانيسلاوس هوزيوس ، أسقف كولم فى بروسيا ، والكاردينال فيها بعد ، لتعيسة الهجوم المضاد بمقدرة وحماة ، وعمل جاهداً من أجل الإصلاح للكلى ، ولكنه لم يكن متعاطفاً مع اللاهوت البروتستانتي أو الشعيرة البروتستانتية . وبناء على اقتراحه أرسل لودوفيكوليبيومانو أسقف فيرونا إلى بولنـدة مندوباً بابوياً ، وعين جيوفانى كومندوفى ، أسقف زانتي قاصداً رسولياً فى كراكو . وكسبوا تأييد سجسموند الثانى الفعال للكنيسة بتأكيد الانقسامات بين البروتستانت وتضخيم صعوبة تنظيم الحياة المعنوية للأمة بمثل هذه العقائد الضارة المذبذبة . وفى عام ١٥٦٤ جاء هوزيوس وكندوفى باليسوعيين إلى بولنـدة . وضمم هؤلاء الرجال المدربون المخلصون مناصب استراتيجية فى النظام التعليمى ، واستمالوا آذان الشخصيات البارزة ، وأعادوا الشعب البولندى إلى اعتناق العقيدة التقليدية .

وكان البوهيميون من البروتستانت قبل لوثر ، ولم يجدوا فى أفكاره ما يفزعهم إلا قليلاً ، وقبل جانب كبير من الألمان على الحدود الإصلاح الدينى ، وكان الإخوة البوهيميون ويبلغ عددهم حوالى عشرة فى المائة من مجموع السكان البالغ ٤٠٠.٠٠٠ نسمة ، أشد تمسكاً بالبروتستانتية من لوثر ، وكان ٦٠ فى المائة أتراكوين كاثوليك تناولوا القربان المقدس بالنبيذ وبالنخبز على السواء ، وتحاملوا احتجاجات البابوات^(١٠) . وما أن حل عام ١٥٦٠ حتى كان ثلثا سكان بوهيميا من البروتستانت ، ولكن فردينالد أدخل اليسوعيين عام ١٥٦١ ، وتحول التيار إلى العقيدة الكاثوليكية المحافظة .

وعرفت هنغاريا الإصلاح الدينى على طريق المهاجرين الألمان وهم يحملون أنباء لوثر ، ذلك الرجل الذى استطاع أن يتحدى الكنيسة والإمبراطورية وعاش مع ذلك ، وتطلع الفلاحون الهنغاريون الذين ظلمهم الإقطاع الذى تساعده الكنيسة ، بشيء من التحيز لبروتستانتية يمكن أن تضع حداً لضرائب العشور والمكوس التى تجبها الكنيسة ، وتطلع البارونات الإقطاعيون بعيون جشعة إلى أملاك الكنيسة الشاسعة ، التى كانت منتجاتها تنافس منتجات أراضهم ، ورأى عمال المدن ، الذين أصدىوا بعدوى مبادئ المدينة الفاضلة ، أن الكنيسة هى العقبة الكبرى التى تقف فى طريق أحلامهم ، وانهمكوا فى نشوات تحطيم التماثيل ، وتعاونت الكنيسة فى إقناع الحكومة باعتبار اعتناق البروتستانتية جريمة يستحق مرتكبها الإعدام . وسعى الملك فرديناند فى غربى هنغاريا جاهداً للحصول على مصالحة ، وأراد أن يسمح لرجال الإكليروس بالزواج وبتقديم القرban المقدس بصورتيه المعروفتين ، وانتشرت البروتستانتية بلا قيود فى شرقى هنغاريا فى ظل حكم تركى ينظر باحتقار وبلا مبالاة إلى الاختلاف بين المذاهب المسيحية ، وما إن حل عام ١٥٥٠ حتى بدأ أن هنغاريا بأسرها سوف تصبح بروتستانتية ، ولكن الكالفينية بدأت وقتذاك تنافس اللوثرية فى هنغاريا ، وأيد المجرىون ، وهم بفطرتهم مناهضون للألمان ، النمط السويسرى من الإصلاح الدينى ، وما إن جاء عام ١٥٥٨ حتى كان الكالفينيون من من الكثرة إلى حد أنهم استطاعوا عقد مجمع مقدم فى زنجر ، كان له أثره الكبير . وشطرت مراكز القوى المتنافسة للإصلاح الدينى الحركة إلى شطرين ، وعاد كثير من الموظفين أو من تحولوا من عقيدتهم ، ممن ينادون بالاستقرار الاجتماعى أو الهدوء الفكرى إلى الكاثوليكية ، وفى القرن السابع عشر استعاد اليسوعيون يزعامة ابن أحد الكالفينيين ، هنغاريا إلى حظيرة الكاثوليكية ؟

٥ - شارل الخامس والاراضى المنخفضة

كانت تجارة نافقة في بلاد الفلاندرز إبان نضج شارل أفضل من الانصراف إلى صناعة ضعيفة مشتهرة : وساد الكساد في بروجس وغنت ، وعاشت بروكسل باعتبارها قصبة فلمنكية ، وكانت لوفان تشكل اللاهوت وتصنع البلعة وأنتورب تحول - وسوف تكون عند حلول عام ١٥٥٠ - أغنى مدينة في أوروبا وأكثرها حركة وعملا : وحولت التجارة الدولية والمال ذلك الميناء الهزيل على نهر شلدت العريض الصالح للملاحة بفضل انخفاض المكوس الجمركية على الواردات والصادرات والارتباط السياسى مع إسبانيا وبورصة متخصصة ، وشعارها يقول إنها أنشئت *ad usum mercatorum* « ليفيد منها التجار القادمون من كل البلاد والمتحدثون بجميع اللسان » : وكان القيام بمشروع أى عمل حراً من قيود الطائفة الحرفية والحماية البلدية ، التى أبقت الصناعة للقروسطية غير متقدمة لحسن الحظ : وفتح المصرفيون الإيطاليون هناك وكالات وأقام « التجار المغامرون » الإنجليز مستودعا وركز آل فوجر وجوه نشاطهم التجارى ، وبنى الهانز مؤسستهم العظيمة بيت الشريكين (١٥٦٤) . وشهد الميناء ٥٠٠ سفينة تدخل إليها أو تغادرها كل يوم و ١٠٠٠ تاجر يشتغلون بتبادل السلع : وكانت حوالة مالية مسحوبة على أنتورب وقتذاك أشيع شكل للعملة الدولية . وفي هذه الفترة حلت أنتورب بالتدريج محل لشبونة ، وأصبحت أكبر ميناء أوروبى لتجارة التوابل ، وكان للوكلاء الفلمنكيون يشترون حوالات السفن الداخلة إلى لشبونة قبل أن تفرغ ثم ترسل مباشرة إلى أنتورب لتوزيعها في شمالي أوروبا : وكتب سفير الهندية يقول : « لقد حزننا لرؤية أنتورب لأنى شهدت مدينة تبرز البندقية (١٢) » ، وكان يشهد التحول التاريخى للزعامة التجارية من البحر الأبيض المتوسط إلى شمال الأطلسى : وحفزت هذه التجارة الصناعة الفلمنكية فانتعشت حتى في غنت ،

وأمدت الأراضي المنخفضة شارل الخامس بمبلغ ١٥٠٠٠٠٠ ١٥٠٠٠ جنيه (٣٧٥٠٠٠٠٠ دولار ؟) سنويا ، وهو يعادل نصف دخله الكلى (١٣) . واستجاب بمنح الفلاندرز وهولندا حكما صالحا معتدلا ، اللهم إلا في مجال الحرية الدينية - وهى هبة لم يكدها يدركها أصدقاؤه أو أعداؤه . وكانت سلطته من الناحية الدستورية مقيدة بتعهد الذى أقسم على تنفيذه بمراعاة موثيق المدن والمقاطعات وقوانينها المحلية ، وبالحقوق الشخصية والعائلية ، التى حافظ عليها سكان المدن بشجاعة ، وبمجالس الدول راسية ، ومحكمة للاستئناف أنشئت لتكون جزءا من الإدارة المركزية ، وكان شارل بوجه عام يحكم الأراضي المنخفضة حكما غير مباشر عن طريق نواب يقبلهم المواطنون : أولا عمته ، وحاضنته ومربيته مرجريت النمساوية ، ثم شقيقته ماري ، ملكة هنغاريا السابقة ، وهما امرأتان تتمتعان بكفاءة وإنسانية ومهارة . ولكن شارل أصبح ألد استبدادا بالساع رقعة الإمبراطورية وأقام حرسا إسبانيا في المدن المتكبرة ، وقع بقسوة أى مخالفة خطيرة لسياسته لدولية ، فعندما رفضت غنت أن تصوت على قرار بالاعتمادات العسكرية التى طلبها ومنحتها له المدن الأخرى ، أحمده شارل الثورة باستعراض قوة لا جدال فيها ، واقتضى إعانة مالية وتعويضا ، وألقى الحريات التقليدية التى كانت تتمتع بها البلدية ، واستبدل بالحكومة المختارة محليا موظفون معينون . من قبل الإمبراطور (١٥٤٠) (١٤) ، ولكن لم يكن هذا المتبع فى الأغلب . وعلى الرغم من هذه القسوة العارضة فقد ظل شارل يحظى بشعبية بين رعاياه فى الأراضي المنخفضة ونال للثقة لما حققه من استقرار سياسى ونظام اجتماعى ، وطدا دعائم الرخاء الاقتصادى ، وعندما أعلن تنازله عن العرش حزن كل المواطنين تقريبا (١٥) .

وسلم شارل بالنظرية المتداولة القائلة بأن السلام القومى والقوى يتطلبان ••••• حدة المعتقد الدينى ، وخشى أن تؤدى البروتستانتية فى الأراضي المنخفضة

إلى تعريض جناحه للخطر في نزاعه مع فرنسا وألمانيا اللوثرية^١، فأهد الكنيسة تأييداً كاملاً في قمع الهرطقة في الفلاندرز وهولندا ، وكانت حركة الإصلاح الديني هناك معتدلة قبل لوثر ، ودخلت بعد عام ١٥١٧ ، مثل ما دخلت اللوثرية ومذهب المنكرين للتعميد من ألمانيا ، والزوينجيلية والكالفيكية من سويسرة والألزاس وفرنسا : وسرعان ما ترجمت رسائل لوثر إلى الهولندية وشرحها وعاطف في أنتورب وغنت ودور دريخت واترخت وتسفولي ولاهاي . وتزعم الأخوة الرهبان الدومينيكان حركة معارضة نشيطة دحضوا فيها آراء خصومهم ، وقال أحدهم إنه يود لو استطاع أن ينسب أسنانه في زور لوثر ، وإذ أنه لن يتردد في أن يذهب لتناول العشاء الرباني والدم يلطخ فيه^(١٦) : ورأى الإمبراطور ، وهو لا يزال شاباً ، أن يحمّد الهياج بنشر « إعلان ملصوق » بناء على طلب البابا ، يحرم طباعة مصنفات لوثر أو قراءتها : وفي العام نفسه أمر المحاكم العلمانية بتنفيذ منشور ورمس في سائر أرجاء الأراضي المنخفضة ضد كل من يعرض آراء لوثر . وفي اليوم الأول من يوليو عام ١٥٢٣ أرسل هنري فوس وجوهان إيك ، وهما راهبان أوغسطينيان إلى المحرقة في بروكسل ، فكانا أول شهيدين من البروتستانت في الأراضي المنخفضة : وسجن هنري الزنفيي ، وهو صديق وتلميذ للوثر ، ورئيس الدير الأوغسطيني في أنتورب ، وفر ، 'وقبض عليه في هولستان' وأحرق هناك (١٥٢٤) وكان تنفيذ هذه الأحكام بالإعدام بمثابة إعلان لآراء المصلحين الدينيين ،

وعلى الرغم من الرقابة فإن ترجمة لوثر للعهد الجديد انتشرت على نطاق واسع ، وتداولها الناس في هولندا بحماسة أكثر من الفلاندرز الغنية : وكانت هناك أمنية لإعادة المسيحية إلى بساطتها الأولى ، فنشأ عنها أمل ، بعد مرور ألف عام ، في عودة المسيح مبكراً ، وإنشاء أورشليم الجديدة لا تكون فيها حكومة ، ولا زواج ولا ملكية ، وامتزجت بهذه الأفكار نظريات

سيوعية عن المساواة وتبادل العون بل ودوا الحب الحر^(١٧) ، وتكونت جماعات تنكر التعميد في أنتورب ومانترخت وأمستردام . وجاء ملشيور هوفمان من إمدن إلى أمستردام عام (١٥٣١) وأعاد جون الليلدن عام ١٥٣٤ الزيارة يحمل معه عقيدة المنكرين للتعميد من هارلم إلى منستر . وقدّر أن ثلثي السكان في بعض المدن الهولندية كانوا من المنكرين للتعميد ، بل إن العملة في ديفنتر تحول لنصرة القضية ، وشجعت الحجة الحركة ، فأصبحت ثورة اجتماعية * وكتب صديق لإرازموس عام ١٥٣٤ يقول : إن اشتعال حماسة المنكرين للتعميد في هذه المقاطعات يجعلنا نشعر بقلق بالغ لأنه يتصاعد مثل ألسنة اللهب ولا تكاد توجد بقعة أو مدينة لا تتأجج فيها سراً شعلة التمرد^(١٨) . وحدثت ماري الهنغارية الإمبراطور ، وكانت وقتذاك نائبة له ، من أن الثوار قد وضعوا خطة لانتهاك كل ضروب الملكية من النبلاء ورجال الاكليروس والأرستقراطية التجارية ، وتوزيع الغنائم على كل رجل حسب حاجته^(١٩) . وفي عام ١٥٣٥ أرسل جون الليلدين مبعوثين لتدبير ثورة في نفس الوقت يقوم بها المنكرون للتعميد في عدة محلات هولندية ، وبذل الثوار جهود الأبطال ، فقد استولت جماعة على دير في فريزلاند الغربية ، وحصنته ، وحاصروها الحاكم بالمدفعية الثقيلة ، ومات ٨٠٠ وهم يدافعون دفاعاً لا أمل فيه ، (١٥٣٥) وفي ١١ مايو اقتحم بعض المنكرين للتعميد المسلحين قاعة المدينة في أمستردام واستولوا عليها ، فطردهم سكان المدينة ، ونكلوا بالزعماء ، وانتقموا منهم انتقاماً مُفسَداً من رجال مُفسَدين ، فاسلعت الألسنة ، ومزقت القلوب من أجساد الأحياء ، وألقي بها في وجوه المحتضرين أو الموتى^(٢٠) .

وظن شارل أن ثورة شيوعية تتحدى البناء الاجتماعي بأكمله ، فامتقدم محكمة التفتيش إلى الأراضي المنخفضة ، وخول موظفيها سلطة سحق الحركة وكل المراتبات الأخرى ، مهما قضى ذلك على الحريات المحلية . وأخذ

بين عامى ١٥٢١ و ١٥٥٥ يصدر الإعلان الملصق بعد الإعلان ضد الانقسام بين الطبقات الاجتماعية أو الانشقاق الدينى . وقد كشف أعنف هذه الإعلانات (٢٥ سبتمبر سنة ١٥٥٠) عن تدهور الإمبراطور ، ووضعت الأسس التى قامت عليها ثورة الأراضى المنخفضة ضد ابنه :

لا يحق لأحد أن يطبع أو يكتب أو يفسخ أو يخفى أو يبيع أو يشتري أو يعطى فى الكنائس أو فى الشوارع أو غير ذلك من الأماكن أى كتاب أو رسالة من تأليف مارتى لوثر ، أوجون أو يكولا مباديوس ، أو أولريخ زوينجلي ، أو مارتى بوسر ، أو جون كالفن ، أو غيرهم من الهرطقة ، الذين استهجن أعمالهم الكنيسة المقدسة . . . ولا يحق له أن يحطم أو يؤذى أى صورة أخرى تماثيل العذراء المقدسة ، أو القديسين الذين اعترفت بهم الكنيسة . . . وليس له أن يعقد اجتماعات سرية أو اجتماعات غير قانونية ، أو يحضر أى اجتماع من هذه الاجتماعات ، التى يدعو فيها أنصار الهرطقة المذكورين ويعمدون ويهدرون مؤامرات ضد الكنيسة المقدسة والصالح العام . . . ونحرم نمنع جميع الأشخاص العلمانيين من أن يتحدثوا أو يجادلوا فى أمر يتعلق بالكتب المقدسة جهراً أو سراً . . . أو أن يقرأوا أو يعلموا أو يفسروا الكتب المقدسة ، ما لم يكونوا قد درسوا اللاهوت فى حينه ، أو اعترفت بهم إحدى الجامعات المشهورة ، أو يرحبوا بأى رأى من آراء الهرطقة المذكورين . . . ولا تعرضوا للعقوبات المنصوص عليها فيما يلى . . . الرجال (تقطع رؤوسهم) بالسيف والنساء يذفن أحياء إذا لم يصرون على أخطائهم ، وإذا أصررن عليها فلنهن يعدمن حرقاً ، وفى كلتا الحالتين تصادر أملاكهن كلها لمصلحة القاج .

وتمنع كل الأشخاص أن يفتزلوا عندهم أو يستضيفوا أو يزودوا بالطعام أو الدفء أو الملابس أو يؤيدوا بأية طريقة أخرى أى امرئ يُعتقده أنه هرطيق ، أو يشتبه فى أن له سمعة سيئة كهرطيق ، وكل من يخالف

عن التهديد بأى واحد من هؤلاء الذين تأمر بإدانتهم يكون عرضة للعقوبات المذكورة آنفاً ٢٢٥؛ وكل من يعرف شخصاً موصوماً بالهرطقة يجب أن يبلغ عنه ويسلمه ٢٢٥؛ ويكون للمبلغ ، فى حالة الإدانة ، الحق فى نصف أملاك المتهم ٢٢٥؛ ولكى لا يكون لدى القضاء والموظفين أى ذريعة — بحجة أن العقوبات جسيمة جداً وشديدة ، ولم ينص عليها إلا لإثارة الفرع فى قلوب المجرمين — ليوقعوا عليهم عقوبة أقل مما يستحقون (تأمر) بأن يعاقب المجرمون حقاً بالعقوبات التى أعلننا عنها سابقاً ، ونحظر على جميع القضاة أن يغيروا أو يخففوا العقوبات بأية طريقة ، ونحظر على أى أحد ، فى أى ظرف أن يطالب منا ، أو من أى أحد له سلطة ، أن يمنع عفواً عن ، أو أن يقدم التماس فى صالح ، هؤلاء المهرطقة أو المنفيين أو الهاربين ، وألا تعرض للحكم عليه إلى الأبد بعدم الأهلية لتولى اللوظائف المدنية أو العسكرية ، ولأن يعاقب بعقوبة يقضى بها عليه بطريقة تحكيمية (٢٢٦) .

وعلاوة على هذا كان يطلب من أى شخص يدخل البلاد المنخفضة أن يوقع على تعهد بالولاء للعقيدة المحافظة بحذافيرها (٢٢٧) .

ونحولت الأراضي المنخفضة عن طريق هذه المنشورات اليائسة ، إلى ساحة قتال بين الشكلىين القديم والجديد من المسيحية ، وقدر سفير البندقية فى هلاط شارل أن ٣٠.٠٠٠ شخص ، وهم كل المنكرين للتعميد تقريباً ، هلكوا عام ١٥٤٦ فى هذه المذبحة الإمبراطورية الطويلة (٢٢٨) ، التى قتل فيها الآمنون من المواطنين ، وخفض تقدير آخر أقل إثارة عده الضحايا إلى ١٠.٠٠٠ شخص (٢٢٩) ، وبقدر ما كان الهولنديون المنكرون للتعميد مهتمين ، بقدر ما نجحت محكمة التفتيش الكارولينية ، وظل بقية منهم على قيد الحياة فى هولندا بإبداء عدم المقاومة ، وهرب بعضهم إلى إنجلترا ، حيث أصبحوا من أنصار البروتستانتية اللشطيى فى عهد إدوارد السادس

والإزهاث ، وانهارت الحركة الشيوعية في الأراضي المنخفضة بعد أن روعها الاضطهاد وخنقها الرخاء .

ولكن عندما انحصرت موجة المنكرين للتعظيم تدفق نهر من الهوجينوت المطاردين إلى الأراضي المنخفضة من فرنسا ، وجاء معهم بلانجيل كالفن ، وراقت الحماسة الصارمة القائلة بالحكم الدينى للهرطقة الجديدة ، لمن ورثوا تقاليد المتصوفة وإخوان الحياة المشتركة ، وكان قبول كالفن للعمل باعتباره كرامة بدلاً من أن يعد لعنة ، وللثورة باعتبارها بركة بدلاً من أن تعد جريمة ، وللنظم الجمهورية باعتبارها أكثر موافقة من الملكية للمطامح السياسية لطبقة رجال الأعمال ، يحتوى على أجزاء تلقى ترحيباً متفاوتاً من كثير من العناصر بين السكان . وما إن حل عام ١٥٥٥ حتى كانت هناك جماعات كالفيلية للمصلين في إمبرس وتورناى وفالنسينس وبروجس وغنت وانتورت ، وكانت الحركة تنتشر في هولندا ويرجع الفضل إلى الكالفينية لا إلى اللأثرية ، أو مذهب المنكرين للتعظيم ، في أن ابن شارل سوف يحصر خلال جيل مرير ، في صراع قدر له أن يشطر الأراضي المنخفضة إلى قسمين ، ويحرر هولندا من السيطرة الإسبانية ، ويجعلها موطناً وملجأ من أعظم المواطنين والملاحى للفكر الحديث .

وفي عام ١٥٥٥ طرح شارل الخامس كل أحلامه ما عدا حلمه بأن يموت في طهارة ، وتخلّى عن أمله في قمع البروتستانتية في ألمانيا والأراضي المنخفضة أو مهادنة الكاثوليكية في مجلس ترنت ، وتخلّى عن طموحه في زعامة البروتستانت والكاثوليك والألمان والفرنسيين ، في زحف رائع يقوم به ضد سليمان والتسطنطينية والتهديد التركى للعالم المسيحى . وقد أدى إفراطه في الطعام والشراب والعلاقات الجنسية وحملاته المنهكة وأعباء منصب واجهه صدمة تغير ثورى إلى تحطيم جسده وتبلد سياسته وتحطيم

لإرادته : وكان يشكو من قروح ، وهو في الثالثة والثلاثين ، واكمل في الخامسة والثلاثين وأصيب وهو في الخامسة والأربعين بالنقرس والربو وسوء الهضم والتأتأة ، وكان وقتذاك يقضى نصف وقت يقظته في ألم ، ووجد أنه من الصعب عليه أن ينام ، وكثيراً ما كانت الصعوبة التي يجدها في التنفس تجعله يجلس منتصباً طوال الليل ، وكانت أصابعه مشوهة بداء المفاصل ، إلى درجة أنه لم يكند يستطيع أن يقبض على القلم ، الذي وقع به على صالح كربي . وعندما قدم كوليني رسالة من هنري الثاني « لم يسقط شارل أن يفتحها إلا بصعوبة وقال متسائلاً : « ما رأيك في يا سيدي أمير البحر ؟ ألسنت فارساً رائعاً يستطيع أن يهاجم ويحطم حربة ، أنا الذي لا أستطيع أن أفتح خطاباً إلا بعد مشقة كبيرة ؟ » (٢٢) ولعل قسوته العارضة وشيئاً من الوحشية التي هاجم بها البروتستانتية في ~~البحر~~ المنخفضة ، ترجع إلى نفاق صبيوه بسبب آلامه . وأمر بقطع أقدام الأسرى من الجنود الألمان المرتزقة ، الذين حاربوا في صفوف فرنسا ، على الرغم من أن ابنه الذي قدر له أن يكون فيليب الثاني الصليب الرأى ، طلب لهم الرحمة (٢٣) ، وقد حزن حزناً مريعاً دام طويلاً لوفاة زوجته الحبيبة إيزابلا (١٥٣٩) ، ولكنه سمح في حينه بحضور عذارى لا حول لهن ولا طول إلى غمدعه (٢٤) .

ودعا في خريف عام ١٥٥٥ إلى عقد اجتماع لمجلس الطبقات في الأراضي المنخفضة ، يوم ٢٥ أكتوبر ، واستدعى إليه فيليب من إنجلترا ، وفي قاعة دوقات برابانت الواسعة المغطاة بالسجاد في بروكسل حيث اعتاد فرسان الجزة الذهبية أن يعقدوا اجتماعاتهم ، اجتمع النواب والنبل والحكام من سبع عشرة مقاطعة في نطاق حرس من الجنود المدججين بالسلاح . ودخل شارل يستند على كتف وليام أف أورانج ، الذي قدر له أن يكون عدواً لابنه في المستقبل : وتبعه فيليب مع نائبة الإمبراطور ماري الهنغارية ، ثم أمانويل فيليبرت أف سافوى ، ومستشارور الإمبراطور ، وفرسان الجزة

الذهبية ، وكثير من الأعيان الآخرين الذين أقبلت عليهم الدنيا يوماً قبل أن تنسأهم . وعندما جلس الجميع نهض فيليب وتشرح في إسهاب ووضوح اغتبط لهما شارل ، الأسباب الصحية والعقلية والسياسية التي حدثت بالإمبراطور إلى إبداء رغبته في أن يتنازل عن حكم الأراضي المنخفضة لابنه ، ثم وقف شارل نفسه وهو يتكئ من جديد على أمير أورانج الوسيم فارغ القامة ، وتحدث ببساطة ، وفي صميم الموضوع ، ولخص كيف ارتقى إلى أن بلغ آفاقاً متسعة من السلطان على التعاقب وتحدث عن ذوبان حياته في الحكم . وتذكر أنه زار ألمانيا تسع مرات وإسبانيا ستاً وفرنسا أربعاً وانجلترا وأفريقية مرتين ، وقام بإحدى عشرة رحلة بالبحر واستأنف كلامه قائلاً :

هذه هي المرة الرابعة التي أفكر فيها في الذهاب لإسبانيا من الآن ... ولم يسبق أن جربت شيئاً سبب لي مثل هذا الألم العظيم الذي أشعر به وأنا أفترق عنكم من اليوم دون أن أترك خلفي ذلك السلام والهدوء اللذين طالما رغبت في تحقيقهما ... ولكني لم أعد قادراً على مباشرة شئوني دون أن أشعر بتعب شديد يسرى في بدني ، وبالتالي ألحق بالدولة الضرر ... وإن ما يتطلبه تحمل المسؤولية من اهتمام عظيم ، وما تسببه خور بالغ للعزيمة ، وصحتي التي تدهورت من قبل ، كل هذه لم تعد تترك لي القوة اللازمة للحكم .. وينبغي لي في حالتي هذه أن أقدم لله والإنسان حساباً خطيراً إذا لم أطر السلطنة عن كاهلي ... وأن ابني ، الملك فيليب قد وصل إلى سن تكفي لأن يكون قادراً على حكمكم ، وهو ، كما أرجو ، أمير صانع لكل رعاياي المحبوبين (٢٨) .

وعندما تهالك شارل مثلاً في مقعده نسي الحاضرون خطايا واضطهاده وهزائمه ، رثاء لرجل عمل جاهدأ مدى أربعين عاماً ، حسب ما أملت عليه آراؤه وسمحت به قدرته ، تحت وطأة أنقل الالتزامات في عصره . وبكى كثير من السامعين . ونصب فيليب رسمياً حاكماً للأراضي المنخفضة ، وحلف

يمنية مغالطة (كما سوف يذكر بها فيما بعد) أن يراعى كل القوانين والحقوق التقليدية للمقاطعات : وفي أوائل عام ١٥٥٦ سلم له شارل تاج إسبانيا ، بكل منماكاناته في العالم القديم والعالم الجديد ، واحتفظ شارل باللقب الإمبراطوري ، وكان يأمل أن ينقله لإبنه قريباً ، ولكن فرديناند احتج ، وفي عام ١٥٥٨ تنازل الإمبراطور عن لقبه لأخيه . وسافر شارل بحراً في السابع عشر من سبتمبر سنة ١٥٥٦ من فلشنج إلى إسبانيا .

٦ - إسبانيا

١ - ثورة العامة : ١٥٢٠ - ٢٢

كانت نعمة مشكوكاً فيها لإسبانيا أن يصبح الملك شارل الأول (١٥١٦ - ٥٦) الإمبراطور شارل الخامس (١٥١٩ - ٥٨) ، وولد وتربى في الفلاتدور : وتعلم مناهج الحياة الفلمنكية ، واكتسب الأخلاق الفلمنكية ، إلى أن تغلبت عليه روح إسبانيا في سنواته الأخيرة ، ولم يكن في وسع الملك إلا أن يصبح جزءاً صغيراً من الإمبراطور ، الذي كان مشغولاً تماماً بالإصلاح الديني والبابوية وسليمان وبارباروسا وفرانسيس الأول ، وشكا الإسبان أنه لم يمنعهم إلا القليل من وقته ، وأنه أنفق الكثير من مواردهم البشرية والمادية في المحلات التي كانت في الظاهر لا تهم المصالح الإسبانية . وكيف كان في وسع إمبراطور أن يتعاطف مع نظم جماعية جعلت إسبانيا تتمتع بنصف ديمقراطية ، قبل مجئ فرديناند الكاثوليكي ، وكانت تتوق كثيراً إلى أن تستعيدوها ؟

وقام بأول زيارة لمملكته (١٥١٧) ولم تكسبه حب أحد : وعلى الرغم من مضي عشرين شهراً عليه وهو ملك ، فإنه كان لا يزال لا يعرف الإسبانية وكان عزله لفظاً لا كسيميونس صدمة للدمائة الإسبانية . وجاء يحيط به فلمنكيون ، ظنوا إسبانيا بلداً همجياً تنتظر من يحلها . وعين الملك البالغ من العمر سبعة عشر عاماً هذه الديدان الطبية في أعلى المناصب . ولم تخف المجالس التشريعية الإقليمية المختلفة التي يسيطر عليها صغار النبلاء ، نفورها وعدم رضاها

عن ملك أجنبي • ورفض المجلس التشريعي في قشتالة أن يعترف له باللقب ، ثم اعترف به على كره منه حاكماً ، تشترك معه في الحكم أمه المعتوهة جوانا ، وجعله يفهم أنه لا بد من أن يتعلم الإسبانية ، ويعيش في إسبانيا ، وألا يعين مزيداً من الأجانب في أى منصب ، وقدمت المجلس التشريعية طلبات بمائة ن ووسط مظاهر الإذلال التي تعرض لها شارل تلقى أنباء بأنه انتخب إمبراطوراً ، وأن ألمانيا كانت تدعوه للحضور لكي يتزوج : وعند ما سأل المجلس التشريعي في بلاد الوليسد (وكانت وقتذاك العاصمة) أن يعول الرحلة منى بالمشل والخيبة ، وساد هرج همد حياتهم : وحصل آخر الأمر على المال من المجلس التشريعي في كورونا وأمرع إلى الفلاندرز ، ولكي يجعل الأمور مخفوفة بالمخاطر أضعافاً مضاعفة أرسل نواباً *corregidores* لحماية مصالحه في المدن ، وترك مربيه السابق أدرهان كاردينال أترخت نائباً له في إسبانيا ،

وثارت البلديات الأسبانية واحدة وراء الأخرى في « ثورة أعضاء الكومون » ونفوا النواب الـ *corregidores* وقتلوا بعض النواب الذين صوتوا بالموافقة على منح أموال لشارل ، وتحالفوا فيما يعرف باسم *Santa Comunidad* الذي تعهد بالإشراف على الملك ، وانضم النبلاء ورجال الكنيسة وأوساط الناس إلى الحركة ونظموا في أفبلا (أغسطس سنة ١٥٢٠) الـ *Santa Junta* أو الاتحاد المقدس ليكون بمثابة حكومة مركزية . وطالبوا بضرورة اشتراك المجالس التشريعية مع المجالس المالكية في اختيار نائب الملك ، وعدم شن حرب بغير موافقة المجالس التشريعية ، وألا يحكم المدينة النواب بل يحكمها قضاة ، أو عمد يختارهم المواطنون (٢٩) . ودافع أنطونيو دى أكونيا أسقف سمورة علناً عن قيام جمهورية ، وحول أتباعه من رجال الأكايروس إلى محاربيين ثوريين ، وقدم موارد أسقفية للثورة : وعين جوان دى بادبلا ، وهو نبيل من طليطلة ، قائدا لقوات الثوار : فقادها لتستولى على نورديسيلاس ، وأخذ جوانا لا لوكا رهينة ،

وحشها على أن توقع واقعة ، تخلع فيها شارل ، وتعين نفسها ملكة ، وكانت عاقلة في جنونها ، فرفضت .

ولم يكن لدى أدريان ما يكفي من الجند لقمع الثورة ، فاستعانت بشارل وطلب منه العودة ، وألقى تبعة قيام الثورة صراحة على تحكم الملك وحكمه للغيابي . ولم يحضر شارل ، ولكنه وجد هو أو مستشاروه سهيلاً لإشاعة الانقسام والانتصار ، فقد حذر النبلاء أن الثورة كانت تهديدًا للطبقات أصحاب الأملاك وللتنج على السواء ، والحق أن الطبقات العامة ، التي ظلمت منذ عهد بعيد بالأجور الثابتة ، والعمل مسخرة ، وتحريم الاتحاد ، كانت قد استولت من قبل على السلطة في عدة مدن . وفي بلنسية والمنطقة المحيطة بها قبض الجرمانيا Germania أو إخوة أبناء الطوائف الحرفية على الزمام ، وسيطروا على بلجان للعمال . وكانت هذه الدكتاتورية البروليتارية نقية على غير العادة ، وفرضت على آلاف المغاربة الذين ظلوا في المقاطعة أن يختاروا بين التعميد والموت . وقتل آلاف من الذين رفضوا في عناد (٣٠) ، وثار العامة في ماجوركا ، الذين عاملهم سادتهم كالعبيد ، ثورة مسلحة ، وخلعوا الحاكم المعين من قبل الملك ، وذبحوا كل نهيئ لم يستطع أن يفلت منهم . وتخلت كثير من المدن عن روابطها مع الإقطاعيين ومستحقاتها لهم ، وفي مدريد وسجونزا ووادي الحجارة أقصت الحكومة البلدية الجديدة كل النبلاء والأعيان من المناصب ، وقتل الأشراف هنا وهناك ، وفرض الاتحاد Junta ضرائب على أملاك النبلاء السابق إعفاؤها . وأصبح النهب عاماً ، وأحرق العامة قصور النبلاء وذبح النبلاء العامة ، وانتشر الصراع بين الطبقات في أرجاء إسبانيا .

وقضت الثورة على نفسها بالتوسع في أهدافها ، توسعاً جاوز حدود طاقتها ، وانقلب عليها النبلاء ، وحشدوا قواتهم ، وتعاونوا مع قوات الملك ، واستولوا على بلنسية ، وأطاحوا بالحكومة البروليتارية ، بعد أيام سقط فيها

قتلى من الحالبين (١٥٢١) ، وانقسم جيش الثوار ، عندما بلغت الأزمة ذروتها ، إلى فرقتين متنافستين بقيادة باديلادون بدرو جيرون ، وانقسمت الجماعة السياسية إلى أحزاب ، يناصر بعضها بعضاً العداء ، وواصلت كل مقاطعة ثورتها ، دون تأزيم باقى المقاطعات .

وانطلق جيرون ، وانضم إلى الملكيين الذين استولوا من جديد على كورديسلاس وجوانا . أما جيش باديلادون الذى تضاعف عدد جنوده فقد هزم هزيمة منكرة فى فيلالار ، وأعدم باديلادون . وعندما عاد شارل إلى إسبانيا (يوليو سنة ١٥٢٢) ومعه ٤٠٠٠ جندي ألماني ، كان النبلاء قد فازوا بالنصر ، وقد أضعف النبلاء والعامه بعضهم بعضاً إلى حد أنه استطاع أن يتغلب على الباديئات والطوائف الحرفية ، وپروض المجالس التشريعية ، ويوطد أركان ملكية تكاد تكون مطلقة . وقد قعّت الحركة الديمقراطية تماماً بحيث ظل كل العامة الإسبان خائفين خاضعين ، حتى القرن التاسع عشر . وخفف شارل سلطته بالدماثة ، وأحاط نفسه بالنبلاء ، وتعلم الحديث بلغة إسبانية سليمة ، وسرت إسبانيا عندما علق قائلاً إن الإيطالية هى اللغة اللائقة لكى تتحدث بها النساء ، والألمانية هى لغة الأعداء ، والفرنسية لغة الأصدقاء ، والإسبانية لغة الرب (٢١) .

٢ - البروتستانت الإسبان

لم تكن هنا إلا قوة واحدة تستطيع أن تتحدى شارل - هى الكنيسة - وكان نصيراً للكاتوليكية ، ولكنه مناهض للبابوية : ومعنى ، مثل فرديناند الكاثوليكى ، إلى جعل الكنيسة الإسبانية مستقلة عن البابوات ونجح فى هذا إلى حد أن التعيينات فى مناصب الكنيسة ودخول الكنيسة إبان حكمه كانت فى يديه ، واستخدمت لرفع شأن السياسة الحكومية : ولم تكن هناك حاجة للإصلاح الدينى فى إسبانيا ، كما هو الحال فى فرنسا ؛ لكى تتبع الكنيسة

للدولة . ومع ذلك فإن الحماسة للعقيدة المحافظة الإسبانية ، إبان نصف مدة حكمه ، التي قضاهها في مملكته ، استحثته إلى حد أنه في سنواته الأخيرة لم يكن هناك أمر (باستثناء قوة آل هابسبرج) يهمه أكثر من قمع الهرطقة . وبينما حاول البابوات أن يخففوا من وطأة محكمة التفتيش فإن شارل أيدها حتى وفاته . وكان مقتنعاً بأن الهرطقة في الأراضي المنخفضة كانت تؤدي بها إلى الفوضى والحرب الأهلية ، وصمم على أن يمنع حدوث مثل هذا التطور في أسبانيا

وأخذت محكمة التفتيش الإسبانية سورة غضبها ، ولكنها مدت رقعة اختصاصها القضائي في عهد شارل . فاضطلعت بعء الرقابة على المصنفات ، وقامت بتفتيش كل مخزن للكتب ، وأمرت بإحراق الكتب الموصومة بالهرطقة (٢٢) . واستقصت حالات الانحراف الجنسي وعاقبت عليها : ووضعت قواعد نقاء الدم Limpieza ، التي أغلقت كل طرق التمييز أمام ذرية المتحولين إلى غير دينهم Conversos وكل من عاقبتهم المحكمة . وكانت تنظر إلى المتصوفة نظرة قاسية ، لأن بعض هؤلاء ادعوا أن صلتهم المباشرة بالله أعفقتهم من حضور الصلاة في الكنيسة ، وأضنى آخرون على حالات وجدهم الصوفي طعماً جنسياً مشبوهاً ، وأعلن الواعظ العلماني بدرورويز دى الكراز أن الجماع هو اتحاد بالرب حقاً ، وقال الأخ الراهب فرانيسيسكو أورتيز مفسراً أنه عند ما يرقد مع زميلة متصوفة جميلة فإنه لا يرتكب خطيئة من خطايا المجلس ، بل ينعم بمتعة روحية (٢٣) . وعاملت محكمة التفتيش برفق هؤلاء المتنورين Alumbrados واحتفظت بأقصى إجراءاتها ضد البروتستانت في إسبانيا .

وكما حدث في شمالي أوروبا وقعت مناوشة إرازمية قبل معركة البروتستانت ، وهتف بعض رجال الكنيسة المتحررين استحساناً لانتقادات علماء الإنسانيات لأخطاء رجال الإكليروس ، ولكن إكسيمينيس وآخرين

كانوا قد قوموا من قبل المظالم البارزة أكثر من غيرها ، قبل مجي شارل . ولعل اللوثرية كانت قد تغللت أرض إسبانيا مع الألمان والبلجيكيين المتكلمين بالفلمنكية في الحاشية الملكية . وأدانت محكمة التفتيش ألمانيا في بلنسية عام ١٥٢٤ ، لأنه جاهر بالتعاطف مع لوثر ، وحكم على فلمنكي بالسجن مدى الحياة عام ١٥٢٨ ، لتشككه في المظهر وصكوك الفرن ، وأحرق في المحرقة فرانسييسكو دى سان رومان ، أول من عرف من اللوثريين الإسبان عام ١٥٤٢ ، بينما كان المشاهدون المتحمسون يطعنونه بسيفهم : واعترف جوان ديازاف كوينكا ، الكالفيلية في جينيف ، فاندفع أخوه ألفونسو من إيطاليا ليحول مرة أخرى إلى العقيدة المحافظة ، وعند ما فشل الفونسو عمل على قتله (١٥٤٦) (٣٤) وسجن جوان جيل ، أو أجيديو ، وهو كبير قساوسة متعلم في أشبيلية ، لمدة عام بسبب وعظه ضد عبادة الصور والصلاة للقديسين وفاعلية الأعمال الصالحات في الفوز بالخلاص . ونهشت عظامه بعد وفاته وأحرقت ، وواصل رفيقه كبير القساوسة كونستانينو يونس ديلافويلتى ، دعايته ، ومات في سجون محكمة التفتيش . وأحرق أربعة عشر من زملاء كونستانينو ، ومنهم أربعة رهبان وثلاثة نساء ، وحكم على عدد كبير بعقوبات مختلفة ، ودك البيت الذى اجتمعوا فيه حتى سوى بالأرض .

وتطورت جماعة نصف بروتستانتية أخرى في بلد الوليد ، وهنا تورط نبلاء من ذوى النفوذ ورجال دين من أصحاب الرتب الرفيعة : ووثنى بهم لمحكمة التفتيش ، وقبض عليهم جميعاً تقريباً وحكم عليهم بالإدانة ، وحاول البعض مغادرة إسبانيا فقبض عليهم وأعيدوا . وكان شارل الخامس وقتذاك يستحم في يوستى ، فأوصى بعدم إظهار أية رحمة في معاملتهم ، وقطع رأس النائبين وإحراق من يرفضون التوبة . وفي يوم أحد الثاوث الموافق ٢١ مايو سنة ١٥٥٩ أعدم أربعة عشر من المحكوم عليهم أمام جمع متهملى (٣٥) . وتراجع إليهم عما قالوا إلا واحداً ، وعوملوا برفق ، وقطعت رؤوسهم ، أما أنطوليو

دى هرزوبلو الذى رفض التوبة فقد أحرق حياً . وسمح لزوجته ليونور دى ميزنيروس البالغة من العمر ثلاثة وعشرين عاماً بالسجن مدى الحياة : وبعد أن أمضت عشر سنوات فى السجن ، عدلت عن انكارها لما قالت ، وجاهرت بهرطقتها ، وطابت أن تحرق حية مثل زوجها فأجيب إلى ملتسمها (٣٦) . وعرض ستة وعشرون آخرون من المتهمين للحرق أحياء فى اليوم الثامن من أكتوبر سنة ١٥٥٩ ، أمام حشد مكون من ٢٠٠٠٠ شخص ، يرأسه فيليب الثنى : وحرقت ضحيتان وهما حينان وخنق عشرة :

وكان بارتلوى دى كارانزا ، رئيس أساقفة طليطلة ورئيس أساقفة إسبانيا ، أشهر فريسة وقعت فى براثن محكمة التفتيش فى هذه الفترة . وكان باعتباره من الدومينيكان قد قام بنشاط كبير فى مطاردة الهرطقة والإيقاع بهم ، وعينه شارل مبعوثاً له فى مجلس ترنت ، وأرسله إلى إنجلترا لحضور زواج فيليب والملكة مارى . وعندما انتخب رئيساً للأساقفة (١٥٥٧) كان الاختيار بالإجماع ما عدا صوته . ولكن بعض « البروتستانت » الذين قبض عليهم فى بلد الوليد شهدوا بأن كارانزا كان قد تعاطف سراً مع آرائهم ، ووجد أنه كان قد راسل المصلح الدينى الإسبانى الإيطالى جوان دى فالدريس ، واتهمه عالم اللاهوت ذو النفوذ ملشيور كانو بأنه كان يعضد العقيدة اللوثرية فى التزكية بالإيمان : ولم يقبض عليه إلا بعد سنتين من ارتفاع شأنه ووصوله إلى أعلى منصب كنسى فى إسبانيا ، ونستطيع أن نحكم من هذا على مدى قوة محكمة التفتيش . وظل سبعة عشر عاماً معتقلاً فى سجن أو غيره ، بينما كانت تصرفاته فى حياته ورسائله تتعرض للفحص والاستقصاء فى طليطلة وروما . وأعلن جريجورى الثالث عشر أنه « مشتبه فيه بشدة » بالهرطقة وأمره بأن ينكر ستة عشر ادعاء ، وأوقفه لمد خمس سنوات عن مباشرة وظيفته : وتقبل كارانزا الحكم فى ذلة ، وحاول أن

بوذى الكفارات التى قرضت عليه ، ولكنه مات فى خلال خمسة أسابيع بعد أن أنهكه السجن والإذلال (١٥٧٦) •

وبموته زال خطر البروتستانتية عن إسبانيا ، وحدث أن أعدم حوالى ٢٠٠ شخص بين عامى ١٥٥١ و ١٦٠٠ ، لما نسب إليهم من هرطقات بروتستانتية — أى بواقع أربعة أشخاص كل عام . وقد تجمد طبع الناس ، الذى كان قوامه من كراهية المغاربة واليهود ، التى تأصلت جذورها قروناً طويلة ، فى عقيدة محافظة لا تنزعزع ، وامتزجت الكاثوليكية وحب الوطن ، ووجدت محكمة التفتيش أن من اليسير أن تسحق ، فى خلال جبل أو جيلين ، المغامرة الإسبانية العابرة التى اتسمت بفكر مستقل .

٣ — الإمبراطور يموت : ١٥٥٦ — ٥٨

قام شارل الخامس فى الثامن والعشرين من سبتمبر سنة ١٥٥٦ بالدخول إلى إسبانيا لآخر مرة . واستغنى فى برجوس عن خدمات معظم الذين كانوا قد عملوا معه ومنحهم مكافآت ، وودع شقيقته ، ماري الهنغارية واليونورا ، أرملة فرانسيس الأول ، وأبدىا رغبتهما فى مشاركته اعتزاله فى الدير ، ولكن القواعد منعتهما ، فاتخذتا لهما مسكناً فى موضع لا يبعد كثيراً عن هذا الشقيق الذى يبدو أنه لم يكن هناك من يحبه وقتذاك سواهما . وبعد أن أقيمت له عدة احتفالات فى الطريق ، وصل قرية جوانديلا فى وادى هلازنسيا ، على مسيرة نحو ١٢٠ ميلاً غربى مدريد . وابث هناك عدة شهور ، ريثما أكمل العمال الحجرات التى أمر بتجهيزها وتأثيثها فى دير يوستى (سانت جوستوس) على مسيرة ستة أميال . وعندما قام بالمرحلة الأخيرة من رحلته (٣ فبراير سنة ١٥٥٧) ، لم ينتقل إلى خلوة فى دير بل إلى قصر رينى فسبح ، اتسع لإقامة المقربين من تابعيه الخمسين . وابتجج الرهبان بوجود ضيف عظيم مثله ، بيد أنهم اكتأبوا عندما

وجدوا أنه ليس لديه الذئبة في أن يشاركهم هميتهم ونظامهم ، فقد كان يأكل ويشرب كميات كبيرة ، كما كان يفعل من قبل - أى بإفراط ه وكانت عججات السردين وسجق الاسترمدورا وفطائر ثعبان السمك ، ولحم الحجل المملح والديوك الخصىة السمينة وأنهار من النيزد والجمعة ، تخفى في كرشه الإمبراطورى ، واضطر أطباؤه إلى أن يصفوا له كميات كبيرة من السنامكى والراوند للتخلص من الزيادة في وزله :

وبدلاً من أن يتلو شارل تسايحه وأوراده ومزاميره كان يقرأ رسائل من ابنه أو يعلى رسائل له ، وكان يعرض عليه النصيحة في كل وجه من وجوه الحرب واللاهوت والحكم ه وأصبح في العام الأخير من عمره متعصباً متطرفاً قاسياً ، وأوصى بتوقيع عقوبات وحشية « لاستئصال جذور » الهرطقة ، وأسف لأنه كان قد سمح للوثر بالحرب منه في ورمس . وأمر يجلد أى امرأة مائة جلدة إذا اقتربت من أسوار الدير قاب قوسين أو أدنى (٣٧) ه وراجع وصيته لكنى ينص فيها على إقامة ٣٠٠٠٠ قداس من أجل طمأنينة روحه : ويجب ألا نهكم عليه من أعماله في أيام الشيخوخة هذه ، ولعل لوثة خول قد انتقلت إليه بالوراثة من أمه .

وفي أغسطس عام ١٥٥٨ انقلب النقرس الذى يشكو منه إلى حمى ملتهبة . وعادونه هذه بصورة متقطعة ، وأخذت تشتد يوماً بعد يوم ، وظل شهراً يتعذب بكل آلام النزاع الأخير قبل أن تزهد روحه (٢١ سبتمبر سنة ١٥٥٨) : وفي عام ١٥٧٤ أمر فيليب بنقل الجثة إلى الاسكوريال حيث يوقد تحت نصب تذكارى فخم .

وكان شارل الخامس أكبر فاشل في عصره ، بل إن فضائله كانت أحياناً بؤساً وشقاء للإنسانية . ومنح إيطاليا السلام ، ولكن لم يتم هذا إلا بعد مرور عقد من الزمان ، تعرضت فيه للتخريب ، وبإخضاعها

هى والبابوية لإسبانيا ، وجف عود النهضة الإيطالية تحت رئاسته
الكثيية ، وهزم فرانسييس وأسره ، ولكن ضاعت منه فى مدريد فرصة
ملكية ليبرم معه معاهدة كانت حرية بأن تنقذ ماء كل الوجوه ومائة ألف
روح ، وعاون فى إعادة سليمان إلى بلاده فى فيينا ، وصدد بربروسا فى
البحر الأبيض المتوسط ، وقوى مركز آل هابسبورج ، ولكنه أضعف
الإمبراطورية ، وفقد اللورين وسلم بورغنديا ، وأحبط أمراء ألمانيا
محاولة لتكيز السلطة هناك ، وكانت الإمبراطورية الرومانية المقدسة منذ
عهد نسيجاً واهياً ، تلتظر نابليون ليحكم بإعدامها . وفشلت جهوده
لسمحق البروتستانتية فى ألمانيا ، وترك الأسلوب للذى انتهجه فى قمعها فى
الأراضى المنخفضة تراثاً محزناً لابنه ، وكان قد وجد المدن الألمانية مزدهرة
وحرة ، وتركها ترزح ألماً تحت وطأة إقطاع رجفى . وعندما جاء إلى
ألمانيا كانت تفيض بالحياة ، فيها أفكار ونشاط تبرز بها أية أمة أخرى
فى أوروبا وعندما تنازل عن هرشه كانت ضعيفة واهنة روحياً وفكرياً ،
وظلت جدياء مدى قرنين . وكانت السياسة التى انتهجها فى ألمانيا وإيطاليا
سبباً واهياً لما لحقهما من ضعف ، أما فى إسبانيا فكان عمله هو الذى سحق
حرية البلديات وقوتها . وكان حرياً بأن يبقى إنجلترا فى حظيرة الكنيسة
بإقناع كاثرين أن تسلم بحاجة هنرى إلى وريث ، وبدلاً من أن يفعل
فلك أجبر كليمنت على اتخاذ موقف فيه تبدل ، يودى إلى الخراب .

ومع ذلك فإن استبصارنا المتأخر هو الذى يرى أخطاءه وجسامتها ،
وفى وسع حسنا التاريخى أن يصفح عنها باعتبارها معاصرة بجلورها فى قيود
بيئته العقلية وفى أوهام العصر العاتية . وكان أقدر سياسى بين معاصريه ،
ولكنه لم يكن كذلك إلا بمعنى أنه عالج بشجاعة أعمق موضوعات النزاع
فى أوسع مدى وصلت إليه . وكان رجلاً عظيماً حطت من شأنه مشكلات
عصره وحطمته .

ونفذت إلى حكمه الطويل حركتان أساسيتان : وكانت أعظمهما نمو
القومية في عهد ملكيات تنزع إلى المركزية ، وفي هذه لم يكن له فيها
لصيب . وأعظمها من الناحية الدرامية ثورة دينية ، حفزت إليها الانقسامات
والمصالح القومية والإقليمية : وقبلت شمالى ألمانيا واسكندنافيا اللوثرية ،
أما جنوب ألمانيا وسويسرة والأراضي المنخفضة فقد انقسمت إلى طائفتين
بروتستانتية وكاثوليكية ، وأصبحت إسكوتلندا كالفيلية مشيخية ، وإنجلترا
كاثوليكية إنجيليكانية أو بيوريتانية كالفيلية : وظلت إيرلندا وفرنسا
ولايطاليا وإسبانيا والبرتغال موالية لبابوية بعيدة أو مهيمنة . ومع ذلك نشأ
تكاملاً واه ، وسط ذلك الانقسام المزدوج : فقد وجدت الولايات المستقلة
المعتزة بنفسها أنها في حاجة إلى بعضها البعض ، لضمان استقلالها ، كما لم
يحدث من قبل ، وأنها مرتبطة بصورة متزايدة في نسيج اقتصادي ، وأنها
تؤلف مسرحاً رحباً لمناهج سياسية متشابكة العلاقات ، وحروب وقانون
بأدب وفن . كانت أوروبا التي عرفها شبابنا تتخذ شكلها .

المراجع

NOTES

مراجع فصل ٢١ من الجزء الرابع والعشرين

CHAPTER XXI

1. Cath. En. III, 196.
2. Beza in Schaff, *Swiss Ref* 302.
4. Calvin *Institutes*, Preface, 20-2, 39-40.
5. *Institutes*, I, viii, 1.
6. Ibid., II, v., 19.
7. Ephesians, i, 3-7.
8. *Institutes*, III, xxi-xxii.
9. Romans, ix, 15.
10. *Institutes*, II, xxi, 7.
11. Consensus Genevensis in Schaff. *Swiss Ref.*, 554.
12. *Institutes*, III, xxi, 1.
13. Ibid.
14. III, xxiii, 7.
15. IV, i, 10.
16. IV, i, 4.
17. Allen, *Political Thought*, 61; Hearnshaw, *Thinkers of the Renaissance and the Reformation*, 211.
18. *Institutes*, IV, xix, 3.
19. III, xxi, 1.
20. Schaff, 558.
21. *Institutes*, III, ix, 4.
22. Ibid.
23. III, ix, 6.
24. For : La Tour, IV, 32, and *Camb. Mod. Hy*, II, 258 ; against : Cath. En., III, 196a.
25. *Camb. Mod. Hy*, II, 360.
26. Robinson, *Readings*, 299.
27. Schaff, 361.
28. Ibid., 414.
29. 412.
30. 426.
31. 437.
32. Robinson, *Readings*, 300.
33. La Tour, IV, 178.
34. Villari, *Savonarola*, 491.
35. Schaff, 492.
36. Beard, *The Reformation*, 250.
37. Ibid., Schaff, 491.
38. Ibid., 492.
39. O'Brien, *Economic Effects*, 101.
40. As by Weber, Max, *The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism*, passim; Barnes *Economic Hy of the Western world*, 201-2; and O'Brien, 124.
41. *Institutes*, III, vii, 5.
42. Cf. O'Brien, 100.
43. Ibid., 20.
44. Tawney, 119.
45. Barnes, *Economic History*, 201.
46. Schaff, 644.
47. Beard, *The Reformation*, 252; Mulr, *John Knox*, 108.
48. Smith, *Reformation*, 174.
49. Schaff 519.
50. Ibid., 839.
51. La Tour, IV, 206.
52. Schaff, 739.
53. La Tour, IV, 200 ; Schaff, 594.

54. Schaff, 618.
55. Ibid., 502.
56. Robertson, J.M. *Freetbought*, I, 443-4.
57. Servetus, *De Trinitatis erroribus*, i, 94b. in Bainton, *Hunted, Heretic*, 48.
58. Servetus, *ibid.*, i, 34; Newman, L. I., *Jewish Influence on Christian Reform Movements*, 584.
59. Bainton, *Hunted Heretic*, 144.
60. Ibid.
61. Ibid., 147.
62. Schaff, 733.
63. Bury, J. B., *History of Freedom of Thought*, 64.
64. Schaff, 770.
65. Ibid., 764, 773; Bainton, 191.
66. Bainton, 188.
67. Schaff, 777.
68. Ibid., 778.
69. Bainton, 185.
70. Ibid., 209-11; Schaff, 710, 781-4.
71. Schaff, 784.
72. Walker, *John Calvin*, 425.
73. Schaff, 707-8.
74. Ibid.
75. 709.
76. In Allen, *Political Thought*,
77. Castellio in Allen, 90-4; Haydn, *Counter-Renaissance*, 104.
78. In Allen, 98.
79. *Time* magazine, Feb, 22, 1954.
80. Schaff 652n.

CHAPTER XXII

1. In Lacroix, *Prostitution*; II 1142.

2. Ibid., 1141.
3. 1130.
4. Taylor, R., *Leonardo*, 444.
5. Sichel, *Catherine de' Medici and the French Reformation*, 38.
6. Erasmus, *Colloques*, II, 54.
7. Erasmus, *Epistles*, II, 468.
8. Michelet, III, 175.
9. E.g., Aretino, *La cortigiana*, in *Dialogues*, 228.
10. Batiffol, *Century of the Renaissance*, 44.
11. Lacroix, *Prostitution*, II, 1131.
12. Cellini, *Autobiography*, II, 10.
13. Guizot, *History of France*, III, 81.
14. Ibid., Michelet, III, 218.
15. Michelet, III, 148.
16. Sichel, *Women and Men of the French Renaissance*, 87.
17. Ibid.
18. Michelet, III, 135.
19. Sichel, *Women*, 193.
20. Faguet, *Literary History of France*, 281.
21. Margaret, Queen of Navarre, *Heptameron*, xli.
22. In Maulde, 354.
23. Margaret, *Heptameron*, 36.
24. In Maulde, 53.
25. Ibid., 297.
26. In Sichel, *Women*, 19.
27. Ibid., 371.
28. 180.
29. Boyd, *French Renaissance*, 25.
30. Sichel, *Catherine de' Medici and the French Reformation*, 138.
31. Sichel, *Women*, 104.
32. Michelet, III, 136.
33. *Damb. Mod. Hy*, I, 659.
34. Ibid.

35. Lacroix, *Prostitution*, II, 1247.
36. Margaret, *Heptameron*, Tale 22.
37. Ibid., xlii.
38. In Guizot, III, 187.
39. Ibid., 196.
40. 197.
41. Roeder, *Catherine de' Medici*, 54.
42. La Tour, II, 237 f.
43. Michelet, III, 216.
44. Guizot, III, 216.
45. Schaff, *Swiss Reformation*, 320.
46. Ibid., 320 ; La Tour, II, 556-7.
47. Sichel, *Women*, 18.
48. Guizot, III, 220.
49. La Tour, II, 612.
50. Micheler, III, 319 ; Guizot, III, 229 ; *Camb Mod. Hy*, II, 289.
51. Guizot, III, 15.
52. Ibid., 73.
53. Ibid., 91 : Michelet III, 239.
54. Guizot, III, 95.
55. Ibid., 91.
56. Michelet, III, 244.
57. Robertson, W., *Charles* 538.
58. Guizot, III, 105-6.
59. Ibid., 116.
60. *Camb. Mod. Hy*, III, 105.
61. Guizot, III, 129 ; Robertson, *Charles V*, II, 57-60.
62. Michelet, III, 316 ; *Camb. Mod. Hy*, II, 77.
63. Janssen, VI, 358.
64. Michelet, III, 293-4.
65. Hackett, *Francis I*, 428.
66. Brantôme in Guizot, III, 192.
67. Sichel, *Catherine*, 51.
68. D'Orliac, *The Moon Mistress*, 186.
69. Janssen, VI, 359.
70. Michelet, III, 366.
71. Guizot, III, 281.
72. Pastor, XII, 486.
73. Batiffol, 175.
74. Robertson, *Charles V*, II, 351.
75. Guizot, III, 261.

CHAPTER XXIII

1. Pollard, *Henry VIII*, 39.
2. Froude, *Erasmus*, 142.
3. Chambers, *Thomas More*, 99.
4. Erasmus, *Epistles* I, 457.
5. Froude, *Henry VIII*, I, 30 ; Ep. 447 in Froude, *Erasmus*, 107.
6. Seebohm, *Oxford Reformers* 261-6.
7. Erasmus, *Epistles*, II, 546.
8. Guicciardini, VIII, 126.
9. Pollard, 67.
10. Creighton, *Cardinal Wolsey*,
11. Gasquet, *Aenry VIII and the English Monasteries*, I, 69.
12. Robinson, J. H., *Readings*, 303.
13. Burnet, *History of the Reformation*, I, 6.
14. Chambers, *More*, 158; Hugghes, *Reformation*, I, 80.
15. Ibid.
16. Creighton, *Wolsey*, 59.
17. Burnet, I, 15.
18. Lingard, IV, 192.
19. Robinson, *Readings*, 303.
20. Pollard, 110.
21. Robinson, I. c.
22. Lingard, IV, 193 ; Chamb-

- ers, *More*, 173-4 ; Hughes, 1, 109.
23. Froude, *Henry VIII*, 1, 60 ; but cf. Hughes, 1, 58 f.
24. Hughes, 1, 103n.
25. Belloc, *How the Reformation Happened*, 117.
26. Seebohm, 203-46.
27. Coulton, *Panorama*, 718.
28. Froude, *Henry VIII*, 11, 114-5.
29. Hughes, 1, 49-50.
30. Froude, 1, 350.
31. Hughes, 1, 50-66.
32. Oasquet, *Monasteries*, 11, 237 ; Trevelyan, *English Social Hy*, 73.
33. Ibid.
34. Hughes, 1, 57-8.
35. Coulton, *Panorama*, 554.
36. Hughes, 1, 150.
37. Ibid., 127-9.
38. 202.
39. Smith, *Luther*, 193.
40. Coulton, *Life in the Middle Ages*, 11, 143; Gasquet, *Eve*, 213.
41. *Camb. Mod. Hy*, 1, 640.
42. Beard, *Reformation*, 305.
43. Ibid.
44. Hughes, 1, 146.
45. Froude, 1, 319, 336.
46. Burnet, 1, 16.
47. Gasquet, *Monasteries*, 1, 85-8.
48. Froude, 1, 81.
49. Burnet, 1, 26.
50. Hughes, 1, 67-70.
51. Pollard, 174.
52. Burnet, 1, 27.
53. Pollard, 76, 176.
54. Froude, 1, 74n.
55. Pollard, 183.
56. Ibid., 135.
57. Froude, *Divorce of Catherine of Aragon*, 47.
58. Pastor, X, 241.
59. Froude, *Divorce*, 47.
60. *Camb. Mod. Hy*, 11, 431.
61. Pastor, X, 244.
62. Pollard, 207.
63. Ibid., 208.
64. Pastor. X, 257-8 ; Hughes ; 1, 175-9; Acton, 139.
65. Hughes, 1, 176.
66. Pastor, X, 267.
67. Pollard, 225.
68. Burnet, 1, 55.
69. Froude, *Reign, of Elizabeth III*, 259.
70. Froude, *Divorce*, 190.
71. Hughes, 1, 181.
72. Oavendish, *Life of Wotsey*, in Froude, *Henry VIII*, 111, 115.
73. Creighton, *Wolsey*, 186.
74. Pollard, 223-4.
75. Creighton, 185.
76. Burnet, 1, 61.
77. Creighton, 194.
78. Froude, *Divorce*, 138.
79. Creighton, 205.

CHAPTER XXIV

1. Froude, *Divorce*, 166, 81.
2. Pollard, 250-1.
3. Trevelyan, *Social Hy*, 102.
4. Pollard, 237.
5. Froude, *Henry VIII*, 1, 128-35.
6. Ibid., 139.
7. 162.
8. Sichel, *Women*, 176.
9. Lingard, IV, 273.

10. Prescott, H. F., *Mary Tudor*, 38.
 11. Schuster, M. L., *Treasury of the World's Great Letters*, 77.
 12. Froude, *Henry VIII*, I, 218.
 13. Ibid., 265.
 14. Pollard, 187.
 15. Ibid., 300.
 16. Gasquet, *Monasteries*, I, 122, 129, 134 f.
 17. Pollard, 304-5.
 18. Chambers, *More*, 323. 326; Lingard. IV, 19.
 19. Froude, *Henry VIII*, II, 82.
 20. Burnet, I, 123 5.
 21. Erasmus, *Epistles*, II, 186.
 22. Pollard, 305; Froude, *Council of Trent*, 116-7.
 23. Chambers, *More*, 334.
 24. Prescott. *Mary Tudor*, 60.
 25. Roper, *More*, 46.
 26. Hughes, I, 345.
 27. Cf., e.g., Chambers, *More*,
 28. Erasmus, *Epistles*, II, 427.
 29. Jusscrand, *Wayfaring Life*,
 30. Froude, *Erasmus*, 103-7 ; Chambers, *More*, 75.
 31. Chapiro, 36.
 32. Erasmus, *Epistles*, II, 423.
 33. Chambers,
4. More, *Utopia*, 168.
 35. Ibid., 213.
 36. 247.
 37. Ibid.
 38. 303.
 39. 322-5.
 40. 323.
 41. 320.
 42. 335.
 43. 290-1.
 44. 215, 347, 209.
 45. 178-9.
 46. 343-4.
 47. Froude, *Henry VIII*, I, 347.
 48. Chambers, *More*, 276.
 49. Ibid., 281.
 50. Cf. Coulton, *Panorama* 709.
 51. More, *English Works*, 586, in Taylor, *Thought and Expression*, II, 68.
 52. Roper, 89.
 53. Ibid., 109.
 54. Hearnshaw, *Thinkers of the Renaissance*, 146.
 55. Roper, 126.
 56. Chambers, *More*, 349.
 57. Froude, *Henry VIII*, II, 95.
 58. Erasmus, Letters of Aug. 24 and 31, 1535.
 59. Roper, 127.
 60. Chambers, 277.
 61. Burnet, I, 143.
 62. Presoti, *Mary Tudor*, 50 ; Ponard 304.
 63. Froude, *Henry VIII*, II, 142.
 94. Burnet, I, 143.
 65. Prescott, *Mary*, 70.
 66. Pollard, 343.
 67. Ibid.
 68. Froude, *Henry VIII*, II, 159.
 69. Lingard, V, 37,
 70. Froude, II, 171.
 71. Pollard, 346.
 72. Ibid., 305.
 73. Froude, *Henry VIII*, III, 26n.
 74. Ibid., II, 204.
- CHAPTER XXV
1. C. R. Beazley in Traill, *Social England*, III, 49.
 2. Gasquet, *Eve*, 397-0.
 3. Montesquieu, *Spirit of Laws*, xii, 10.
 4. Froude, *Henry VIII*, II, 116.

5. Ibid, 240.
6. Pollard, 337; Gasquet, *Monasteries*, I, 254-336.
7. Pollard, 339.
8. Froude, II, 119-26.
9. Ashley, *Economic Hy*, II, 213.
10. Gasquet, I, 341-3.
11. Ibid., 291-5.
12. Froude, II, 240.
13. Gasquet, II, 82.
14. Ibid., II, 82.
15. Froude, II, 56.
16. Gasquet, I, 363; II, 33, 323.
17. Ibid., II, 336-7, 438.
18. Hughes, I, 328.
19. Gasquet, I, 447-8.
20. Traill, III, 129.
21. Salzman, *English Industries*, 232; *Camb. Mod. Hy*, II, 467.
22. Lecky, *Rationalism*, II, 126; Ashley, II, 316; Trevelyan, *Social Hy*, 112.
23. Traill, III, 128.
24. D'Alton, E. A., *Hy of Ireland*, II, 382-7; Joyce, *Short Hy of Ireland*, 317.
25. D'Alton, 530 f.; Froude, *Henry VIII*, III, 166.
26. Pollard, 438.
27. Froude, III, 280.
28. Pocock in *English Historical Review*, Vol. X, p, 421.
29. Froude, III, 280.
30. Id, I, 363.
31. III, 23-4; Pollard, 399-1.
32. Lingard, V, 73-4; Pollard, 400; Froude, III, 104.
33. Froude, *Edward VI*, 68.
34. Ashley, II, 351.
35. Froude, *Edward VI*, 69.
36. Froude, *Henry VIII*, I, 52-3; II, 137; Traill, III, 250; Marx, *Capital*, I, 806.
37. Trevelyan, *Social Hy*, 137.
38. Froude, *Henry VIII*, I, 16n.
39. Rogers, J., *Six Centuries of Work and Wages*, 78.
40. Hughes, I, 29.
41. Traill, III, 127.
42. Hughes, I, 159.
43. Lingard, V, 61.
44. Pollard, 403.
45. Lingard, V, 76.
46. Lees-Milne, *Tudor Renaissance*, 21.
47. Froude, *Henry VIII*, III, 281-2.
48. Ibid., 402.
49. *Camb. Mod. Hy*, II, 459; Traill, III, 65.
50. In Coulton, *Medieval Village*, who disagrees. Cf. Froude, *Henry VIII*, I, 43.
51. Rogers, 79 f.

CHAPTER XXVI

1. Stow's *Chronicle*, in Froude, *Edward VI*, 21.
2. Ibid., 34.
3. Hughes, II, 162; *Camb. Mod. Hy*, II, 400-1.
4. Rogers, 89.
5. Froude, *Edward*, 165.
6. Ibid., 183; Prescott, *Mary Tudor*, 25.
7. Hughes, II, 192-3.
8. Robertson, *Freethought*, I, 459.
9. Froude, *Edward*, 98-101.
10. Ibid., 163.
11. *Camb. Mod. Hy*, II, 502.
12. Froude, *Edward*, 156.

13. Ibid., 278.
14. Ibid.
15. 163.
16. 176; Lingard, V, 228.
17. Froude, 176.
18. Ibid., 209.
19. *Camb. Mod. Hy*, II, 301.
20. Froude, 226.
21. Cf. Prescott. *Mary Tudor*,
17.
22. En. Brit., XIV, 1001.
23. Chapuys in Prescott, 50, 54.
24. Ibid.
25. En. Brit., XIV, 1000b.
26. Prescott, 122.
27. Ibid., 209.
28. Pastor, XIV, 399.
29. Froude, *Mary Tudor*, 44.
30. Prescott, 191-2.
31. Ibid., 194.
32. 196.
33. Froude, *Mary Tudor*, 66.
34. Hughes, I, 18.
35. Froude, 56.
36. Ibid., 50.
37. 56.
38. Prescott, 285.
39. Ibid., 274.
40. 266.
41. 284.
42. 315.
43. Frude, 325.
44. Prescott, 325.
45. Lingard, V, 230.
46. Prescott, 206.
47. Ibid., 302.
48. 304.
49. Pastor, XIV, 360.
50. Froude 119.
51. Prescott, 307.
52. *Camb. Mod. Hy*, II, 543.
53. Froude, 110.
54. Prescott, 311.
55. Foxe, *Acts and Monuments*,
I, 231 f; Maitland, S. R.,
Essays on the Reformation,
409; Smith, *Reformation*,
586, Lee, Sidney, *Dictionary
of National Biography*,
XX, 146.
56. Hughes, II, 258-9.
57. Froude, *Mary Tudor*, 199.
58. Lingard, V, 231.
59. Pastor, XIV, 370.
60. Froude, 202.
61. Ibid., 233.
62. Foxe, VIII, 82-3.
63. Ibid., 88.
64. 90.
65. Froude, 235.
66. Beard, *Reformation*, 182.
67. Hughes, II, 198.
68. Hume, *Spain: Its Greatness
and Decay*, 117.
69. Prescott, 332.
70. Ibid., 381.
71. 390.

CHAPTR XXVII

1. Cf. Buckle, *Hy of Civilizat
ion*, II, ch, ii.
2. Ibid., I, 150; Belloc, *How
the Reformaion Happened*,
188.
3. Ibid., 189.
4. Lang, *Hy of Scotland*, 425.
5. Froude, *Elizabeth*, I, 73.
6. Knox, *Hy of the Reformaion*,
Introd, by W.C. Dickinson,
xvii,
7. Lang, I, 300.
8. Ibid., 470.
9. Froude, *Henry VIII*, III,
298.

10. *Ibid.*, 295, 300.
11. Knox, *History*, I, 76.
12. *Ibid.*, 78.
13. 8.
14. 55.
15. Lang, I, 484.
16. Knox, I, 84-5.
17. Muir, *Knox*, 119.
18. *Ibid.*, 133.
19. 120.
20. 202.
21. Froude, *Elizabeth*, I, 257.
22. Allen, *Political Thought*, 110.
23. Knox, *History*, Introd, lxxiii; Muir, 67.
24. Knox, I, 194 and note 2.
25. Knox, Introd., xiv; cf, Muir, 300.
26. Muir, 157.
27. Lang, II, 37.
28. Knox, II, 18.
29. *Ibid.*, 4.
30. I, 6.
31. Knox, Introd., xli.
32. *Ibid.*, xxxix.
33. Knox, *Works*, IV, 365, 373-7.
34. *Ibid.*, 418-20.
35. Knox, *Book of Discipline*, in Allen, *Political Thought*, 113n.
36. *Ibid.*, 113; Lecky, *Rationalism*, II, 16.
37. Knox, Introd., xlii, and Allen, 113.
38. In Muir, 142.
39. *Ibid.*, 148-9.
40. Lang, II, 45.
41. Knox, I, 161-2.
42. *Ibid.*
43. 163.

44. Lang, II, 51-3.
45. Knox, I, 164.
46. *Ibid.*, 171-2.
47. 182; Lang, II, 54-5.
48. Knox, I, 191.
49. Knox, II, Appendix VI.

CHAPTER XXVIII

1. *Camb. Mod. Hy*, II, 602; En. Brit., VII, 210a.
2. Watson, P. B., *Swedish Revolution under Gustavus Vasa*, 123.
3. *Ibid.*, 162.
4. 169.
5. Horn, *Literature of the Scandinavian North*, 147.
6. In Lednicki, *Life and Culture of Poland*, 107.
7. Kesten, *Copernicus*, 144.
8. *Camb. Hy of Poland*, I, 322-4.
9. *Ibid.*, 329.
10. Lützow, *Bohemia*, 206n.
11. Tawney, 75.
12. Blok, II, 332.
13. *Camb. Mod Hy*, II, 63; Taine, *Lectures on Art* 272.
14. Pirenne, H., *Belgian Democracy*, 218.
15. Motley, J. L., *Rise of the Dutch Republic*, I, 101.
16. *Smith Reformation*, 240.
17. Blok, II, 314.
18. In Kautsky, 283.
19. Smith, 244.
20. Kautsky, 285 f.; Rankz, 75 f.
21. Motley, I 222-5.
22. Smith, 245.
23. Draper, J. W., *Intellectual Development of Europe*, II, 226.

24. Smith, 245.
 25. Armstrong, *Charles, V*, II, 382-3; Robertson, *Charles V*, II, 137; Michelet, III, 293.
 26. Ibid., 363.
 27. 349.
 28. Robinson, *Readings*, 317-9.
 29. Altamira, *Hy of Spanish Civilization*, 135.
 30. Hume, *Spanish People*, 222-3.
 31. Vernadsky, O., *Kievau Russia*, 243.
 32. Wilkins, *Spanish Protestantism in the 16th Century*, 19.
 33. Lea, *Inquisition in Spain*, IV, 8-12.
 34. Wilkins, 26; *Camb. Mod. Hy*, I, 403.
 35. Lea, IV, 431-8.
 36. Ibid., 441.
 37. Prescott, W. H. in Robertson, *Charles V*, II, 648.
-

فهرس الجزء الرابع من المجلد السادس

صفحة

الفصل الثاني والعشرون : فرانسيس الأول والإصلاح الدينى فى

فرنسا (١٥١٥ - ٥٩) ١٠٥

١ - الملك الأنف الكبير ١٠٥

٢ - فرنساقى عام ١٥١٥ ٥٤

٣ - مرجريت أميرة ناغار ١١٥

٤ - للفرسبون البروتستانت ١٩٠

٥ - هابسبورج وقالوا (١٥١٥ - ٢٦) ٢٨

٦ - الحرب والسلام (١٥٢٦ - ٤٧) ٣٨

٧ - ديهان دى هواتيه ٤٨

الفصل الثالث والعشرون : هنرى الثامن والكاردينال ولزى ٥٧

١ - ملك واعد (١٥٠٩ - ١١) ٥٢

٢ - ولزى ٦٠

٣ - ولزى والكنيسة ٦٧

٤ - طلاق الملك ٧٩

الفصل الرابع والعشرون : هنرى الثامن وتوماس مور

(١٥٢٩ - ٣٥) ٩٢

١ - برلمان الإصلاح الدينى ٩٢

٢ - مؤلف المدينة الفاضلة ١٠٤

٣ - الشهيد ١١٣

صفحة

٤ - حكاية ثلاث ملكات ١١٨

الفصل الخامس والعشرون : هنرى الثامن والأديار (١٥٣٥ - ٤٧) ١٢٥

١ - تقنية الحل ١٢٥

٢ - الإيرلندى العنيد ١٣٠٠ - ١٥٥٨ - ١٣٥

٣ - ملك من قبة رأسه إلى أخمص قدميه ١٣٨

٤ - التنين يتقاعد ١٤٣

الفصل السادس والعشرون : إدوارد السادس ومارى تيودور

(١٥٤٧ - ١٥٥٨) ١٥٤

١ - حماية سومرت ١٥٤

٢ - حماية وارويك (١٥٤٩ - ٥٣) ١٦١

٣ - الملكة الرقيقة (١٥٥٣ - ٥٤) ١٦٨

٤ - مارى الدموية (١٥٥٤ - ٥٨) ١٧٨

الفصل السابع والعشرون : من روبرت بروس إلى جون نوكس

(١٣٠٠ - ١٥٦١) ١٩٢

١ - الاسكوتلنديون الذين لا يقهرون ١٩٢

٢ - وقائع ملكية (١٣١٤ - ١٥٥٤) ١٩٥

٣ - جون نوكس (١٥٠٥ - ٥٩) ٢٠٠

٤ - جماعة أتباع يسوع المسيح (١٥٥٧ - ٦٠) ٢١٤

الفصل الثامن والعشرون : هجرات الإصلاح الدينى (١٥١٧ - ٦٠) ٢٢٣

١ - المشهد الاسكتلنديناوى (١٤٧٠ - ١٥٢٣) ٢٢٣

٢ - الإصلاح الدينى السويدى ٢٢٧

صفحة

- ٣ - الإصلاح الدينى الدنمركى ٢٣٣
- ٤ - البروتستانتية فى شرق أوروبا ٢٣٦
- ٥ - شارل الخامس والأراضى المنخفضة ٢٤٢
- ٦ - إسبانيا (١٥٢٠ - ٢٢) ٢٥١
- ١ - ثورة العامة (١٥٢٠ - ٢٢) ٢٥١
- ٢ - البروتستانت الإسبان ٢٥٤
- ٣ - الإمبراطور يموت (٥٥٦ - ٥٨) ٢٥٨

قصة الحضارة

ول وَايرثيل ديورانت

الإصلاح الديني

مراجعة
الأستاذ علي أدھم

ترجمة
الدكتور عبد الحميد بونس

الجزء الرابع من المجلد السادس

٢٥



تونس



بيروت